Mngool.com

الثقافة الإسلامية

المستوى الرابع (٤٠١)

تأليف

الشيخ محمد قطب — الأستاذ محمد المبارك

الأستاذ مصطفى كامل

مراجعة

الدكتور محمد إبراهيم علي — الدكتور حسين حامد حسان

مركز النشر العلمي

جامعة الملك عبد العزيز

ص ب ١٥٤٠ - جدة ٢١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى : ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) .

الطبعة التاسعة عشر : ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م)

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قطب . محمد

الثقافة الإسلامية : المستوى الرابع ٤٠١ / محمد قطب ، محمد المبارك ، مصطفى كامل - ط ١٨ - جدة

١٨٢ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك X - ٠١١-٠٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٧-٢٢٨-٠٦-٩٩٦٠ (ج ٤)

١ - الثقافة الإسلامية - كتب دراسية ٢ - التعليم الجامعي - السعودية

أ- المبارك ، محمد (م. مشارك) ب - كامل ، مصطفى (م. مشارك)

ج - العنوان

ديوي ٢١٤ ٢٠/٣٢٧٤

رقم الإيداع : ٢٠/٣٢٧٤
ردمك : X-٠١١-٠٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٧-٢٢٨-٠٦-٩٩٦٠ (ج ٤)

مطابع جامعة الملك عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . بحمد الله وحسن توفيقه أصبحت مادة الثقافة الاسلامية مادة اجبارية « متطلبات جامعة » على جميع طلاب الجامعة باختلاف مستوياتهم الدراسية . واهتماما بهذه المادة من كلية الشريعة والدراسات الاسلامية باعتبارها الكلية المشرفة على تدريس هذه المادة فقد طلبت من بعض أساتذة مادة الثقافة الاسلامية بقسم الدعوة وأصول الدين بالكلية وضع منهج لهذه المادة يساعد الطلاب الدارسين على فهمها ويشرح بعض مفرداتها يكون فى يد الطالب حسب مستواه . وقد وزع منهج هذه المادة على أربعة مستويات حسب المنهج المعتمد .

نسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ،

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
راشد بن راجح الشريف
مكة المكرمة ١٣٩٦/٧/١٨ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

منهاج الثقافة الاسلامية

المستوى الرابع (٤٠١)

الهدف من هذا المنهج ربط الطالب بمجتمعه الذى يعيش فيه ، والذى سيتخرج اليه بعد شهور قليلة عاملا فيه ومتفاعلا معه على نطاق عملى ، ليتعرف على الصورة الواقعية لهذا المجتمع ، مقيسة بالصورة التى ينبغى أن يكون عليها ، ويتعرف على مشكلات هذا المجتمع وانحرافاته والسبيل الى تقويمه .

وينقسم المنهج الى قسمين :

القسم الأول

دراسة المجتمع الاسلامى المثالى

يبدأ هذا القسم بدراسة الصورة المثالية للتطبيق الاسلامى فى عالم الواقع، ممثلة عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الصحابة والتابعين ، ثم دراسة الانحراف التدريجى الذى وقع فيه المسلون فبعدوا رويدا رويدا عن التطبيق الصحيح للاسلام وما ترتب على ذلك من آثار .

أولا ـ الصورة المثالية للأمة الاسلامية ممثلة فى عصر صدر الاسلام وتشتمل على النقاط التالية :

١ ـ المعنى الحقيقى للأمة فى التصور الاسلامى وهو « مجموعة من البشر تجمعهم العقيدة الصحيحة فى الله » ، فى مقابل التصور الجاهل وهو « مجموعة من البشر تجمعهم أرض مشتركة ولغة مشتركة وجنس مشترك وماض مشترك وآمال مشتركة ومصالح مشتركة » دون اعتبار للعقيدة .

٢ ـ السمات التى اتصفت بها الأمة الاسلامية لتستحق عند الله أن يصفها فى كتابه الكريم بقوله سبحانه : **(كنتم خير امة اخرجت للناس)** (١) ومن أبرز هذه السمات :

---

(١) من الآية ١١٠ سورة آل عمران

(أ) تعمق معانى الايمان فى قلوبهم ، وجدية أخذهم بالكتاب وارخاصهم أنفسهم فى سبيل الله .

(ب) انصهار الأجناس والشعوب واللغات فى أمة واحدة العقيدة ، متحدة الوجهة .

(جـ) تحقق المعانى الصحيحة للحرية والأخاء والمساواة فى عا . لا فى عالم الشعارات .

(د) تحقق العدل الربانى بصورة فريدة فى التاريخ وخاصة بين المسلمين وغير المسلمين (حادثة الشاب القبطى مع ابن عمرو بن العاص ، واليهودى الذى سرق درع على ـ كرم الله وجهه ـ وأمثالهما كثير) .

(هـ) الوفاء بالمواثيق (مثال صلح الحديبية) ، عهد أبى عبيدة لأهل الشام ورد الجزية اليهم .. الخ .. الخ) . فى مقابل الأمم التى تبرم المواثيق وهى تضمر فى نفسها نقضها فى أول فرصة مواتية .

(و) التكافل داخل الأمة الاسلامية على جميع مستوياته .

(ز) اخلاقيات الاسلام التى يبتغى بها وجه الله فى مقابل الأخلاق النفعية السائدة فى الغرب اليوم .

ثانيا ـ خط الانحراف :

ويشتمل على الانحرافات التدريجية المتوالية التى حدثت فى العهد الأموى، ثم العهد العباسى ، ثم العهد التركى حتى العصر الحاضر ، مع ابراز انحرافات معينة كان لها أثرها السيىء فى حياة المسلمين ، من بينها :

١ ـ الانحراف فى مفهوم العبادة ، فبعد أن كان شاملا لكل نشاط الانسان على الأرض كما تبينه الآية : **(وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون)** (١) والآيتان : **(قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)** (٢) . ظل يضيق تدريجيا حتى أصبح محصورا فى شعائر التعبد فحسب .

٢ ـ الانحراف فى مفهوم عقيدة القضاء والقدر ، فبعد أن كانت عقيدة دافعة

---

(١) الذاريات ٥٦

(٢) الانعام ١٦٢ ، ١٦٣

الى القوة والصمود فى وجه الأحداث اطمئنانا الى قدر الله ، أصبحت عقيدة مخذلة تدعو الى الرضا بالفقر والعجز ادعاء بأنه قدر من عند الله .

٣ ـ الانحراف فى مفهوم التوكل وهو التوجه الى الله والاعتماد عليه بعد الأخذ بالأسباب ، وتحويله الى تواكل سلبى مع القعود عن السعى وعدم الأخذ بالأسباب وما ترتب على ذلك من تخلف علمى واقتصادى ومادى .

٤ ـ الانحراف فى مفهوم الزهد وهو الاستعلاء على الشهوات مع الايجابية الكاملة والفاعلية فى واقع الأرض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتحويله الى عزلة سلبية وانصراف عن مواجهة الباطل وتقويمه ، وانصراف كذلك عن عمارة الأرض بدعوى أنها تخالف الايمان الصحيح .

٥ ـ وقف الاجتهاد وانصراف الفقهاء الى التقليد ، مع تعصب كل فريق لمذهبه الخاص ،

٦ ـ ظهور الفرق المختلفة وتفتيت الوحدة العقيدية للمسلين .

٧ ـ تحويل الاسلام فى قلوب الناس ـ فى النهاية ـ الى مجموعة من الخرافات ومجوعة من التقاليد المظهرية الخاوية من الروح .

ثالثا ـ الآثار المترتبة على انحراف المسلمين عن الاسلام : ويبرز فيها النقاط الآتية :

١ ـ الضعف العلمى والمادى والاقتصادى والسياسى والعسكرى الذى أصاب العالم الاسلامى فى مجموعه .

٢ ـ وقوع العالم الاسلامى فريسة لأعدائه وما حدث من غزو عسكرى واقتصادى وسياسى لمختلف بلدان العالم الاسلامى .

٣ ـ الأحوال التى تعانيها الأقليات الاسلامية كمسلمى الفليبين ومسلمى روسيا والصين وغيرهم .

٤ ـ حالة الانهيار التى أصابت المسلمين تجاه أوربا ومهدت فى قلوبهم لتقبل الغزو الفكرى .

القسم الثانى

أحوال المجتمع الاسلامى المعاصر

ويشتمل هذا القسم على ثلاثة موضوعات رئيسية ، هى :

الغزو الفكرى – وحركات البعث الاسلامى والسبيل لاصلاح أحوال المسلمين .

أولا : **الغزو الفكرى** – تبرز فيه النقاط الآتية :

١ – تعريف الغزو الفكرى وبيان أسبابه (ضعف المسلمين وتخلفهم وانبهارهم بما عند الغرب) وبيان أهدافه (محاولة اقتلاع العقيدة الاسلامية من قلوب المسلمين وتحويل واقعهم الى صورة مخالفة للصورة الاسلامية) .

٢ – بيان الوسائل التى يستخدمها الغزو الفكرى لبلوغ أهدافه ، ومن بينها :

(أ) وضع المستعمرين فى البلاد التى احتلوها سياسات تعليمية تخرج أجيالا لا تعرف حقيقة الاسلام وتجنح الى الانسلاخ منه .

(ب) محاولة افساد المرأة المسلمة بدعوى تعليمها وتحريرها حتى لا تلقن أبناءها قواعد الدين الاسلامى والسلوك الاسلامى والأخلاق الاسلامية (مع بيان أن الاسلام يحرص على تعليم المرأة المسلمة وانسانيتها وكرامتها ، ولكن دون أن يفسد أخلاقها أو يصرفها عن القيام بشئون أسرتها وتربية أبنائها) .

(جـ) افساد مفهوم السياسة وفصل السياسة عن الدين لايجاد أنظمة لا تحكم بما أنزل الله .

(د) افساد الثقافة والفن ووسائل الاعلام بتوجيهها توجيها بعيداً عن الاسلام .

ثانيا – حركات البعث الاسلامى :

تدرس فيه حركات البعث التى قامت كرد فعل لفساد الأحوال الداخلية من جانب والغزو السياسى والعسكرى والفكرى من جانب آخر ، مع بيان أنها الحركات الطبيعية السليمة التى ينبغى أن تقوم فى العالم الاسلامى لرده الى الصورة الصحيحة .

ويبدأ بدراسة حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب باعتبارها الحركة الرائدة التى غذت الحركات الأخرى ، وباعتبار أنها نبعت من البيئة التى يعيش فيها الطالب السعودى وهى المملكة العربية السعودية ، ثم تؤخذ الحركات الأخرى التالية بايجاز لبيان الخط التاريخى وهى المهدية ، والسنوسية ، وحركة الجهاد الجزائرية بقيادة عبد القادر الجزائرى ، وحركة الاخوان المسلمين ، وحركة الجماعة الاسلامية بباكستان ، وحركة دار اسلام بأندونيسيا ، وحركة جماعة النور بتركيا .

ثالثا ـ سبيل الاصلاح :

تدرس فيه الوسائل التى يمكن اعادة الأمة الاسلامية الى عظمتها السابقة وخيريتها التى فقدتها خلال الأجيال ، مع بيان أن البشرية كلها اليوم فى حاجة ملحة الى الاسلام ، ولكن ينقصها أن ترى صورته التطبيقية السليمة على أيدى المسلمين .

ومن أبرز هذه الوسائل :

(أ) ازالة الجهالة المتفشية بحقائق الاسلام باستخدام وسائل الاعلام ووسائل التعليم .

(ب) التربية الاسلامية الصحيحة فى المدارس والجامعات .

(جـ) الدعوة الى تصحيح ما يوجد من النظم والتطبيقات فى البلاد الاسلامية مخالفا للشريعة الاسلامية .

(د) الدعوة الى ازالة الحواجز القائمة بين مختلف بلاد العالم الاسلامى بما فى ذلك الحواجز الجمركية وحواجز الانتقال من بلد الى آخر .

(هـ) تقوية اقتصاديات العالم الاسلامى واستغلال موارده الطبيعية الهائلة فى اقامة أمة متكاملة مترابطة .

(و) الأخذ بوسائل التقدم المادى ولكن على أساس من الروح الاسلامية التى لا تفصل بين الدين والدنيا ، ولا بين الدنيا والآخرة .

القسم الأول

المجتمع الاسلامى المثالى

وخط الانحراف عنه

والغزو الفكرى فى البلاد الاسلامية

كتب هذا القسم الاستاذ الشيخ محمد قطب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لكى ندرس المجتمع الاسلامى المعاصر ، ونعرف مدى استقامته على أمر الاسلام أو بعده عنه ، ومدى ما طرأ عليه من انحراف على مدى التاريخ ، ينبغى أولا أن نعرف الصورة الصحيحة للمجتمع الاسلامى ، كما تحققت بكاملها فى الجيل الأول للمسلمين ، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، فهذا هو مقياسنا الدائم الذى ينبغى أن نرجع اليه لنصحح خطانا على الطريق .

ولكى ندرك حقيقة الاسلام ـ التى قام عليها ذلك المجتمع الاسلامى الأول ـ ينبغى لنا أن نعرف حقيقة الجاهلية ، فكما قال عمر ـ رضى الله عنه ـ « لا يعرف الاسلام من لم يعرف الجاهلية » . فان الاسلام هو الوجه المقابل تماما للجاهلية ، واذا لم نعرف الجاهلية على حقيقتها ، فقد تفوتنا معرفة الاسلام على حقيقته ، ويفوتنا ادراك كثير من قيمه ومفاهيمه .

وكثيرا ما تخلط الكتب التى نقرؤها بين جوهر الجاهلية ومظاهرها . فتقول فى تعريف الجاهلية تلك الجملة المشهورة : « كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ، ويقومون بغارات السلب والنهب ، فنهاهم الاسلام عن ذلك » .

وهذا كله حق . ولكنه لا يبين الجوهر الحقيقى للجاهلية . فقد توجد الجاهلية دون عبادة للأصنام الظاهرة المحسوسة ، ودون وأد للبنات أو شرب الخمر أو لعب الميسر أو غارات للسلب والنهب . . انما هذه كلها مظاهر وجدت فى الجاهلية العربية قبل الاسلام وليس من الضرورى أن توجد فى كل جاهلية . بل ان الجاهلية الحديثة المسيطرة على الغرب لتكاد تخلو من هذه المظاهر كلها ـ فيما عدا الخمر والميسر ـ ومع ذلك فهى جاهلية كاملة ، بل هى أعتى جاهليات التاريخ .

يجب علينا اذا أن نتعرف على الجوهر الحقيقى للجاهلية ـ الجوهر المشترك بين الجاهليات جميعا فى كل التاريخ ، والذى من أجله تكتسب الجاهلية

صفنها ــ ثم نتعرف بعد ذلك على مظاهر الجاهلية العربية التى نحن معنيون بدراستها ، كما نتعرف ــ اذا شئنا ــ على مظاهر الجاهليات الأخرى ــ وبصفة خاصة جاهلية القرن العشرين التى تحيط بالعالم الاسلامى من كل جانب ، وتغزوه بكل وسائل الغزو وفى مقدمتها الغزو الفكرى والروحى .

واذا كان القرآن هو الذى استخدم لفظة « الجاهلية » لأول مرة ، وجب علينا أن نرجع الى كتاب الله لنعرف منه التعريف الصحيح للجاهلية فى جوهرها الحقيقى لا فى مظاهرها الخارجية .

فاذا رجعنا الى القرآن فى المواضيع التى ذكر فيها لفظ « الجاهلية » أو اشتقاقاته « يجهلون » « تجهلون » « الجاهلين » . . أو مرادفها : « لا يعلمون » نجد أن هذه الألفاظ قد استخدمت فى معنيين محددين : اما الجهل بالألوهية أى عدم معرفة الله المعرفة الحقة ، واما اتباع غير ما أنزل الله :

« وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال انكم قوم تجهلون » (١)

أى تجهلون حقيقة الالوهية .

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟ » (٢)

أى الحكم بغير ما أنزل الله .

واذا استعرضنا بقية النماذج فسنجد أنها تشير الى واحد من هذين المعنيين أو كليهما ، بحيث نستطيع أن نحدد بدقة معنى الجاهلية كما استخدمه القرآن الكريم بأنه : الجهل بالألوهية ، وعدم اتباع ما أنزل الله .

اما المظاهر المختلفة من عبادة أصنام ووأد بنات وشرب خمر ولعب ميسر وغارات سلب ونهب فكلها أشياء ناجمة عن هذا الجوهر الأساسى وهو الجهل بالألوهية وعدم اتباع ما أنزل الله . ولكنها كما قلنا ليست حتمية . وليس من الضرورى أن توجد فى كل بيئة وكل عصر ، وقد لا توجد على الاطلاق ، ومع ذلك تظل الجاهلية جاهلية ما دامت لا تعرف الله معرفة صحيحة ولا تقدره حق قدره : **« وما قدروا الله حق قدره »** (٣) لتشرك به غيره وما دامت لا تتبع ما أنزل الله بل تتبع ما يمليه عليها الهوى والشهوات .

---

(١) الاعراف ١٣٨

(٢) المائدة ٥٠

(٣) الزمر ٦٧

والاسلام هو الوجه المقابل تماما للجاهلية فاذا كانت الجاهلية هى الجهل بالله فالاسلام هو المعرفة الحقة بالله التى تؤدى الى الايمان به وحده دون شريك . واذا كانت الجاهلية هى عدم اتباع ما أنزل الله ، ورفض الحكم بما أنزل الله ، فالاسلام هو السمع والطاعة لله ، واتباع ما أنزل الله .

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (١) أى الذين يعرفون الله حق معرفته والذين لا يعرفون .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٢)

« انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا : سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » (٣)

فالاسلام — اسلام الوجه لله ، أو اسلام النفس لله — **يقتضى معرفة حقة بالله** تؤدى الى الايمان به وحده دون شريك ، والى خشيته وتقواه ، والى اتباع أوامره والالتزام بمنهجه فى الحياة .

« افمن يعلم ان ما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى ؟ انما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » (٤)

ولقد كان هذا المعنى الذى فهمه المسلمون الأوائل من الاسلام ، وتحقيق هذا المعنى بكامله فى واقع حياتهم ، هو الذى اخرجهم من جاهلياتهم التى كانوا عليها ، والذى أوصلهم فى مدارج الرقى الايمانى والعظمة النفسية والروحية الى المرتبة التى استحقوا فيها وصف خالقهم — سبحانه — بأنهم خير أمة فى تاريخ البشرية :

« كنتم خير امة اخرجت للناس : تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٥)

---

(١) الزمر ٩

(٢) النساء ٦٥

(٣) النور ٥١

(٤) الرعد من ١٩ الى ٢٤

(٥) آل عمران ١١٠

نشأة الجيل الأول

كيف نشأ ذلك الجيل الفذ الذى لا مثيل له فى تاريخ البشرية كله ؟ ..

كيف كانت حياة الناس فى الجاهلية ، وكيف صاروا الى ما صاروا اليه من مستويات رفيعة سامية ، وما العناصر التى أثرت فى هذا التكوين النموذجى الرائع على غير مثال مسبوق ولا ملحوق ؟

إذا نظرنا الى حياة الناس فى الجاهلية فى أنحاء الجزيرة العربية وجدنا الشرك قائما فى جميع صوره وأشكاله . فهم يعرفون الله – نظريا – ويعرفون أنه خالق السموات والأرض كما سجل عليهم القرآن : **« ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله »** (١) **« قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون ؟) (٢) »**

ولكن هذه المعرفة النظرية لا تأثير لها فى واقع حياتهم ، فلا هى تمنعهم من الشرك فى العقيدة ولا الشرك فى اتباع غير ما أنزل الله . ففى العقيدة يعتقدون أن هناك آلهة أخرى يعبدونها مع الله أو من دون الله فى الحقيقة ، وفى الاتباع يحرمون ويحلون من عند أنفسهم ولا يتبعون ما أنزل الله :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء » (٣)

ولم تكن الأصنام والملائكة والجن هى المعبودات الوحيدة التى يعبدونها من دون الله وان زعموا أنهم انما يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى : **« والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »** (٤) بل كانت هناك فى الحقيقة أرباب أخرى معبودة ومسيطرة على القلوب أكثر من سيطرة الاله الذى يزعمون عبادته .

فالقبيلة كانت ربا يعبد ويطاع ولا يجرؤ أحد من افرادها على المخالفة عن أمرها بما ينطبق عليه قول الشاعر :

وهل أنا الا من غزية ان غوت غويت ، وان ترشد غزية أرشد

---

(١) لقمان ٢٥
(٢) المؤمنون من ٨٤ الى ٨٩
(٣) النحل ٣٥
(٤) الزمر ٣

.. حتى ان أكبر تهديد كان يمكن أن يتعرض له انسان هو « الخلع » من القبيلة فيصبح « خليعا » منبوذا لا يتحدث اليه أحد ولا يتعامل معه أحد . ومن هنا يخضع أفراد القبيلة لسلطانها فى غيها ورشدها سواء ، لا يسألونها حين تأمرهم بقتال أو سلب أو نهب أو أى أمر آخر : أحلال هو أم حرام ؟ ومتبع هو لما أنزل الله أم مخالف له ؟ وتلك هى الحمية الجاهلية التى تحدث عنها القرآن : **« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » (١)**

ولم تكن القبيلة وحدها هى صاحبة السلطان على قلوب الناس الى جانب الآلهة المزعومة بل كان عرف الآباء والأجداد كذلك سلطانا قاهرا يستعبد الناس ويحول بينهم وبين الاستقامة على أمر الله الذى يزعمون عبادته : **« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (٢) .**

كما كان الهوى ربا معبودا من دون الله ، يطاع فى معصية الله : **« أرأيت من اتخذ الهه هواه » (٣)**

فهذه كلها كانت أربابا يشرك بها فى الاعتقاد أو فى الاتباع ، وتسيطر على مشاعر الناس وأفكارهم وتشكل سلوكهم .

كما أن عدم الايمان باليوم الآخر كان له شأنه فى تشكيل حياة الناس . فما دامت الحياة فرصة واحدة لا تتكرر ، وما دام العمر قصيرا مهما طال ، فلابد اذن من انتهاب اللذات قبل أن تفوت ، وهذا شأن الجاهليات دائما فى القديم والحديث .

الا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل انت مخلدى ؟

فما دام لا يؤمن بالخلود ، فالأوفق ـ فى نظره ـ أن يغتنم الفرصة الوحيدة ، المتاحة له ، ويغرق فى الشهوات ..

من هذا الأفق الضيق المحصور ، الذى تحكمه الخرافة وتستعبد فيه الأرباب المزيفة قلوب الناس فتبدد طاقاتهم فى شهوات الحس القريبة ومصالح الأرض المتضاربة المتطاحنة ، التى تفقد الناس وجودهم الانسانى الحقيقى ، وتهبط بهم الى المستوى الأدنى ، فضلا عما تحدث فى نفوسهم من فراغ وتفاهة وانحسار عن الآفاق العليا من هذا الأفق الضيق الهابط المحصور ، رفعهم

---

(١) الفتح : الاية ٢٦
(٢) البقرة : الاية ١٧٠
(٣) الفرقان : الاية ٤٣

الاسلام الى آفاقه العليا المشرقة ، فاستردوا آدميتهم المفقودة ، وارتفعوا بها الى درجات من السمو فى كل مجال من مجالات الحيـاة على نمط فريد فى التـاريخ .

كيف حدث ذلك ؟ ما العناصر التى يمكن أن نرجع اليهـا هذا الانقلاب الضخم الذى يعتبر أعظم انقلابات التاريخ ؟

يمكن أن نعدد من هذه العناصر أربعة على وجه التحديد كانت أهم عناصر التكوين الجديد : كتاب الله ، وسنة رسوله ، والأثر المباشر لشخصية الرسول « صلى الله عليه وسلم » وأثر النشأة الجديدة .

القرآن

القرآن هو كتاب التربية الأعظم ، الذى ربى هذه الأمة بل انشأها انشاء من ركام الجاهلية المبدد المتناثر ، وكتب لها دورها الضخم فى حياة البشرية جميعا :

« كنتم خير أمة أخرجت للنـاس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١)

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٢)

وكل كلمة وردت فى القرآن فهى جزء من منهج التربية الاسلامية ، سواء كانت قصة أو موعظة أو تشريعا أو توجيها اقتصاديا أو سياسيا أو أخلاقيا أو عقليا أو مشهدا من مشاهد القيامة أو اشارة الى أحوال النـاس فى الأرض . ولكننا نجترىء هنـا بالحديث عن بعض موضوعات القرآن التى كان لها الأثر الأكبر فى تربية الأمة الاسلامية ، دون أن يكون معنى ذلك أننا نفردها بالأهمية أو نفردها بعظم التأثير .

اولا ــ الايمان بالله :

موضوع الألوهية هو أكثر الموضوعات ورودا فى القرآن ، وأكبرها حجما . ولا عجب فى ذلك ، فلا يمكن اقامة العقيدة الصحيحة ، ولا اقامة كل ما بنى عليها فى الاسلام من النظم السياسـية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية والأخلاقية . . الخ دون تجلية موضوع الألوهية وترسيخه فى قلوب المؤمنين ،

---

(١) سورة آل عمران : الاية ١١٠

(٢) سورة البقرة : الاية ١٤٢

حتى يكون الله سبحانه وتعالى حاضرا فى قلوبهم فى كل لحظة ، يتطلعون اليه بالرجاء ، ويتوجهون اليه بالخشية ويستعينون به فى كل أمورهم . ويتقونه فى كل تصرفاتهم ، وذلك هو الطريق لاصلاح النفس البشرية والحياة البشرية الذى لا يعدله طريق آخر ، ولا تؤتى ثماره وسيلة أخرى .

لذلك عنى القرآن بتعريف المؤمنين بربهم ، بكل صفاته سبحانه وتعالى وباستخدام كل الوسائل المؤدية الى تعميق شعورهم بعظمة الله وجلاله ، وربط قلوبهم به فى كل حالاتها . فالله هو الخالق الذى لا خالق غيره . والرازق الذى لا رازق غيره والضار النافع المحى المميت . عالم الغيب والشهادة . صاحب اليوم الأول واليوم الآخر ، وصاحب الدينونة الذى يبعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم **((فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)) (١)**

وعن طريق عرض آيات الله فى الكون ، واثارة الوجدان بقوة الله القادرة التى تدير هذا الكون العريض كله ، ولا تغفل عن ذرة من ذراته : **((لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين)) (٢)**

وعرض قدرة الله المعجزة فى الأحياء والاماتة ، وعرض دلائل خضوع الكون كله بكل ما فيه ، لمشيئته سبحانه ، وعرض قصص المكذبين والمعاندين وبطش الله بهم فى الدنيا بطشا لا يجدون فكاكا ولا مهربا منه ... يعمق فى قلوب المؤمنين شعورهم بالله سبحانه وتعالى وتزداد قلوبهم خشية له وتقوى ، وحبا له وتطلعا فى ذات الوقت : **((الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله (٣)))** . وبذلك يصبحون أقرب الى طاعة أوامره ، تعبدا له ، وطمعا فى رضوانه ، وخشية من عذابه ، فتستقيم نفوسهم من الداخل ، وتصلح حياتهم بسيرها على منهج الله .

وواضح من تتبع تاريخ الدعوة الاسلامية وقيام المجتمع الاسلامى أن التنظيمات والتشريعات لم تكن هى أول ما نزل به القرآن ، انما كانت العقيدة الاسلامية السليمة هى أول ما نزل به القرآن ، حتى اذا استقامت القلوب على خشية الله وطاعته نزلت التشريعات والتنظيمات فكانت القلوب مهيأة للتقبل

---

(١) سورة الزلزلة : الاية ٧ ـ ٨
(٢) سورة سبأ : الاية ٣
(٣) سورة الزمر : الاية ٢٣

وكانت النفوس مهيأة للتنفيذ الفورى لأوامر الله ، بلا تلكؤ ولا تردد الا المنافقين بطبيعة الحال وهؤلاء لا يخلو منهم مجتمع فى التاريخ .

ومن أعظم الأمثلة على ذلك أنه لما نزلت آيات تحريم الخمر (١) أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى فى طرقات المدينة : أيها الناس الا أن الخمر قد حرمت . فما احتاج الأمر الى اجراء آخر ، فقام المسلمون كل من كان عنده دن خمر أراقه فى الطريق . ومن كانت فى فمه شربة قذفها من فمه . وذلك قمة فى الطاعة والتعبد ، وقمة فى ضمان الاصلاح فى الأرض حين يكون مرتبطا بالعقيدة فى الله وقائما عليها .

لا عجب اذن أن كانت عناية القرآن بقضية الألوهية فى المكان الأول ، وكان عرض هذه القضية هو الذى يشغل أكبر مساحة فى القرآن كله ، مكيه ومدنيه على السواء .

ثانيا ــ الايمان باليوم الآخر :

يقرن القرآن فى مواطن كثيرة بين الايمان بالله واليوم الآخر . يقول : **« يؤمنون بالله واليوم الآخر »** (٢) أو يقول فى حالة النفى : **« لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر »** (٣) وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية الايمان باليوم الآخر ، حتى ليرتبط مباشرة بالايمان بالله ونظن لأول وهلة أن اهتمام القرآن الشديد باليوم الآخر سببه انكار العرب فى الجاهلية لقضية البعث والجزاء . ولكن ورود ذكر اليوم الآخر ومشاهد القيامة فى السور المدنية ، بعد ايمان المؤمنين وقيام الدولة والمجتمع على أسس الايمان الراسخة ، يدل على أن قضية اليوم الآخر لها أهميتها الدائمة فى الاسلام ، حتى بالنسبة للذين آمنوا واطمأنت قلوبهم الى الايمان .

ان الايمان باليوم الآخر ضرورة دائمة للبشرية فى كل أحوالها ، وذلك بالنسبة لتركيب الفطرة البشرية ذاته . ففى النفس البشرية دوافع قوية أودعها الله فى الفطرة لحكمة يريدها ، لكى تعاون الانسان فى القيام بمهمة الخلافة عن الله فى الأرض . وهى مهمة شاقة مجهدة تحتاج الى دوافع قوية حتى لا تقف الحواجز والعقبات فى طريق القيام بمهامها الشاقة . لذلك أودع الله فى فطرة الانسان دوافع قوية للطعام والشراب ، .. والمسكن والملبس والجنس ، والملك ، واثبات الذات ... الخ كل منها تدفع الانسان الى النشاط والحركة والانتاج ، للقيام بعمارة الأرض وتنظيم شئونها ، وهو

(١) سورة المائدة ٩٠ ــ ٩٢
(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢
(٣) سورة التوبة الآية ٢٩

مقتضى الخلافة . ويعبر القرآن عن قوة هذه الدوافع بقوله : **« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » (١)**

ولكن الله خالق هذه الفطرة يعلم سبحانه أنه لابد من ضوابط تضبط هذه الدوافع والا أهلكت صاحبها وأعطبته . فأودع فى الفطرة الى جانب الدوافع تلك الضوابط التى تضبطها ، من عقل وارادة وقدرة على التمييز وقدرة على الاختيار **« ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (٢)**

ولكنه يعلم كذلك أنه لابد من معينــات تعين هذه الضوابط على العمل ، فيرسل الرسل للتذكير والتحذير ، ويجعل من شروط الايمان كذلك ، الايمان باليوم الآخر .

انه لا شيء ــ بعد الايمان بالله ــ يمكن أن يقنع الانسان بالحد من شهواته والالتزام بحدوده الآمنة التى يقول عنها : **« تلك حدود الله فلا تعتدوها » (٣)** الا الايمان باليوم الآخر .

بدون الايمان باليوم الآخر يحس الانسان ــ كما مر بنا فى الجاهلية ــ أنها فرصة واحدة ان أفلتت فلن تعود ، لذلك ينكب على الشهوات ينتهب منها بقدر ما يستطيع أما اذا آمن باليوم الآخر ايمانا راسخا فأصبح ذلك عنده عقيدة ، واذا أيقن أن ما يفوته فى الأرض ــ طاعة لله وتعبدا ــ سيعوض عنه فى الجنــة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، عنــدئذ يسهل عليه التنازل عن القدر الزائد من المتاع ، وتخف ثقلة الأرض فى نفسه بمقدار ما تثقل الآخرة فى حسه ، ويصبح خفيفا رشيقا لا تثقله الشهوات . لذلك تقول الآية : **« زين لناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله » (٤)**

وهى ليست دعوة لتحريم متاع الأرض وانما للتخفيف منه والالتزام فيه بحدود الله ، طمعا فيما هو خير منه يوم المآب . هذه واحدة

---

(١) سورة آل عمران : الاية ١٤

(٢) سورة الشمس : الاية ٧ ــ ١٠

(٣) سورة البقرة : الاية ٢٢٩

(٤) سورة آل عمران : الايات ١٤ ، ١٥

والثانيـة أن اقامة حكم الله فى الأرض ـ الذى لا تستقيم حيـاة البشر بدونه كثيرا ـ تعرض المؤمن للحرمان من متـاع الأرض ، حتى المباح منه ، بل قد تعرضه لفقدان هذا المتاع كله حتى يتعرض للموت فى سبيل الله ، فكيف يقدم على الجهاد فى سبيل الله ـ الذى يعرض للحرمان من المتاع ـ اذا كان هذا المتاع ثقيلا فى حسه ، لا شىء يعادله من الجانب الآخر ويخفف من ثقله ؟ انه لابد ـ لكى يقدم الانسان على الجهاد فى سبيل الله ـ من أن يخف فى حسه هذا المتاع الأرضى ، ولن يخف حتى يؤمن ايمانا راسخا باليوم الآخر وما فيه من متاع أبدى ، لمن ترك متاعه فى الأرض ابتغاء رضوان الله .

ومن هنـا نتبين أهمية الايمان باليوم الآخر ، وسر الربط بينـه وبين الايمان بالله .

ثالثا ـ الانسان : مبدؤه ومنتهاه وغاية وجوده ومهمته فى الحياة

ان هناك أسئلة تلح على فطرة الانسان بوعى أو بغير وعى ، تتطلب منه اجابة محددة وعلى ضوء هذه الاجابة تتشكل حياته على الأرض وتحدد أهدافها : من أين جاء ؟ .. الى أين يصير ؟ .. لماذا يعيش ؟ ما غاية وجوده ؟ ، كيف يعيش ؟ ، ما منهج حياته ؟ . هذه الأسئلة : من أين ؟ والى أين ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ لابد أن تعرض للانسان فى حياته بصورة من الصور . فأما المفكرون والفلاسفة فهى تجابهم بصورة واعية فتشغل أفكارهم ، ويتخذونها مادة للدراسة العميقة والتأمل . وأما العامة من الناس فقد لا تتبلور فى حسهم فى صورة أفكار وقيم ومناهج حياة محددة واضحة ولكنها بغير شك تؤثر فى تكييف حياتهم وتلوين مشاعرهم وأفكارهم وانماط سلوكهم وحين لا يجد هؤلاء وهؤلاء اجابة واضحة أو مقنعة لهذه الأسئلة فانهم يشقون بها شقوة بالغة ، لأنهم عندئذ لا يدركون لوجودهم معنى ولا لحياتهم هدفا وتصبح الحياة عبئا على أعصابهم يحاولون الهروب منها بصورة من الصور : بالخمر أو الجنس أو اللهو الصاخب المعربد أو المخدرات أو الانتحار أو الجنون .

والجاهلية المعاصرة خير مثال لتلك الحيرة المشقية التى تستبد بأرواح الناس وعقولهم فى الغرب ، حين يبحثون عن معنى لوجودهم فلا يجدون ، وعن هدف لحياتهم فلا يهتدون ، فيشعرون بالضياع ، ويلجأون الى التعبير عن هذا الضيـاع بشتى وسـائل التعبير . بعض الشباب يلجأ الى حركات العنف وبعضهم الآخر يلجأ الى حركات التميـع والانحـلال . كالخنافس والهيبيز ،، وكلاهما ضائع يبحث عن هدف وجودهم .

وفى كل جاهلية لابد أن تساور الناس هذه الحيرة ، لأنهم لا يجدون فى مناهج حياتهم الجاهلية اجابة صحيحة على هذه الأسئلة ، ومن ثم ينتشر الخمر والميسر والمخدرات والجنس فى كل جاهليات التاريخ ، يهرب اليها الناس من حيرتهم التى تسلمهم الى الضياع . وانظر الى هذا الشاعر الجاهلى الحديث (ايليا أبو ماضى) الذى يقول :

جئت .. لا أعلم من أين   ولكنى أتيــــــت
ولقد أبصرت قدامى طريقا   فمشــــــــــيت

هكذا بلا هدف ولا غاية ، كما تمشى البهائم بغير وعى ولا ارادة ولا تفكير .

والقرآن ـ كتاب التربية لهذه الأمة ـ ما كان ليدع الناس فى حيرتهم وهو الذى نزل لهدايتهم . وما كان ليدع هذه الأسئلة بغير اجابة واضحة محددة وهو الذى جاء ليحدد للناس منهج حياتهم كله .

ومن ثم التفت القرآن الى هذه الأسئلة وأعطى عنها الاجابة الصحيحة التى تطمئن بها قلوب المؤمنين وتحدد بها معالم رحلتهم من مبتدئها الى منتهاها .

من أين ؟

من عند الله ، هو الذى خلق الكون كله ، وهو الذى خلق الانسان كذلك خلقه من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله : **« اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (١) . « خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (٢) « وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » (٣)**

الى أين ؟

الى الله **« الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير » (٤) « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟ » (٥) « وان الى ربك المنتهى » (٦)**

---

(١) سورة ص : الايات ٧١ ، ٧٢

(٢) سورة آل عمران : ٥٩

(٣) سورة السجدة : الايات ٧ ، ٨

(٤) سورة هود : الاية ٤

(٥) سورة المؤمنون : الاية ١١٥

(٦) سورة النجم : الاية ٤٢

وأنه عند الرجعى يحاسب على ما عمل فى حياته الدنيا فلا يذهب شىء سدى . . ((**أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (١)**)) بلى قادر . . سبحانه .

((**أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وابراهيم الذى وفى ، الا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وان الى ربك المنتهى (٢)** .

((**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)) (٣)** .

لماذا ؟ ان الانسان ـ من ناحية ـ هو خليفة الله فى الأرض ((**واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة (٤)**)) ، ومقتضى هذه الخلافة هو القيام بعمارة الأرض : ((**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها (٥)**)) . ومن ناحية أخرى هو مخلوق ليعبد الله : ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (٦)**)) والعبادة ليست هى مجرد الشعائر التعبدية وانما هى التوجه بكل أعمال الانسان ومشاعره وأفكاره الى الله ، ((**قل : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له (٧)**)) .

كيف ؟

باتباع منهج الله ، والحكم ـ فى الأمور كلها ـ بما أنزل الله : ((**قلنا اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٨)**)) . ((**اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء (٩)**)) .

وبذلك تتحدد رحلة الانسان من بدئها الى نهايتها ، كما تتحدد معالم الطريق كلها ، فلا يضل الانسان خلال رحلته على الأرض ، ولا يقع فى التيه . كالسائح الذى فى حوزته دليل الرحلة : يعلم من أين تبدأ والى أين تنتهى . ويعلم منعطفات الطريق ومسالكه . ويعلم أين يتوقف ليتزود بالزاد ، ويعلم كذلك نوع الزاد الذى ينبغى له أن يتزود به . . ان هذا السائح لا يضل أبدا

---

(١) سورة القيامة : الايات ٣٦ ـ ٤٠
(٢) سورة النجم : الايات ٣٦ ـ ٤٢
(٣) سورة الانبياء : الاية ٤٧
(٤) سورة البقرة : الاية ٣٠
(٥) سورة هود : الاية ٦١
(٦) سورة الذاريات : الاية ٥٦
(٧) سورة الانعام : الايات ١٦٢ ، ١٦٣
(٨) سورة البقرة : الاية ٣٨
(٩) سورة الاعراف : الاية ٣

ولا يحتار أبدا ولا يقلق أبدا .. انما يسير مطمئنا وان أجهده السير . وكلما أجهده السير مضى يتزود بالزاد من جديد . **« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب (١) »** .

رابعا ــ التنظيمات والتشريعات :

وهى تفصيلات المنهج الربانى الذى ينبغى أن تحكم به الحياة البشرية وهى تفصيلات شاملة لكل جوانب الحياة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلاقات الأسرة وعلاقات الجنسين .. الخ كما تشمل العبادات المفروضة وتشمل علاقات السلم والحرب ، وطريقة تنظيم المجتمع المسلم فى كل ما يعرض له من أحوال .

وقد ذكرنا من قبل أن هذه التنظيمات والتشريعات لم تتنزل الا بعد ترسيخ العقيدة وتعميقها فى نفوس المؤمنين حتى صارت هذه النفوس مهيأة للطاعة والتنفيذ فكان التشريع بمجرد نزوله أمرا ملزما لا يفكرون فى الخروج عليه . وبذلك استقامت حياتهم وفق المنهج الربانى الذى راعى فيه الخالق سبحانه مطابقته لحاجات الفطرة البشرية ، وهو العليم بها ، العليم بما يصلحها وما يصلح لها ، وفصله بحيث يتيح لتلك الفطرة أن تبلغ أقصى انطلاقها فى كل مجالات الحياة الطيبة على شمول وتوازن ، فلا يطغى جانب من الحياة على جانب ، ولا يهمل جانب لحساب جانب آخر .

خامسا ــ التوجيهات الخلقية :

وقد شملت مساحة غير قليلة من السور المكية والمدنية على السواء . فبينت الأخلاق الجاهلية التى ينبغى نبذها والأخلاق الايمانية التى ينبغى التخلق بها . وهى توجيهات شاملة لكل تصرفات الانسان . فالأخلاق فى الاسلام ليست محصورة فى جانب دون جانب بل هى قاعدة أساسية تقوم عليها العلاقات كلها : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية .. الخ . ولا يوجد عمل واحد من أعمال الانسان الا وهو داخل فى دائرة التوجيهات الأخلاقية الاسلامية . فلا يعرف الاسلام تلك الازدواجية التى تعيش بها الجاهليات اذ تجعل أعمالا بعينها داخلة فى دائرة الأخلاق (بصرف النظر عن طاعتها أو عدم طاعتها) وأعمالا أخرى خارجة من دائرة الأخلاق ابتداء كما

---

(١) سورة الرعد : الآيات ٢٨ ــ ٢٩

تقول الجاهلية الحديثة : ان السياسة لا علاقة لها بالأخلاق وان الاقتصاد ليس له علاقة بالأخلاق . . بل تبجحوا اخيرا فقالوا ان الجنس لا علاقة له بالأخلاق وانما هو مسألة بيولوجية .

ان الحيوان وحده هو الذى لا تقاس اعماله بمقياس الاخلاق لأنه لا يملك التصرف وسلوكه مملى عليه من جانب الغريزة التى تحكمه . أما الانسان فما دام قد أوتى القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار : « **ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها (١)** » فلا بد أن يكون هناك مقياس أخلاقى لكل أعماله . وذلك ما يقرره الاسلام ابتداء . ثم يأتى القرآن فيفصل منهج الاسلام الأخلاقى ، ويجعل ركنه الركين هو خشية الله وتقواه ، ويجعل الأخلاق مبنية على الميثاق القائم بين الانسان وبين الله : « **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا واطعنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور (٢)** ».

* * *

السنه

لا نحتاج هنا أن نتحدث طويلا عن السنة بوصفها عاملا مؤثرا فى حياة الجيل الأول من المسلمين . ذلك أن كل ما قلناه عن القرآن يمكن فى الحقيقة أن نقوله مرة أخرى عن السنة ، لأنها هى الشرح التفصيلى لما جاء فى القرآن ، ولأنها فى الواقع تشمل جميع الموضوعات الواردة فى القرآن ـ ما ذكرناه منها وما لم نذكره مع زيادة فى الشرح والتفصيل . وان كان لنا أن نذكر شيئا فى هذه المناسبة فاننا نجد القرآن مفصلا جدا فيما يتعلق بالعقيدة ، وما يتعلق منها بقضية الألوهية بالذات وما جاء فى السنة هو توكيد لهذه المعانى الواردة فى القرآن ـ أما العبادات والشرائع الأخرى فمعظمها جاء فى القرآن مجملا ، والسنة هى التى فصلته وحددته . كالصلاة والصيام والزكاة والحج فقد ذكرت فى القرآن بغير بيان تفصيلى ثم جاءت السنة ببيان الصلاة وأوقاتها وركعاتها وشروطها .. الخ . كما بينت تفصيلات الزكاة ونسبها المختلفة وتفصيلات الحج كما اضافت الى التفصيلات الخاصة بالصيام .

---

(١) سورة الشمس : الايات ٧ ـ ١٠

(٢) سورة المائدة : الاية ٧

والتشريعات كلها مدنيها وجنائيها ودوليها .. الخ . جاءت فى القرآن رؤوس موضوعات مع قليل من التفصيل احيانا ولكن السنة حددتها تحديدا دقيقا مفصلا .

اما من حيث التوجيه التربوى فالقرآن والسنة متكاملان ومتشابهان فى الاتجاه والأثر . وكلاهما كان له اثر بالغ فى تنشئة ذلك الجيل الفرد فى تاريخ البشرية كله ، لأن المسلمين الأوائل كانوا يأخذون أوامر القرآن وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم مأخذ الجد الكامل والتنفيذ الشامل ، بوصف أن كليهما من عند الله فهما من المصدر الواجب الطاعة ، الذي يطاع ابتغاء رضوان الله . ولم يكونوا كبعض الأجيال المتأخرة يشعرون ان أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم هى فى المحل الثانى من الطاعة او انها كلها ليست ملزمة كالقرآن ، فقد كانوا يشعرون بثقل هذا الأمر الربانى : « **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله ان الله شديد العقاب (١)** » .

شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم

من حكمة الله البالغة انه لم ينزل الكتاب مجردا لدعوة الناس الى الحق ـ وهو القادر على أن يهديهم حتى بغير كتاب ـ ولكن اقتضت مشيئته أن يبعث رسولا بشرا يتنزل عليه الكتاب ، ويمتلىء به قلبه ، يترجمه فى شخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقعا ملموسا يراه الناس بأعينهم فيكون هو القدوة العملية للبشر فى تنفيذ المنهج الربانى المنزل ويكون هو المعلم والمربى الذى يرى اتباعه أخلاقيات الاسلام ومبادئه ومفاهيمه .

واذ كان الله قد اختار هذه الأمة لمهمة اختصها بها من دون الأمم هى الشهادة على الأمم كلها ، والزعامة والقيادة والريادة لكل البشرية « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (٢)** » فقد اختار لها رسولا معلما مربيا منفردا فذا فى تاريخ البشرية كلها ، حتى بين الأنبياء انفسهم .

نعم .. ان هذه الأمة لم تخلق لتعيش لنفسها فقط ، ولا لتعيش فى داخل ذاتها ، ولكن لتكون قدوة للأمم كلها ورائدة للأمم كلها : « **كنتم خير أمة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٣)** » .

---

(١) سورة الحشر : الاية ٧

(٢) سورة البقرة : الاية ١٤٣

(٣) سورة آل عمران : الاية ١١٠

واذا كانت الأمم السابقة كلها قد كلفت أن تؤمن بالله وتنفذ منهجه فى حدود ذاتها فحسب ، فهذه الأمة الأخيرة لا يكتفى الله منها بأن تعيش فى حدود ذاتها ، وما لهذا أنشئت وأخرجت للناس . انما أنشئت وأخرجت للناس لتدعوهم - كلهم - للايمان بالله ولتنفذ منهج الله فى الأرض كلها ما دخل منها فى عقيدة الاسلام وما لم يدخل .

لذلك كان من الطبيعى أن يكون الرسول المرسل الى هذه الأمة المنفردة فى مهمتها شخصية فذة منفردة فى تكوينها . وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حوى فى شخصه الكريم آفاقا من العظمة لا نعلم لها شبيها فى الأنبياء والرسل فضلا عن أفراد البشر العاديين . آفاقا متعددة وشاملة فى ذات الوقت .

لو أن قائدا سياسيا وجد أمته فى حالة من التفكك والتخلف والشقاق والفرقة فنذر حياته كلها وجهده كله لجمع كلمة هذه الأمة والنهوض بها ، ودفعها من تخلفها الى ركب الحياة المتحضر المتحرك ، ثم نجح فى مهمته تلك ، لعددناه عظيما ولا شك ، ولاستحق منا الاعجاب والحب والتمجيد .

وذلك - على عظمته - هو جانب واحد من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ فيه - على انه لم يتفرغ له وحده - ما لم يبلغه - بهذه الصورة وبهذا المستوى قائد سياسى فى التاريخ .

ولو أن قائدا حربيا نذر حياته وجهده لتكوين جيش من المقاتلين متحاب متراص متآلف ، تشرب الروح العسكرية وأتقن فنون القتال ، وتشبع بروح التضحية والفداء ، ثم خاض المعارك بهذا الجيش الذى رباه فانتقل به من نصر الى نصر لعددناه عظيما ولا شك ونظرنا اليه نظرة الاعجاب .

وذلك - على عظمته - لا يزيد على أن يكون جانبا واحدا من جوانب شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوق انه قد بلغ فيه - على غير تفرغ له - ما لم يبلغه قائد آخر فى التاريخ . فقواد الأرض يعدون جيوشهم للقتال من أجل الأرض أو كرامة الحاكم أو رغبة فى التوسع والسلطان ، وهذا القائد العظيم قد أعد جيشه للقتال من أجل شىء أسمى من ذلك كله وأرفع .. من أجل العقيدة .. وفى سبيل الله .. لا فى سبيل كسب أرضى مهما كان هذا الكسب .

ولو أن رجلا نذر نفسه وجهده لمصاحبة فريق من الناس وتربيتهم وتوجيههم وتعهدهم حتى تستقيم نفوسهم ويستقيم سلوكهم ، لا يبغى من وراء ذلك كسبا الا حب الخير للناس وحب الهداية لهم ،وصبر على انحرافاتهم وأغلاطهم ومضايقاتهم ومخالفتهم له المرة تلو المرة ، وهبوطهم عن المستوى الذى يريده لهم فى حادثة أثر حادثة . حتى استطاع فى النهاية أن يسير بهم على الجادة ويرتفع بهم حيث أراد ، ويعودهم على الخير كأنه فطرة لهم ، ويرتقى بهم أفقا وراء أفق حتى يتمثل المثل الأعلى فى أشخاصهم .. لعددناه عظيما ولا شك ، ولأشرنا اليه بين عظماء التاريخ .

وذلك ـ على عظمته ـ لا يزيد على أن يكون جانبا واحدا من جوانب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوق أنه ـ رغم عدم تفرغه له ـ قد بلغ فيه من صحابته ما لم يبلغ رجل مع أتباعه فى تاريخ البشرية كله ، فكانوا قمما لا ترقى اليها البشرية فى كل التاريخ . وهذا الى مشاغل الرسول صلى الله عليه وسلم الأخرى التى يكفى كل منها لشغل انسان متفرغ لها طيلة حياته ، وهى كلها جوانب متجاورة فى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، يؤدى فى كل منها ما يفوق المتفرغ المتخصص من الجهد ، ويصل فيه الى ما لا يصل اليه المتفرغ المتخصص من النتائج .

فكأنما شخصيته صلى الله عليه وسلم كانت شخوصا عدة فى شخصية واحدة ، كل شخص منها عظيم ، بل كل شخص منها فائق العظمة ، ثم تجتمع كل هذه العظمات فى شخصية واحدة فذة فى التاريخ .

وليس تعدد جوانب شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وسعتها وعمقها هو جانب العظمة الوحيد فى شخصيته الكريمة . ولكن هناك أفقا آخر من آفاق العظمة أعلى وأرفع ، هو التوازن الى جانب الشمول .

فمع شمول شخصيته صلى الله عليه وسلم لهذه الجوانب كلها ، فانه يشتمل عليها فى توازن فى ذات الوقت ، فلا يطغى منها جانب على جانب ، ولا يشغله أمر عن أمر فلا مهمة القائد السياسى شغلة عن مهمة القائد الروحى ، ولا هذه وتلك شغلتاه عن مهمة القائد الحربى ، ولا هذه جميعا شغلته عن مهمة التربية والتوجيه لصحابته صلى الله عليه وسلم ولا عن أسرته المتعددة الأشخاص المتعددة التكاليف التى لا تخلو من مشاكل الأزواج ومتاعبهم .

وهذا التوازن ـ مع الشمول ـ هو درجة جديدة من العظمة فوق كل ما تقدم . انه باختصار ـ صلى الله عليه وسلم ـ شخصية فذة لا مثيل لها فى التاريخ .

ولا شك أن وجود هـذه الشخصية بين المسلمين فى الجيل الأول كان له أثره البعيد فى نشأة هذا الجيل وارتفاعه الى تلك الآفاق التى بلغهـا ، وهى آفاق غير مسبوقة بصورتها تلك فى التاريخ .

ولا نقصد أن وجوده بشخصه صلى الله عليه وسلم هو من ضرورات اقامة هذا الدين فى الأرض ، والا لما فرض الله علينا الاسلام ، ثم أن جيـلا كاملا من التابعين كان على الذروة وهو لم ير الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه ، انما رأى سيرته محفوظة بين الناس فاقتـدى بها . انما نقصـد أن وجوده بشخصه صلى الله عليه وسلم كان حافزا اضافيا وصل بهذا الجيل الى ذروة لم تتكرر حتى الآن ، وان كان قد تكرر فى نماذج متفرقة على طول التـاريخ الاسلامى ، ومن الممكن أن يتكرر مرة أخرى على ذات المسـتوى أو على مستوى قريب منه ، حين نأخذ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مأخذ الأسوة والقدوة ، فتكون شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم حيـة تعيش معنـا وتوجهنا كالجيل الأول سواء .

***

أثر النشأة الجديدة

الجيل الأول فى كل دعوة جيل فذ ، ذلك أن النشأة الجديدة تعطى دائما حيوية فائقة لذلك الجيل . كالاوكسجين النشيط المحضر حديثا . أنه يكون أنشط من الأوكسجين الموجود فى الجو ، ثم يفقـد نشاطه الزائد تدريجيـا ويصبح أوكسجينا عاديا كذلك الموجود فى الجو .

والنفس البشرية كذلك ، حين تنبعث على دعوة جديدة فان هذا البعث يطلق طاقاتها الكامنة كلها ويعطيهـا حيوية فائقـة غير عادية . ثم تظل هـذه الحيوية تقل تدريجيا جيلا بعد جيل حتى تصل الى الدرجة العادية .

وفى الدعوة الاسلامية بصفة خاصة كان أثر النشأة الجديدة واضحـا فى مجالين اثنين بالاضافة الى تلك الحيوية الفائقة التى ينشئها البعث الجديد .

فالجيل الأول شهد الجاهلية بالفعل ، ثم انتقل الى الاسلام ، فأحس فى ذات نفسـه بمدى التحول الهائل الذى وقع ، ومدى الفـارق بين حاله فى الجاهلية وحاله فى الاسلام ، فقدر النعمة الربانية حق قدرها ، ومن ثم كان شديد الحرص عليها وحين يقول الله سبحانه وتعـالى : ((**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا (١)**)) .

---

(١) سورة المائدة : الاية ٣

يدرك المسلم من ذلك الجيل الأول قيمة هذه النعمة التى يمن الله بهـا على المؤمنين ، وكم هى جديرة بالامتنان فعلا ، لأنه ـ بعد أن أسلم ـ رأى أين كان وكيف صار ، ورأى الهوة السحيقة التى كان هابطا اليها أو جاثما فيهـا ، فرفعه الله منها ، وحلق به فى الآفاق العليا الطليقـة المشرقة البهيجـة .. فيحب تلك الآفاق ويكره أن يهبط درجة واحدة منها . أما الأجيال التاليـة التى ولدت فى الاسلام فمهما كان تقديرها لنعمـة الله فلن يكون كذلك الجيل الأول الذى شهد الجاهلية ثم شهد النقلة البعيدة الى الاسلام . وذلك معنى قول عمر رضى الله عنه : لا يعرف الاسلام من لم يعرف الجاهلية .

والأمر الثانى أن الجيل الأول هو ـ عادة ـ أشد الأجيال ابتلاء فى سبيل العقيدة . فالجاهلية المسيطرة لا تسمح بوجود الدعوة ولا تهادنهـا ولا تصبر عليها بل تسعى الى محقها وابادتها .

وحين قال نبى الله شعيب : « **وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** (١) » .

فان الجاهلية لم تقبل هذه الدعوة الى المهادنة والانتظار حتى يحكم الله بل « **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا** (٢) » .

والجيل الأول الذى آمن عن رضى منه واختيار ـ وهو يرى ما تفعله به الجاهلية من كيد واضطهاد وسعى للابادة ـ يصبر على الاضطهـاد ويتحمل الأذى حتى يأذن له بالنصر والتمـكين للمؤمنين ، ومن ثم يحس أنه تعب فى تحصيل هذا الايمان وأصابه الجهد فيه ، فيكون أكثر اعتزازا به من الأجيال التالية التى لم تتعب فيه ذلك التعب الأول .. حتى يأتى جيل يرث الكتاب وراثة عن غير ايمان حقيقى ويتحقق فيه ـ والعيـاذ بالله ـ وصف الله له : « **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هـذا الأدنى ويقولون سيغفر لنـا ، وان ياتهم عرض مثـله ياخـذوه ، الم يؤخذ عليهم ميثـاق الكتاب الا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون . أفلا تعقلون** (٣) » .

---

(١) سورة الاعراف : الاية ٨٧
(٢) سورة الاعراف : الاية ٨٨
(٣) سورة الاعراف : الاية ١٦٩

ذلك أثر النشـأة الجـديدة فى الجيل الأول من المسلمين . وهو عنصر يضاف الى العناصر الثلاثة السابقة فيزيدها قوة ويتآزر معها جميعا فى اخراج ذلك الجيل الفذ من المسلمين ، الذى كتب أروع صفحات التاريخ .

والآن ـ قبل أن نستعرض الواقع التاريخى لهذه الأمة المجيدة ـ الواقع الذى حققت فيه من المعانى الربانيـة ما لم يتح لأمة من قبلهـا أن تحققه واستحقت بذلك وصف خالقهـا لهـا : **((كنتم خير أمة أخرجت للناس)) (١)** الآن ، ننظر فى هذه العناصر الأربعة التى كونت الجيل الأول : هل هى عناصر دائمة موجودة معنا ؟ أم هى عناصر وجدت مرة واحدة ولم تعد بعد ذلك تكون ؟ وبعبارة أخرى هل كتب على الأمة المسلمة الانحدار المستمر الى الهاوية أم أنها بسبيل بعث جديد يعيد فيه مجدها الأول ؟

فأما القرآن والسنة فموجودان باقيان تكفل الله بحفظهما بصورة ظاهرة فأما القرآن فقد قال عنه سبحانه وتعالى : **((انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)) (٢)** . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن الكتب المنزلة السابقة كلها قد ضاعت أو حرفت تحريفا شديدا بحيث لم تعد هى التى نزلت من عند الله ، والقرآن وحده هو الذى بقى بحرفه ولغته ، ما تغيرت فيه كلمة ولا حرف على مر الأجيال . ان ذلك يشير الى حكمة ربانية بالغة الدلالة . لقد أراد الله نسخ الرسالات السابقة كلها لتبقى هذه الرسالة الأخيرة بكتابها المنزل ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنها الرسالة الخاتمة ، ولأنها هى التى كتب لها البقاء الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

واما السنة فقد حفظت كذلك بارادة الله ومشيئته . وهى بين أيدينا مدونه ومحققة ومشروحة . ويلفت نظرنا كذلك بالنسبة للسنة أن سنن الأنبياء والرسل كلهم من قبل قد ضاعت أو نسيت أو شوهت ـ الا ما حفظه القرآن الكريم منها ـ بينما بقيت سنة الرسول صلى الله عليه وسلم محفوظة باقية على مر الأجيال .

واما وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بشخصه فهو أمر لم يتحقق الا للجيل الأول وحده . ولكنه ـ كما قلنا ـ على كل أثره البالغ فى تنشئة الجيل الأول ليس شرطا لاقامة دين الله فى الأرض ، ولا ننسى فى هذا المجال ان سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قد حفظت بكل تفصيلاتها الدقيقة كما

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠

(٢) سورة الحجر : الآية ٩

لم تحفظ سيرة رسول ولا نبى من قبل وقصدنا نعرف كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل ويشرب وينام ويصحو ويمشى ويرضى ويغضب ويتكلم ويجلس ويقف ويصلى ويقاتل ويصافح .. بل كيف كان فى ادق شئونه حتى الخاص منها اشد الخصوصية كحاله مع أزواجه صلى الله عليه وسلم . وذلك له قيمته وله دلالته كذلك . فنحن نملك من ملامح شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجعلنا ـ حين نقرأ سيرته ونتمعن فيها ـ كأنما نعيش معه لحظة لحظة ويعيش معنا . فتتحقق الاسوة والقدوة لمن أراد . أما اثر النشأة الجديدة ، فهذا بالذات عنصر تملك منه اليوم ما لم تملكه الاجيال السابقة ، وما يوازى ما كان يملك منه الجيل الأول المنفرد .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « **بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدا .. فطوبى للغرباء** » . وان الاسلام ليعانى اليوم بالفعل تلك الغربة التى تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم فى لحظة من لحظات الرؤية الملهمة التى ينكشف فيها الغيب بوحى الله . واذن فليبدأ بدءا جديدا كما بدأ أول مرة وانه ليبدأ بالفعل وانه لبعث جديد تبدو بشائره فى كل مكان فى العالم الاسلامى وهى « نشأة جديدة » كتلك التى حدثت أول مرة ؛ تحدث مفعولها فى نفوس المؤمنين المجاهدين الذين تبدو طلائعهم فى كل مكان . وان النشأة الجديدة ، ذاتها ـ بحرارتها ـ لتجعل الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ من سيرته وسننه ـ اشبه شىء بذلك الأخذ المباشر عنه صلى الله عليه وسلم فى الجيل الأول من المسلمين . وبذلك تكتمل العناصر الأربعة اليوم مرة اخرى ويؤذن ـ ان شاء الله ـ ببعث اسلامى شامل يعيد للامة مجدها الماضى ، ويعيدها الى دورها التاريخى فى هداية البشرية .

***

من الواقع التاريخى للأمة الاسلامية

ان هذه الأمة التى انشأها كتاب الله وسنة رسوله ، ورباها الرسول صلى الله عليه وسلم على عينه ، واخذت منه القدوة والأسوة ، وطبقت ـ لفترة طويلة ـ تعاليم الاسلام وقيمه ومفاهيمه ومبادئه فى واقع حياتها ـ رغم ما اصابها من انحراف تدريجى ـ أن هذه الأمة قد انشأت واقعا تاريخيا ضخما امتد فى واقع الأرض وواقع الزمن ، وترك خطوطه التى لا تمحى وكان متفردا فى كثير من جزئياته بصورة غير مسبوقة وغير ملحوقة .

وينبغى لنا ان نلم ببعض سمات ذلك الواقع التاريخى ، حتى نعلم ـ بالمقارنة ماذا خسرت الأمة الاسلامية وماذا خسر العالم كله بانحطاط المسلمين ،

ونعلم كذلك كيف كانت الصورة الواقعية لهذه الأمة فى أبان نهضتها ، حتى اذا عزمنا أن نعود الى الطريق السوى ونعيد لهذه الأمة مجدها التاريخى كانت لدينا صورة واضحة لذلك التاريخ ..

الأمة الواحدة

ان هذه الأمة هى ـ وحدها ـ فى التاريخ ، التى حققت معنى « الأمة » على حقيقته .

فلئن كانت الأمة فى نظر الغرب قوما تجمعهم أرض مشتركة وجنس واحد ولغة واحدة ومصالح مشتركة ، فهى ليست فى نظر الاسلام كذلك ، انما هى قبل ذلك كله قوم تجمعهم عقيدة مشتركة . عقيدة فى الله .

العقيدة وحدها هى التى تجمع الناس ـ أو تفرقهم ـ وهى التى ينبغى لها أن تفعل ذلك .

ان الأرض والجنس واللغة أمور لا يختارها الانسان لنفسه ، ولا فضل له فيها وانما هو يولد ـ بغير ارادة منه ـ فى أرض معينة ، ومن جنس معين ، ويتعلم بلا ارادة ولا وعى لغة الأرض التى ينشأ فيها ، فهذه الروابط تربط نعم بين مجموعة من الأفراد ، ولكنها ليست أهم الروابط التى يمكن أن تربطهم ، ولا أولاها بأن تكون هى الآصرة التى يلتقى عندها الناس .. وأن الحيوان ليرتبط هو الآخر بأرض وجنس ، ولغة خاصة يتفاهم بها القطيع من أفراده ، ثم ان له مصالح مشتركة يتجمع عليها .. فهو يتجمع على الكلأ وعلى الماء .

لقد كرم الله الانسان ومنحه الارادة الواعية والقدرة على التمييز والاختيار ، « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (١) « ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (٢) « انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » (٣) .

---

(١) سورة الاسراء الاية ٧٠
(٢) سورة الشمس الايات ٧ : ١٠
(٣) سورة الانسان الايات ٢ ٣

والأمر الذى يختاره الانسان لنفسه ليس هو الأرض ، ولا الجنس ، ولا اللغة التى ينشأ عليها . . انما هو منهج الحياة الذى يسير عليه .

اترى الأكرم للانسان أن يكون تجمعه وتفرقه على الأمور التى لا يد له فيها ولا اختيار – على طريقة تجمع الحيوان وتفرقه – أم الأكرم له أن يكون تجمعه وتفرقه على الأمر الذى يختاره بنفسه ويقرره بارادته ؟ .

الا انه لاهدار للكرامة التى كرم الله بها الانسان أن يرتد كالحيوان ، يتجمع على الأرض والجنس واللغة والمصالح المشتركة ، ويهمل العنصر الواحد الذى كرمه الله به ، وهو اختيار المنهج الذى تسير بمقتضاه الحياة .

لذلك يجعل الاسلام آصرة العقيدة هى الآصرة التى تجمع بين الناس أو تفرقهم والتى تنضوى تحتها الروابط الأخرى كلها ، فتخضع لتوجيهها .

يبدو ذلك فى مثل هذه الآيات فى سورة التوبة : **« يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان . ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، احب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بامره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١) .**

وفى توجيه الله لنوح حين تساءل عن ابنة الذى غرق فى الطوفان : **« ونادى نوح ربه فقال رب ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال : يانوح انه ليس من اهلك . انه عمل غير صالح » (٢) .**

فلا آصرة تجمع بين المؤمنين وبين آبائهم وابنائهم واخوانهم وازواجهم وعشيرتهم مادامو على عقيدة الايمان . لا الأرض ، ولا اللغة ولا الجنس ، ولا المصالح المشتركة : مصالح التجارة والأموال والمساكن . . وكذلك لا آصرة تجمع بين نوح وبين ابنه الذى هو من صلبه . وانما يقال له : انه ليس من أهلك ، لأنه عمل غير صالح أو لأنه رفض الايمان بالله ، أما حين توجد آصرة العقيدة فكل الأواصر اذن مباحة بل ان تقويتها مطلوبة ولازمة : **« وأولو الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله » (٣) .**

---

(١) سورة التوبة ٢٣ – ٢٤

(٢) سورة هود ٤٥ – ٤٦

(٣) سورة الانفال ٧٥

وعلى هذا النحو نفهم العلاقات البشرية في ظل الاسلام . فالعقيدة في الله هي الرباط الأعظم الذى يربط المؤمنين جميعا ، ولا فرق بين عربى واعجمى ولا أبيض ولا أسود ، ولا بأس ـ بعد ذلك ـ أن يتجمعوا في روابط أخرى تقرب بينهم ، كرابطة الدم ، أو الجنس أو اللغة ، أو الأرض ، أو المصالح القريبة ما دامت هذه كلها تعمل على زيادة الاقتراب بين طوائف معينة من الناس ، ولكن بشرط الا تتحول الى عصبيات ، أى الى حواجز تفرق بين الناس ، فعندئذ يقف الإسلام دونها ، يحاربها ويعمل على ازالتها ، كما يعمل على ازالة كل عوامل الفرقة بين المؤمنين .

والاسلام لم يطلب من العربى ان يتخلى عن عروبته ولا المصرى عن مصريته والا التركى عن تركيته . . الخ ، بل لم يطلب من القبائل ان تتخلى عن روابطها القبلية ، بل ان الله سبحانه يقول : **((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم)) (١) .**

فروابط الدم ـ في صورة أسرة أو عشيرة أو قبيلة . . الخ ـ وروابط القومية ـ في صورة جنس مشترك أو لغة أو أرض . . الخ . ليست فى ذاتها منبوذة ولا مكروهة من الاسلام بل مباحة ومطلوبة ، ولكن بذلك الشرط الربانى ، شرط التقائها على العقيدة فى الله . فاما ان تحولت الى حواجز تملأ قلوب بعض الناس بالحفيظة على بعض ، أو عصبيات تفرق الصف المسلم الذى ينبغى أن يكون واحدا من المحيط الى المحيط ، فهى عندئذ دعاوى لا يعرفها الاسلام : **((ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية))** كما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بل ان العالم كله اليوم قد بدأ يكفر بالقوميات بمعناها الضيق وبدأ ينشىء تجمعاته ـ أو تفرقاته ـ على أساس العقيدة ، وان كانت عقيدة أرضية فاسدة منحرفة . فهذه ألمانيا الشرقية والغربية ـ تشترك فى أرض ـ كانت ـ واحدة ، وجنس واحد ، ولغة واحدة ، ولكنها تفرقت على أساس العقيدة فانقسمت الى شرقية وغربية . وهذه فيتنام تنقسم الى شمالية وجنوبية على أساس العقيدة رغم كل عوامل التجميع التاريخية والجغرافية والعرقية واللغوية . وفى الجانب الآخر نجد غرب أوروبا كله يتجه الى التكتل فى وحدة واحدة ، رغم ما بين شعوبه وأجناسه ولغاته من التباين الصحيح لأنه احس بالتقارب الفكرى ووحدة الطريق . ثم ان روسيا التى تحوى ثلاث عشرة قومية مختلفة ، ولغات

---

(١) سورة الحجرات ١٣

عدة ، مكتوبة ، قد أنشأت اتحادها على أساس العقيدة لا على أساس القوميات .

ونحن لا نستمد منهج حياتنا من أوروبا ـ شرقها أو غربها ـ ولا ينبغى لنا ان نصنع ذلك، ولدينا المنهج الربانى يكفينا مئونة البحث عن منهج الجاهليات ولكننا حين نرى دعاة القومية الأوائل فى أوروبا قد كفروا بها ولم يعودوا يؤمنون بها ، وصاروا يقولون ان التجمع الذى يليق ببنى البشر هو تجمع العقيدة . فنحن ـ أصحاب المنهج الربانى ـ أولى الناس بالعودة الى الحق والعمل بمقتضاه .

***

ولقد كانت الأمة الاسلامية فى التاريخ هى التى حققت معنى « الأمة » على حقيقته حين جمعت بلالا الحبشى ، وصهيبا الرومى ، وسلمان الفارسى جنبا الى جنب مع أبى بكر وعمر فى القمة من العرب والقمة من قريش ، وحققت فى عالم الواقع لا فى نظريات الخيال معنى المساواة الحقيقية فى الانسانية . ولم تجعله « شعارات » كتلك التى تكتب فى ديباجة كل دستور من الدساتير الجاهلية ثم تظل حيث هى شعارات معلقة فى القضاء لا رصيد لها من الواقع .

كذلك جمعت هذه الأمة حين اتسعت الدولة الاسلامية العرب والفرس والمصريين والنوبيين والسوانيين والبربر والهنود والترك .. الخ .. الخ .. على صعيد واحد وعلى مستوى واحد من الأخوة الاسلامية تحقيقا لقوله تعالى : ((**انما المؤمنون اخوة**)) (١) وصار المسلم ينتقل من الأندلس الى الشمال الافريقى الى مصر ، الى الشام ، الى العراق ، الى أقصى ما وصل اليه سلطان الاسلام فلا يحس غربة ولا نفرة ، بل يحس أنه ينزل بين اخوة فى الله ، يستقبلونه بالترحاب ويقضون له حوائجه ، ويودعونه حتى يتخذ وجهته ، كل ذلك بصورة غير مكررة فى التاريخ .

لقد شهد التاريخ القديم تجمعا هائلا حوى أجناسا مختلفة ولغات متعددة هو الامبراطورية الرومانية ، كما شهد التاريخ الحديث ثلاثة تجمعات على الأقل من هذا النوع : الكومنولث البريطانى ، والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة فكيف كان الحال فى هذه التجمعات فى القديم والحديث ؟

فأما الامبراطورية الرومانية فقد كانت تشمل الدولة الأم ـ دولة السيادة المكونة من الرومان الخلص .. ثم بقية الناس والشعوب عبيد للدولة الأم .

---

(١) سورة الحجرات ١٠

عبيد قولا وفعلا مهمتهم أن يخدموا الدولة الأم ولا زيادة . يمدونها بالرجال للحرب ، والرقيق للزراعة ، والمحاصيل الزراعية للطعام ، والخدمات للترف الذى لا يقف عند حد والدولة الأم تستمتع وحدها بالسيادة والقيادة الثروة والترف والحضارة .

وأما بريطانيا ـ العظمى ـ فهى وريثة الامبراطورية الرومانية بكل حذافيرها وعلى الرغم من تسميتها لأمبراطوريتها « بالكومنولث » أى التجمع الذى تجمعه المصلحة المشتركة ، والذى يعود فيه الخير على الجميع بالسوية ، فان الواقع التاريخى يشهد أن الدولة الأم ـ دولة السيادة ـ كانت كالدولة الرومانية هى التى تستمتع وحدها بالسيادة والقيادة والثروة والترف والحضارة وبقية الكومنولث ان هو الا رقيق فى صور مختلفة لخدمة الدولة الأم وان كان بغير العنوان الصريح للرق . وتكفى معاملة الانجليز للهنود ـ زملائهم فى عضوية الكومنولث ـ شاهدا على الروح التى كانت تسيطر على هذه الامبراطورية فقد كان الضابط الانجليزى يستبيح لنفسه أن يطأ بقدمه ظهر الهندى الراكع أمامه لكى يمتطى صهوة جواده فى خيلاء مقيتة لا تصدر عن انسان سوى .

وأما روسيا فهى ذات دعوى عريضة فى المساواة بين البشر وعدم التفرقة بينهم على أساس جنس أو لون أو لغة أو دين .. ومع ذلك فالواقع يشهد أن الجمهورية الروسية تمثل بالنسبة لبقيــة الجمهوريات الســوفيتية دولة السيادة ، وخاصة بالنسبة للجمهوريات الاسلامية بالذات فى القرم وآذربيجان وازبكستان وغيرها ، وان الدولة الأم ـ روسيا ـ هى التى تسيطر سيطرة تامة على توجيه الأمور كلها ، ومن بين ذلك اخلاء الجمهوريات التابعة من الصناعات الثقيلة وتركيزها فى روسيا ، ولو كانت تلك الجمهوريات قبل الغزو الشيوعى اكثر تقدما وأكثر أصالة من روسيا فى الصناعات الثقيلة كالمجر وتشيكوسلوفاكيا .

وأما الولايات المتحدة فتكفى مشكلة الملونين فيها لتلغى كل أثر لدعوى المساواة فى الانسانية والمساواة أمام القانون .

***

الأمة الاسلامية ـ وحدها فى التاريخ ـ هى التى حققت فى واقعها المعنى الحقيقى للأمة . ذلك أن العقيدة فى الله هى وحدها ـ التى تستطيع أن تذيب الحواجز بين البشر حقا وتضعهم كلهم على قدم المساواة فى العبودية لله الواحد وفى التحرر من كل عبودية لغير الله .

يقول الله عز وجل : « **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما الفت بين قلوبهم ، ولكن الله الف بينهم** » (١) .

نعم لا شيء أبدا يمكن أن يؤلف تأليفا حقيقيا بين القلوب الا العقيدة الربانية الصحيحة . وقد استطاعت العقيدة بالفعل أن تؤلف بين قلوب المسلمين من شتى الأجناس والألوان واللغات . وتؤلف منهم أمة واحدة متماسكة متآخية متحابة . وحتى حين انفصلت الحكومات وتصارعت وتحاربت لتقضى بعضها على بعض ، كان هذا شأن الحكام وحدهم ومن حولهم من الطامعين فى السلطان. أما جسم « الأمة » فقد بقى سليما لعدة قرون لا يتأثر بتلك الصراعات ولا ينقسم مع انقسامات الحكام وما حدث التفكك والتصدع فى معنى الأمة الواحدة الا بعد غلبة الصليبيين على أرض الاسلام فى الحرب الصليبية الحديثة التى ما تزال رحاها قائمة ، واثارتهم للنعرات القومية والعصبيات الجنسية فى صفوف المسلمين لتفتيت وحدتهم وتسهيل ابتلاع كل جزء بمفرده من أجزاء العالم العربى .

ومع التنافر والتباغض الذى أفلح الغزو الصليبى فى اثارته فما تزال بقايا من مشاعر الأمة الواحدة تجيش فى نفوس المسلمين حين يلتقون فى مؤتمر حافل كمؤتمر الحج السنوى أو مؤتمرات أخرى أقل حجما .. وما تزال الرغبة فى العودة الى تحقيق الأمة الواحدة المتصلة الكيان تحرك قلوب المؤمنين حقا من هذه الأمة ، حتى تتحقق ان شاء الله بالفعل مرة أخرى كما تحققت من قبل فى واقع التاريخ .

وان تلك المعجزة الفريدة فى التاريخ ، معجزة اذابة الحواجز بين مختلف الأجناس واللغات والألوان ، وصهرها كلها فى أمة واحدة متحابة مترابطة ، لهى من أولى المؤهلات التى أهلت هذه الأمة لكى تصبح بحق « **خير أمة أخرجت للناس** » .

العدل الربانى

ومن مؤهلات تلك الأمة كذلك لحمل ذلك الوصف الربانى العظيم قيامها بتطبيق العدل الربانى فى واقع الأرض لا فى عالم الشعارات .

ان دساتير الأرض كلها تتحدث عن وحدة الناس فى الانسانية ، والمساواة أمام القانون ، وتحقيق العدل السياسى والاقتصادى والاجتماعى .. ولكن كيف نجد ذلك عند التطبيق الواقعى ؟

---

(١) سورة الانفال ٦٢ -- ٦٣

كيف نجده فى روسيا وفى امريكا ، اكبر دولتين قائمتين اليوم فى الشرق والغرب ؟ .

فأما روسيا فتزعم ـ نظريا ـ ان المساواة هى الأصل فى كل شىء حتى فى الاجور ، ونترك جانبا قضية المساواة فى الأجر فهى لم تطبق أبدا ، ولا يمكن ان تطبق ابدا فى واقع الأرض . ولكننا نلتفت الى تلك المساواة المزعومة فى جانب آخر . فقد يكون الناس سواء فى الفقر على درجات متفاوتة منه ، ولكن « طبقة » معينة فى الاتحاد السوفييتى هى وحدها البريئة من الفقر ، المنعمة حتى الترف ، تسكن القصور التى ما كان يحلم بمثلها القياصرة ، ويمتلكون ـ وحدهم ـ السيارات الأمريكية الفارهة ، ويتداوون .. وحدهم بالأدوية السويسرية والألمانية والامريكية حين يمرضون بينما بقية الشعب تسكن الأسرة بكاملها فى حجرة واحدة من بيت له دورة مياه واحدة مشتركة ، ولا يركبون الا السيارات العامة الروسية غير المريحة ولا يعالجون الا بالدواء المحلى .. تلك الطبقة المرفهة المنعمة هى اعضاء الحزب الشيوعى الذى يبلغ حوالى الستة الملايين من بين مائتى مليون ، وعلى رأسه أعضاء اللجنة التنفيذية العليا الذين يعيشون فى درجة من الترف لا تخطر على خيال الحالمين .

واما أمريكا ـ المسيحية اسما ـ فهى تطبق العدل الربانى بطريقة فذة ، فهى تسمح لأصحاب المطاعم والمراقص والسينمات ـ لمن شاء منهم ـ أن يكتب على محله « ممنوع دخول السود والكلاب » ، ويحدث ـ مكررا ـ أن يجتمع جماعة من البيض يعتدون على أحد الزنوج ورجل البوليس واقف على مرأى ومسمع ، لا يتحرك ولا يستجيب لاستغاثة المستغيث ، حتى يتم الجرم وينصرف القوم ، ثم يتقدم « لتسجيل » الحادث .. ضد مجهول ، وهذا الزنجى ليس زميلا لاولئك البيض فى الانسانية فحسب بل زميل لهم كذلك فى المسيحية .

أما الواقع التاريخى للأمة المسلمة فقد شهد من وقائع التطبيق الحقيقى للعدل الربانى فى مجالاته جميعا ما يفخر به التاريخ .

١ ـ قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطيبا فقال : ايها الناس اسمعوا واطيعوا ، فقام له سلمان الفارسى يقول : لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة ، فلم يغضب عمر رضى الله عنه ، ولم يقل لسلمان : كيف تكلمنى بهذه اللهجة وانا الخليفة ، وانما سأله فى هدوء راض : ولم ؟ قال سلمان : حتى تبين لنا من اين لك هذا البرد الذى ائتزرت به ، وقد نالك برد واحد كبقية المسلمين ، وانت رجل طوال لا يكفيك برد واحد ، فلم يغضب عمر مرة أخرى وسلمان

يكاد يوجه اليه الاتهام باستغلال النفوذ والافتئات على أموال المسلمين ، ولم يقل له : أنا ولى الأمر أتصرف فى الأمر كما أشاء وليس من حقك أن تسائلنى، وانما نادى : يا عبد الله بن عمر : قال ، لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : نشدتك الله ، هذا البرد الذى ائتزرت به ، أهو بردك ؟ قال : نعم ، والتفت الى المسلمين فقال : أن أبى قد ناله برد واحد كما نال بقية المسلمين وهو رجل طوال لا يكفيه برد واحد ، فأعطيته بردى ليئتزر به . فقال سلمان الآن مر ، نسمع ونطع .

انها قمة فى تطبيق العدل السياسى نادرة فى التاريخ ، وهى قمة من زاويتيها فى وقت واحد : زاوية عمر وزاوية سلمان رضى الله عنهما . فالدافع الذى دفع سلمان ان يحتج والدافع الذى دفع عمر أن يرضى ، كلاهما واحد : هو الحرص على تحقيق العدل الربانى فى أعلى صوره . فاذا أضيف فى الاعتبار ان سلمان فارسى لا عربى وعمر بصرف النظر عن الخلافة ، أو بالاضافة الى الخلافة ــ فى القمة من العرب ومن قريش علمنا كيف يعمل الاسلام فى نفوس المؤمنين، فتلتقى القلوب المؤمنة على طاعة الله ، لا على عروبة ولا على عجمة ولا على مكانة اجتماعية أو سياسية . . فكلها قيم زائفة أمام القيم الربانية السامية .

٢ ــ وفى موسم من مواسم الحج يطأ عبد أسود كعب جبلة بن الأيهم فى أثناء الطواف فتأخذه الحمية الجاهلية فيلطم العبد على وجهه ، فيشتكى الى الخليفة عمر رضى الله عنه ، فيأمر عمر بالقصاص ، ويطالب احضار جبلة ليلطمه العبد على وجهه تنفيذا لأمر الله ((**ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون**)) (١) ويبلغ ذلك جبلة بن الأيهم فتكبر عليه نفسه ، وتأخذه العزة بالاثم ، فيفر الى الشام ويرتد عن الاسلام .

انها قمة أخرى فى تطبيق العدل الربانى لا تحدث الا فى الاسلام .

٣ ــ وتضيع درع من على كرم الله وجهه ولم يشأ أن يستخدم سلطان الخلافة فى القبض على الرجل واعتقاله حتى يعترف وهو متأكد من أن الدرع درعه لا يساوره فى ذلك شك . . وانما يلجأ ــ كأى فرد من أفراد المسلمين ــ الى القضاء .

ويقف الخصمان أمام القاضى فيقول القاضى : اجلس يا أبا الحسن ، فيغضب على للتفرقة بين الخصمين ، فاما أن يدعو القاضى الخصمين باسميهما أو يدعوهما معا بكنيتيهما ، وهذه واحدة .

---

(١) سورة البقرة (١٧٩)

ثم يسأل القاضى امير المؤمنين ــ بوصفه صاحب الدعوى ــ عن دعواه ، فيقول على كرم الله وجهه : الدرع درعى ولم ابع ولم اهب ، فيقول القاضى لليهودى : ما تقول فيما يقول امير المؤمنين ؟ فيقول فى التواء ظاهر : الدرع درعى ، وما امير المؤمنين عندى بكاذب ، فيلتفت القاضى الى امير المؤمنين فيقول : يا امير المؤمنين هل من بينة ؟ فيبتسم أمير المؤمنين ويقول : صدق شريح (القاضى) مالى من بينة : فيأمر القاضى بالدرع لليهودى فيأخذها ويمضى .

وهذه واحدة وواحدة .

فالقاضى ــ رغم تأكده الكامل من صدق امير المؤمنين ــ لا يقضى بعلمه ، وانما ينفذ العدل الربانى بحرفيته ، فيطلب البينة من امير المؤمنين على صدق دعواه مادام الخصم لم يقر بالدعوى . وامير المؤمنين لا يغضب .. بل يبتسم ، ولا يقول للقاضى : كيف تطلب منى البينة على ما اقول وانا امير المؤمنين وانا الصادق الذى لا يكذب ، بل يقف راضيا امام التطبيق الصحيح للعدل الربانى ، ويؤيد القاضى فى موقفه فيقول : صدق شريح ، مالى من بينة ، ثم يرتفع القاضى الى قمة التطبيق المثالى للعدل الربانى فيحكم بالدرع لليهودى حسبما تقتضيه وقائع القضية المنظورة وان كان ببنه وبين نفسه واثقا تماما من صدق دعوى امير المؤمنين . ولكن الشريعة الربانية تقتضى البينة « البينة على من ادعى » وامير المؤمنين صادق ، نعم ولكنه لا يملك البينة التى يحكم بموجبها القاضى المسلم ، وفى ذات الوقت يرتفع على الى قمة مماثلة حين يرضى حكم الشريعة حتى وهو يخسر الدرع التى يعلم علم اليقين انها له .

اما بقية القصة فهى أن اليهودى ما كاد يسير بضع خطوات حتى عاد ، والدهشة تملأ قلبه ، فقال : امير المؤمنين يقاضينى الى قاضيه فيحكم عليه ؟ ان هذه اخلاق انبياء اشهد الا اله الا الله ، واشهد أن محمدا رسول الله ، الدرع درعك يا أمير المؤمنين ، خرجت من بعيرك الأورق فتتبعتها واخذتها ، فيقول على : اما اذ اسلمت فهى لك .

* * *

اما العدل الاجتماعى والاقتصادى فقد تكفلت به شريعة الله بصورة فريدة لا تصل اليها النظم الأرضية فيما تحاوله من تطبيقات فبينما نجد الراسمالية تعمل على تكديس الأرباح فى يد اصحاب رؤوس الأموال على حساب العمال والفقراء من أبناء الشعب وتحمل هؤلاء الفقراء العبء الأكبر من ميزانية الدولة فى صورة ضرائب غير مباشرة مفروضة على حاجات الناس الضرورية ، بينما الأغنيـاء يزدادون غنى واستمتاعا بثمار الجهـود المسروقة من الكادحين فى

الارض .. وبينما نجد الشيوعية تحاول تطبيق العدل بنشر الظلم وتعميمه - نظريا - على الجميع ، بنزع الملكية الفردية كافة ، وتحويل الناس كلهم الى أجراء عند الدولة ، ومن ثم تستعبدهم كلهم بلقمة العيش فيخضعون للطغيان العارم للدولة ولا يجرؤون حتى على الاحتجاج خوفا من الموت جوعا أو شنقا أو رميا بالرصاص بتهمة الخيانة ، فى ذات الوقت الذى يستمتع فيه أعضاء الحزب الشيوعى بطيبات الحياة كلها الى درجة الترف المرذول .. نجد الاسلام يطبق العدل الاجتماعى والاقتصادى فى صورته الحقة ، فيسمح بالملكية الفردية بشرط نظافة مصادرها ونظافة مصارفها : فلا تأتى عن طريق السرقة ولا الغصب ولا النهب ولا الغش ولا الربا ولا الاحتكار ولا سرقة حق الأجير ، ولا تصرف فى سرف ولا ترف ولا معصية ولا تكنز كذلك ، وتزكى بالزكاة ، ثم يوجب الاسلام الانفاق منها فى سبيل الله ، فى كل أوجه الخير وفى ذات الوقت يحمل القادرين عبء الانفاق العام ولا يحمله لغير القادرين كما يحدث فى الجاهليات الرأسمالية ، ولا يلجأ الى اذلال الناس بلقمة العيش كما يحدث فى الجاهليات الشيوعية ، وتتعادل المغارم فى المجتمع المسلم ويعيش فى توازن وتقارب وتحاب .

يروى يحيى بن سعيد : بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية فاجتبيتها فطلبت فقراء أعطيها لهم فلم أجد من يأخذها منى ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز الناس فاشتريت بها عبيدا فأعتقتهم .

وكذلك كان العدل الاجتماعى والاقتصادى فى التطبيق الصحيح للاسلام .

***

الوفاء بالمواثيق

لقد كان الوفاء بالعهود والمواثيق من أعظم ما اشتهرت به هذه الأمة فى التاريخ ومن ابرز ما ميزها عن غيرها من الأمم . فحيث كانت الأمم - وما تزال - تبرم المواثيق حين تراها صفقة رابحة لها ، أو حين تضطر - مقهورة - الى ابرامها ، ثم تنقضها كلما لاحت لها فرصة كسب فى نقضها ، كانت الأمة الاسلامية تحرص دائما على الوفاء بميثاقها سواء كانت صفقة رابحة أو خاسرة . وصلح الحديبية مثال لوفاء هذه الامة بمواثيقها - ولو بدت لأول وهلة خاسرة - حين جاء ابو جندل بن سهيل بن عمر مقيدا بالاغلال ، فارا من قومه ، فرده الرسول صلى الله عليه وسلم الى الكفار وفاء بالعهد ، والمسلمون ينظرون اليه فى ألم لما يناله من العذاب على يد قومه ولكنهم لا يلجئون الى نقض الميثاق .

وحين فتح ابو عبيدة جنوب الشام تسلم من اهلها الجزية وكانوا مايزالون نصارى فلما سمع بتجهيز هرقل لحرب المسلمين بجيش كبير رد اليهم الجزية وقال لهم : لقد اخذنا منكم الجزية بشرط حمايتكم ، وقد سمعنا بتجهيز هرقل لقتالنا وانا لا نقدر على ذلك (أى على حمايتهم) ونحن لكم على الشرط ان نصرنا الله عليهم .

وهى صورة نادرة من الوفاء بالمواثيق ، فما عهدنا فى التاريخ جيشا فاتحا يرد - باختياره - شيئا مما وقع فى يده تحت اى ظرف من الظروف ، ولما انتصر جيش المسلمين على جيش هرقل عاد فأخذ الجزية واهل الشام راضون مغتبطون ، بل انهم كتبوا الى أبى عبيدة يقولون : انتم - ولستم على ديننا - اراف بنا وارحم ممن هم على ديننا .. وكان ذلك الوفاء المثالى بالعهد سببا فى تسليم حمص وحاب بلا قتال ، ثم سببا فى دخول اهل الشام فى الاسلام بعد ذلك .

وجاء فى وصية عمر رضى الله عنه الى قائده فى حرب الفرس انه اذا لاعب (أى لاغى) احدكم أحد جنود الفرس فظن هذا انه يعطيه عهد امان فانفذ العهد ..

وهى درجة لا نقول مثالية بل فوق المثالية ، فهذا الجندى العربى الذى تكلم مع الجندى الفارسى لم يقصد ان يعطيه عهد أمان ، ولكن الفارسى ظن ذلك مجرد ظن ، ومع ذلك فالجيش الاسلامى كله وعلى راسه اميره ملكف أن يلتزم بهذا العهد الذى لم يصدر فى حقيقة الأمر من الأمير ولا من أحد على الاطلاق .

وقد ظل وفاء المسلمين بعهودهم مضرب المثل فى التاريخ كله .

ولما نقض الصليبيون عهدهم مع صلاح الدين واخذوا الجيش الاسلامى على غرة فتراجع الجيش الى المسجد الأقصى فدخل الصليبيون وراءهم واعملوا فيهم القتل حتى خاضت الخيل الى ركبها فى الدم كما تقول المصادر الأوربية ، وكان هذا نموذجا لطريقة وفائهم بالعهد ، فلما اعاد المسلمون الكرة على الصليبيين وانتصروا عليهم لم يشأ صلاح الدين ان يعاملهم بمثل معاملتهم وان كان يملك الحق فى ذلك بنص الآية : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** » (١) ولكنه آثر ان يعاملهم بروح الاسلام العليا : « **ان تبدو خيرا او تخفوه او تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا** » (٢) وقد كان هذا النموذج العالى من التعامل ازاء ذلك النقض الخسيس للمواثيق رصيدا

---

(١) سورة البقرة ١٩٤

(٢) سورة النساء ١٤٩

للاسلام فى أوروبا حين بدات حركة المد الثانية على يد العثمانيين فيما بعد .

وان هذا الحر الشديد من المسلمين على الوفاء بمواثيقهم لهو الاستجابة الواقعية لأمر الله لهم : **« واوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا »** (١) **« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من امة . انما يبلوكم الله به، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمةواحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون . ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم . ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا انما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون »** (٢) .

ولم يكن الأمر شعارات ترفع ، انما كان واقعا مشهودا فى التاريخ .

***

الأخلاق الاسلامية

من أعظم مميزات النظام الاسلامى انه نظام خلقى ، تقوم تشريعاته وتنظيماته وكل معاملاته على أساس خلقى متين . ولا يوجد عمل واحد فى الاسلام ، صغر أو كبر خارج من نطاق الأخلاق ، أو قائم على غير الأساس الاخلاقى الشامل ، الذى يشمل كل تصرفات الانسان ويجعلها علاقة بين الانسان وربه قبل أن تكون علاقة بين فرد وفرد ، أو بين الفرد والمجتمع أو بين المجتمع والفرد، أو بين الحاكم والمحكوم ، وانما تجرى هذه المعاملات كلها من خلال علاقة الانسان بربه ، ومن خلال خشيته له وتقواه فتكون منذ لحظتها الأولى قائمة على أساس أخلاقى ومرتبطة بمقاييس الأخلاق .

ومن أعظم مميزات الأمة الاسلامية انها طبقت قيمها الأخلاقية فى عالم الواقع ولم ترفعها شعارات خاوية ولا مثلا عليا غير قابلة للتطبيق .

وكل ما مر بنا من الحديث عن العدل الربانى وصورته التطبيقية فى حياة هذه الأمة ، هو فى الواقع نماذج من الأخلاق الاسلامية وصورتها التطبيقية فى حياة الأمة ، ولكن لدينا دائما وفرة من النماذج فى كل اتجاه .

---

(١) سورة الاسراء ٣٤

(٢) سورة النحل ٩١ ـ ٩٥

فحين يقول الخليفة الأول أبو بكر رضى الله عنه : « اذا احسنت فأعينونى واذا أسأت فقومونى » فيطلب بنفسه من الناس أن يقوموه اذا أساء ، ولا ينتظر حتى يتقدموا بهذا التقويم من عند انفسهم ، ولا تقول : يتضجر من التقويم ويضيق به .. انه فى الواقع يضع أساسا أخلاقيا للنظام السياسى ، مستمدا من اخلاقيات الاسلام .

وكذلك حين يكرر هذه القولة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقول للناس : « اذا رأيتم فى اعوجاجا فقومونى » فيقول له سلمان الفارسى » : « والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف » فيقول الخليفة : « الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقوم عمر بحد سيفه » .. انه فى الواقع يقدم نموذجا أخلاقيا رائعا فى دعوته للناس أن يقوموه ، ثم نموذجا أروع فى تقبله لرد سلمان الفارسى بالرضا والحمد لله على أن جعل فى الأمة المسلمة من هو على استعداد لتقويمه بحد السيف .

وحين يقول عمر : « لو عثرت بغلة فى العراق لكنت مسئولا عنها لم لم اسو لها الطريق .؟ » يعطى نموذجا أخلاقيا لشعور الحاكم المسلم بدقة المسئولية وضخامتها ، وخشيته من الله فيها .

وحين يحيط الثوار ـ وقد اختلط عليهم الأمر ـ بدار عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم يقتحمون عليه البيت فيقتلونه وهو جالس يقرأ القرآن ، يأبى أن يكلف فرقة من جيشه بحماية داره ـ وقد كان يستطيع ذلك اذا أراد ، وكان من حقه أن يفعل ـ ولا يكلف حرسه الخاص حتى بالدفاع عنه ، لأنه لا يحب أن يريق دماء المسلمين ولو أراقوا دمه فى النهاية .. انه يقدم نموذجا أخلاقيا يصل الى الذروة ويتجاوز كل ما تعارف عليه البشر فى حياتهم الواقعية .

وحين نجد عليا كرم الله وجهه يرتعد من شدة البرد فى الشتاء وهو مرتد سترة قديمة لا تدفىء ، وتحت يده أموال بيت المال ، وله فيها نصيب يوازى على الأقل ما كان يجريه هو على ولاة المدن والأقاليم ، فيأبى أن يأخذ من ذلك المال حتى ما هو حق له .. انه يقدم مثالا أخلاقيا نادرا فى التاريخ .

ونجد عمر بن عبد العزيز يرد أموالا من بنى أمية الى بيت مال المسلمين ، معلنا انه لا حق لهم فيها وانها أموال المسلمين ينبغى أن ترد اليهم .. بل يرد الى المسلمين قبل ذلك بيعتهم ، ويقول انها لم تكن عن اختيار حر منهم انما فرضها بنو أمية عليهم فرضا ، انهم ينبغى أن يختاروا حاكمهم بحرية كاملة منهم .. انه كان يقدم نموذجا أخلاقيا فى القمة من تصرفات البشر ، وخاصة حين يصبح فى يدهم السلطان .

ولم يكن القـادة والزعمـاء من هذه الأمة وحدهم هم الذين يطبقون اخلاقيات الاسلام فى تصرفاتهم ، بل كانت هذه سمة بارزة للمجتمع الاسلامى فى مجموعه فاشتهر عن المسلمين فى كل الأرض اتقـانهم لعملهم ووفاؤهم بمواعيـدهم وأمانتهم فى التعامل سـواء فيما بينهم أو مع غيرهم من الأمم والأفراد ، وكان ذلك من أسباب انتشار الاسلام فى افريقيا وآسيا ، فوسط افريقيا كله وما وراء الهند فى آسيا قد أسلم دون غزو ولا قتال حبـا واعجابا باخلاق المسلمين ونظافة تعاملهم ..

وان براءة التعامل الاسـلامى من الربا فترة مديدة من الزمن ، وبراءة المجتمع ..الاسلامى من الخمر (الا الحالات النـادرة وفى السر لا فى العلن) لقرون عدة لهما من الظواهر الأخلاقية البارزة فى تاريخ هذه الأمة .

ثم ان اخلاقيـات الجنس ــ رغم ما أصاب العواصم الاسـلامية على مر الزمن من الترف والفسـاد ــ قد بقيت موضع المحافظة الشـديدة فى ريف العالم الاسلامى وباديته (وهى التى تشمل الجزء الأكبر من مساحة العـالم الاسلامى وتعـداده) وبقيت روابط الأسرة ــ من هذه الناحية ــ سـليمة مستقرة آمنة ما لا يقل عن ثلاثة عشرة قرنا من الزمان حتى فشـا التحلل الخلقى السافر فى هذا القرن الأخير . وبقى العـالم الاسـلامى محافظا على اخلاقيات الاسـلام فى الجانب الجنسى ، يحرم الاختلاط والتبذل ، ولا يبيح السفور والتبرج مما كلف أعداء الاسلام جهدا جهيدا فى محاولة افساد المرأة المسلمة وحل اخلاقها .

وذلك كله من مميزات هذه الأمة التى تفردت بها فى التاريخ .

* * *

الحركة العلمية الاسلامية

على قدر بعد العرب فى الجاهلية عن الاهتمام بالعلوم كان اهتمامهم بالعلم بعد اسلامهم بالغا وعظيما ومثمرا . فهم لم يكتفوا بتعلم ما كان عند غيرهم من العلوم فحسب ، بل اضافوا اليه اضافات هامة كانت هى التمهيـد للحركة العلمية الهـائلة القائمة اليوم فى اوربا ، ثم تفردت هـذه الحركة الاسـلامية بخصائص لم تتكرر فى التاريخ ..

لقد كانت توجيهات كتاب الله للمسلمين أن ينظروا فى ملكوت السماوات والارض ويتدبروا فى هذا الكون الواسـع وينقبوا عن سننه وخفاياه . كانت

هذه التوجيهات هى المحرك الأول للحركة العلمية الاسلامية . فبدأوا بتعلم اللغات المشتملة على العلوم فتعلموا اليونانية واللاتينية والسريانية وغيرها ، وترجموا الى اللغة العربية كل ما وجدوه نافعــا لهم من العلوم والمعارف ، واخذوا يجدون فى الدراسة والتحصيل حتى تكونت لهم حاسة علمية خاصة بهم ، ومن ثم أخذوا يضيفون اضافات جديدة الى ما وجدوه قائما قبلهم من العلوم ، وكانت هذه الاضافات شــاملة لكل مناحى العلم ، فأضافوا الى علم الفلك دقة فى رصد النجوم وتتبعهــا ، ودقة فى تحــديد السنة الشمسية ، ودورة الأرض ، والفصول ، وميل المحــور والكسوف .. الخ ، واضافوا فى الرياضيات اضافات رئيســية ، فابتــدعوا علم الجبر ولم يكن موجودا من قبل ، واخترعوا الصفر ، ويسروا استخدام الأرقام مما مكن من احداث تقدم هائل فى الرياضيات وكانت الأرقام اللاتينية وعدم وجود الصفر ســببا فى صعوبة الرياضيات بحيث لا يتقن العمليات البسيطة الا العلماء ! ثم رتبوا الجــداول الرياضية التى اشــهرها جداول الخوارزمى التى ظلت تدرس فى أوربا باسم « لوخارتمــوس » (وهو تحريف لاسم الخوارزمى) وعــدنا نحن فنقلناها مرة اخرى وسميناها اللوغاريتمــات ؟ كما اخترعوا الكسور العشرية التى احدثت تسهيلات رياضية كثيرة . وفى الطب اكتشــفوا الدورة الدموية ووصفوا كثيرا من الأمراض وصفا دقيقا واقترحوا انواعا من العلاج لها . وفى البصريات احرزوا تقدما علميا فائقــا حتى ان نظريات الحسن بن الهيثم فى البصريات (علم الضوء) ظلت تدرس فى جامعــات أوربا حتى بداية القــرن التاسع عشر . وكذلك كانت اضافتهم فى الكيميــاء والفيزياء ذات أثر بالغ فى تقدم هذين العلمين ، وكان بحثهم عن حجر الفلاسفة سببــا فى كشف الكثير من خواص المادة واسرار التفاعلات الكيمائية أما كشوفهم الجغرافية ورحلاتهم الاستكشافية العلميــة فقد وصلوا فيها الى حقــائق جغرافية كانت هى الأساس الذى استقت منه أوربا كل معارفها .

على ان أهم ما فى هذه الاضافات العلمية لم يكن الآفاق التى وصلت اليها هذه العلوم على يد المسلمين فحسب ، انما كان هو ابتداعهم للمنهج التجريبى فى البحث العلمى ، وهو أمر كان جديدا كل الجدة بالنسبة للعــالم اليونانى الذى كان ســائدا من قبل ، والذى كان يقوم على النظريات وحــدها دون التجربة العلميــة .

اما المسلمون فانهم ــ بتوجيهات دينهم ــ قد حولوا العــلم من التفكير النظرى الى التجربة العلمية والاستنباط المبنى على المشــاهدة والملاحظة ، وكان هذا فتحــا هائلا فى دنيــا العلم ، هو ــ باعتراف المنصفين من علمــاء

الغرب ـ الذى مكن للعلم الحديث أن يقفز القفزات الهائلة فى البحث والكشف والذى آتى ثماره على يد الأوربيين فيما بعد حين تعلموه من المسلمين .

وعلى الرغم من عظمة التراث العلمى الذى خلفـــه المسلمون ـ بالنسبة لعصرهم ـ وعلى الرغم من الأهمية البالغة للمنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى أنشأه المسلمون بتوجيـــه من دينهم وكتابهم ، فان هنـــاك ما هو ـ فى نظرى ـ اهم من ذلك كله ، وهو قيام هذه الحركة العلمية الهائلة المثمرة فى ظل العقيدة ، على غير خصام مع الدين ، بل بدافع من ذلك الدين .. وذلك عنصر تفردت به الحركة العلمية الاسلامية فى التاريخ .

ولتقدير اهمية هذا العنصر فلننظر فى الحركة العلميـــة القائمـــة اليوم فى أوربا ، انها حركة هائلة حقا . وقد بلغت آفاقا علمية لم تبلغهـــا البشرية من قبل فى تاريخها كله ، وحققت نتائج مذهلة فى كل ميدان . ومع ذلك فان فيها عيبا أساسيا خطيرا هو قيامها على أسس معادية للدين ، مخاصمة للعقيدة ، نافرة من اله .

بدأ الخصام بين الدين والعلم منذ القرن الثالث عشر الميلادى تقريبا حين وقفت الكنيسة فى وجه النهضة العلمية . وهددت العلماء بالحرق والتعذيب والقتل ان هم أصروا على القول بكروية الأرض ودورانها حول الشمس .. وكانت الكنيسة حريصة على ابقاء الجهل المخيم حرصا على سلطانها الروحى على نفوس الناس ، المبنى على الجهل والخرافة . كما أنهـــا كانت فى الحقيقة تحارب الحركة العلمية بعنف لانها آتية من مصـــــادر اسلامية ، من مدارس المسلمين فى الأندلس والشمال الافريقى وصقلية وجنوب ايطاليا (وهو سبب تهمل ذكره المراجع الأوربية) ولأنها تنشر معها اشعاعا اسلاميا يفتح القلوب لحب الاسلام ويزلزل سلطان الكنيسة .

وأيا ما كان الأمر فقد ظل الانفصام بين الدين والعلم يتزايد بمرور الزمن حتى صار خصما مجنونا فى حس الغربيين ، فهم لا يذكرون اسم الله فى البحث العلمى بل يعدون ذلك منافيا للروح العلمية ، ويذكرون « الطبيعة » بدلا من الله وينسبون اليها الخلق والاعجاز ، ويمزقون الكيان البشرى بين الرغبـــة الفطرية فى عبادة الله ، والرغبة الفطرية فى التعرف على الكون المادى والتفاعل معه (وهى التى تنشىء العلم) فاذا أراد أن يعبد الله فليترك العلم ، واذا أراد العلم فليترك عبادة الله ، بل أن العلم ليستخدم استخداما خبيثا فى محـــاربة العقيدة ونشر الالحاد ، على أســـاس أن الكشف العلمى قد أغنى البشرية عن الاعتقاد بوجود اله ، كما تنشر بين الحين والحين أخبار وهمية عن خلق خلية

حية فى المعمل للايهام بأن الانسان قد بدأ يخلق الحياة فلم يعد اذن فى حاجة الى الله ..

وذلك بالاضافة الى استخدام ثمار العلم فى الشر والفساد كما استخدمت الطاقة الذرية فى صنع القنبلة الذرية والهيدروجينية المدمرة قبل أن يفكر العلماء فى استخدامها فى الطب وفى زيادة انتاجية الأرض الزراعية ، وكما تستخدم حبوب منع الحمل فى افساد الأخلاق وتيسير الاباحة الجنسية فى كل مكان فى الأرض اليوم .

أما الحركة العلمية الاسلامية فقد برئت من ذلك كله لأنها قامت فى ظل العقيدة بل قامت بدافع من العقيدة . فلم يكن المسلم يجد فى نفسه حرجا بين النتائج العلمية التى يتوصل اليها وبين عقيدته الاسلامية الواعية المستنيرة الداعية الى العلم والمعرفة والتدبر فى ملكوت الله واكتشاف سننه . ولم يكن كذلك يحس بما يدفعه الى البعد من الله كلما زادت معلوماته عن الكون ، بل على العكس من ذلك يشعر بمقدار النعمة التى انعمها الله عليه بتعريفه بتلك الأسرار فيزداد تقربا لله بمقدار ما فتح الله عليه من أسرار .

ثم ان الحديث النبوى الشريف « طلب العلم فريضة » جعل العلم يؤدى تدريسا وتحصيلا - بروح الفريضة ، أى بروح التقرب الى الله وشكره على نعمائه . من أجل ذلك لم يستخدم العلم فى الشر ولا فى افساد الأخلاق ، لا لأنه كان قليل الحجم أو لأن استخدامه للشر لم يكن فى حيز الامكان (فان علما مثله أو أقل منه فى الكيمياء مثلا كان يستخدمه كهنة مصر فى السحر ، وفى تعبيد الناس الفرعون من دون الله) وانما لأن التقرب الى الله بالعلم كان هو المسيطر على قلوب المسلمين .

وتلك نعمة تفردت بها الحركة العلمية الاسلامية نفتقدها اليوم فى تلك الحركة العلمية الهائلة القائمة فى ظل الجاهلية فى هذا القرن العشرين .

الحركة الحضارية الاسلامية

أنشأ الاسلام حركة حضارية ضخمة امتدت فى واقع الأرض بضعة قرون . وكانت حركة متفردة شأنها شأن الحركة العلمية ..

لقد استعار المسلمون فى بدء الأمر بعض مظاهر الحضارة وتنظيماتها من البلاد المفتوحة ، وبخاصة من الحضارة الفارسية والحضارة البيزنطية . ولكن سرعان ما أنشأوا حضارتهم الخاصة المتفردة بخصائصها الذاتية .

ولقد كانت هذه الحضارة هى التطبيق العملى لروح الاسلام وتوجيهاته وتنظيماته وتشريعاته ، فالانسان مكلف بعمارة الأرض : ((**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** (١) . وهو مكلف كذلك ان يسير فى عمارتها على المنهج الربانى : ((**قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** (٢))) .

والمنهج الربانى ـ المفصل فى كتاب الله وسنة رسوله ـ منهج شامل لكل مناحى الحياة ، ومتوازن فى ذات الوقت . يعطى كل جوانب الحياة حقها من الرعاية ويعطيها القدر المناسب لها ، فلا يطغى منها جانب على جانب ولا يهمل منها جانب على حساب جانب آخر .

فبينما تنحرف الحضارات الجاهلية ، دائما مرة هنا ومرة هناك ، مرة تنحرف الى جانب الروح لتهمل عالم الحس والمادة ، ومرة تنحرف الى جانب المادة والحس لتهمل جانب الروح .. نجد الحضارة الاسلامية فى شمولها وتوازنها تأخذ فى حسابها عالم المادة وعالم الروح ، عالم الدنيا وعالم الآخرة ، عالم المحسوس وعالم ما وراء الحس القريب .

كانت الحضارة الهندية تعنى عناية فائقة بالروح ، باعتبارها هى الجوهر الخالد والجسد عرض فان لا يستحق العناية ولا الرعاية ، ومن هنا كانت تسعى الى تطهير الروح بتعذيب الجسد والامه واحتقار مطالبه ، وقد وصلت عن طريق ذلك الى درجات عالية من الشفافية الروحية تصنع أحيانا ما يشبه المعجزات . ولكنها فى الوقت ذاته أهملت واقع الحس القريب ، وأهملت التقدم المادى ، وغرق القسم الأكبر من الشعب فى ظلمات الجهل والفقر والتأخر المادى والعقلى والصحى والاجتماعى ...

وكانت الحضارة الرومانية تعنى عناية فائقة بواقع الحس القريب ، فأنشأت حضارة مادية رائعة . فهناك مدن عظيمة ، وشوارع نظيفة مستقيمة وبيوت مراعى فيها جمال العمارة وتيسيرات الحياة من ماء جار وبالوعات ، وطرق للنقل عبر الامبراطورية تحتمل سير السيارات والدبابات فى عصر لم تكن فيه سيارات ولا دبابات ، وهناك تنظيمات تنظم مرافق الحياة كلها تنظيما دقيقا يسهل سير الأمور ويسهل الاشراف عليها .. وكل ذلك جميل .. ولكنه على حساب الروح . فليس فى هذه الحضارة اتجاهات روحية

---

(١) سورة هود : ٦١

(٢) سورة البقرة : الآيات ٣٨ - ٣٩

توازن المتاع الجسدى وترفع الانسان عن الانحصار فى واقع الحس القريب .
كما كانت الحضارة اليونانية القديمة تقدس العقل وتقدس الجسد على حساب الروح كذلك . والحضارة الغربية القائمة اليوم هى فى حقيقتها امتداد للخط الاغريقى الرومانى معا ، فهى تقدس العقل والجسد وتسعى الى تيسير الحياة الدنيا وتجميلها وتزيينها والاستمتاع بها الى أقصى حد ، ولكن على خواء روحى شديد ، وهبوط فى القيم المعنوية والانسانية العليا يحول الانسان الى حيوان همه المتاع ، أو آلة همها الانتاج ، وبين هذا وذلك يضيع الانسان .

اما الحضارة الاسلامية ــ وهى حصيلة توجيهات الاسلام وتنظيماته وتشريعاته ــ فقد كانت شاملة للنشاط البشرى كله ، روحية ومادية على السواء . فانطلقت فى كل مناحى الحياة تنشىء وتبنى وتعمر فى عالم الحس دون أن تهمل من الحياة جانبها الروحى متمثلا فى عقيدة ومثل عليا ومشاعر انسانية رفيعة ووجدانات خيره . وفى وقت من الأوقات كانت كل نواحى القوة متمثلة فى الدولة الاسلامية : القوة العسكرية والقوة السياسية ، والقوة الاقتصادية ، وحركة التجارة العالمية ، والقوة العلمية ومنتجات الحضارة المادية ، ولكن ذلك كله لم ينس المسلمين عقيدتهم فى الله واليوم الآخر ، ولا أخلاقهم الاسلامية ــ وخاصة أخلاقيات الجنس ــ ولا شعور الأخوة الذى يربط المؤمنين بعضهم ببعض **« انما المؤمنون اخوة »** (١) ولا التكافل الاجتماعى المتمثل فى الزكاة من ناحية ، والانفاق على الأقربين داخل نطاق الأسرة من ناحية ، والانفاق فى سبيل الله على اتساع المجتمع من ناحية ثالثة ، ولم ينسهم أن للحياة البشرية أهدافا أخرى بجانب المتاع الحسى هى أعظم وأرفع من المتاع الحسى ، دون اهمال لذلك المتاع ومتطلباته الدنيوية ، العلمية والتطبيقية ، اتباعا لتوجيهات القرآن : **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »** (٢) .

ان الاسلام لايفرق بين الروح والجسد لأنهما كيان واحد متصل مترابط. ولا ، يفرق بين الدنيا والآخرة لأنهما طريق واحد ، أوله فى الدنيا وآخره فى الآخرة ، وكل عمل يعمل فى الدنيا لا تنتهى نتائجه فى الدنيا وانما تترتب عليه نتائج أخرى فى الآخرة : **« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال**

---

(١) الحجرات : ١٠

(٢) القصص : ٧٧

ذرة شرا يره (١) » . ولا يفرق بين نشاطات الحياة المختلفة فيجعل بعضها جسديا خالصا وبعضها روحيا خالصا ، أو بعضها سياسيا خالصا وبعضها اقتصاديا خالصا وبعضها اخلاقيا خالصا ، فالحياة البشرية متصلة الجوانب، والعنصر الأخلاقى أو الروحى أو العقيدى سار فيها جميعا بلا اختلاف . .

وإذ يجمع الاسلام طاقة الروح وطاقة الجسد فى كيان ، ويجمع الدنيا والآخرة فى طريق ، ويجمع السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق فى نظام ويوجه ذلك كله وجهة واحدة : الى الله ، فانه يوحد طاقات الكائن البشرى بدلا من أن يفرقها ويؤلف بينها بدلا من أن ينشىء بينها التضارب والصراع . ومن ثم تنطلق طاقات الانسان فى جميع الميادين فى وقت واحد ، وتنطلق الى اقصى غاياتها لا يعوقها شىء وتنشىء وتبنى وتعمر على أسس مهتدية راشدة . . وذلك ما كان من أمر الحضارة الاسلامية فى أوجها ، وذلك ما تفردت به الحضارة الاسلامية بين حضارات التاريخ .

ان الانتاج المادى والانتاج العلمى لهذه الحضارة هائل فى ذاته وعظيم . ولكن أعظم منه أنه قام كله فى ظل العقيدة الربانية ، غير منفصل عنها ولا متصارع معها وتلك مزية لا نقدرها حق قدرها حتى نرى الحضارة القائمة اليوم فى جاهلية القرن العشرين ، كيف انتهت بالانسان الى أن يصبح عبدا للمادة وعبدا للآلة وعبدا للشهوات ثم كيف طمست على روحه بعد ان حيرته زمنا بين رغبته الفطرية فى عبادة الله ، ورغبته الفطرية فى الانشاء والبناء والتعمير فى الواقع المادى المحسوس .

اثر الحضارة الاسلامية فى حياة البشرية

هذه الحضارة العظيمة التى تحدثنا عنها لم يكن اثرها مقتصرا على العالم الاسلامى وحده بل مدت اشعاعها الى العالم كله يومئذ ، وتأثرت بها أوربا بصفة خاصة فكانت هى المصدر الحقيقى الذى استمدت منه اوربا الحديثة نهضتها ، وان كانت فى تاثيرها قد ابت ان تاخذ الركيزة الرئيسية فيها وهى الاسلام ذاته ، عقيدة وشريعة لذلك جاء تاثيرها ناقصا غير مكتمل ، واثرت فيه انحرافات الجاهلية الحديثة فوجهته الى غير وجهته السليمة

(١) سورة الزلزلة : الآيات ٨،٧

فقد أخذت أوربا العلوم الاسلامية كلها من طب وفلك وفيزياء وكيمياء ورياضيات .. الخ ، ولكنها لم تأخذ الروح الاسلامية التى تجعل العلم ينمو فى ظل العقيدة فلا يتجه الى الشر والتدمير وافساد الأخلاق . واخذت فكرة « الأمة » من احتكاكها بالمسلمين فى الحروب الصليبية ولكنها طبقتها فى نطاق القومية لا على أساسها الاسلامى الشامل . واخذت عن المسلمين احترام المراة ولكنها لم تلتزم بأخلاقيات الجنس الاسلامية .. وهكذا .

ويعنينا هنا على أى حال أن نثبت بعض آثار الحضارة الاسلامية فى حياة البشرية عامة وأوروبا خاصة ، بصرف النظر عما أصاب هذه الآثار عند النقل من انحرافات ليس الاسلام هو المسئول عنها ، انما المسئول عنها هم الذين حرفوها .

(أ) فى العلم :

بدات أوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادى على وجه التقريب ترسل مبعوثيها لتلقى العلوم فى مدارس المسلمين القريبة منها : فى الأندلس والشمال الافريقى وجنوب ايطاليا ، وتعلم هؤلاء المبعوثون اللغة العربية وراحوا يترجمون التراث الاسلامى العلمى كله الى لغاتهم . ومن هذه الترجمات بدأت الحركة العلمية الأوربية المعروفة بحركة احياء العلوم ، وكانت كتب الطب الاسلامية تدرس فى جامعات أوربا حتى القرن السادس عشر ، وكتب الحسن ابن الهيثم فى البصريات حتى القرن التاسع عشر . وكانت اللغة العربية هى لغة الثقافة العالمية ، حتى قال (روجر بيكون) الذى نقل المنهج التجريبى الى أوربا ان تعلم اللغة العربية هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، وكان الأوربيون المتعلمون فى مدارس المسلمين يتباهون بمعرفتهم اللغة العربية حتى ان الكنيسة انزعجت انزعاجا شديدا من هذه الظاهرة وهددت أولئك المتعلمين بالطرد من رحمة الكنيسة اذا لم يكفوا عن التحدث بالعربية .

ب) فى الاجتماع :

حين احتكت أوربا بالعالم الاسلامى احتكاكا دمويا عنيفا فى الحروب الصليبية كان لهذا الاحتكاك آثار اجتماعية بعيدة المدى فى الحياة الأوروبية . فقد رأوا عالما مغايرا تماما لعالمهم ، تحكمه شريعة واحدة تطبق بنفس الصورة فى كل مكان وتربطه الأخوة ، ويعيش الناس فيه أحرارا يملكون حرية الحركة والتنقل وحرية العمل وحرية التجارة والصناعة وحرية التعلم .. وكان ذلك كله غريبا على حسهم وهم يعيشون فى ظل نظام الاقطاع ، حيث كل أمير مستقل باقطاعيته ، وهو الحر الوحيد فيها ، وبقية الناس عبيد للأرض أو

عبيد للسيد ، لا يملكون حتى الانتقال حتى من اقطاعيـــة الى أخرى ، ولا يملكون حق اختيار العمل اذ لا عمل لهم الا خدمة السيد فى أرضه ، ولا قانون لهم ولا شريعة الا ما يفرض عليهم السيد ، الذى تتمثل فيه فى آن واحـــد السلطة التشريعية والسلطة القضائية والســلطة التنفيذية .. فلمـا رجع الأوربيون الى بلادهم بعد هذا الاحتكاك حنوا الى تقليد ما رأوه فى العـــالم الاسلامى من مظاهر التحرر والوحدة فى ذات الوقت ، فأخذوا رويدا يثورون على الاقطاع ويسعون الى تحطيمه ، ويسعون الى تكوين أمة موحدة بدلا من الاقطاعات المستقلة بعضها عن بعض ، فانتهت حركتهم الى تكوين أمم شـتى على أساس القومية لأنهم عجزوا ـ بغير عقيـدة ربانية ـ عن تحقيق الأمة الواحدة بمعناها الاسلامى .

وكذلك قامت حركة الفروسية الشـــهيرة فى العصور الوسطى تقليـدا لصورة الفارس المسلم المتخلق بأخلاق الاسلام ، فقامت جماعات من الفرسان نذرت نفسها للنجدة واغاثة الضعيف والمحتاج ونصرة المظلوم والقتال فى سبيل الشرف والواجب ، وكان من ابرز سماتها احترام النســاء والعمل على رفع الظلم عنهن .. وتلك كلها أخلاقيات المقاتل المسلم الذى التقوا به فى الحروب الصليبية وتأثروا به تأثرا بالغا رغم عداوة الحرب الضــارية التى استمرت قرابة قرنين من الزمان .

كذلك تأثرت أوربا بالتشريع الاسلامى فى أكثر من صورة ففرنسا أخذت كثيرا جـدا من المذهب المـالكى ـ الذى كان واســع الانتشـــار فى الشمال الافريقى ـ وصاغت قانونها المدنى مستمدا فى الحقيقة من ذلك المذهب . كما ان البذرة الأولى للقانون الدولى مستمدة فى حقيقتها من الاســلام حيث يقرر وجود دار اسلام هى التى تحكمها شريعة الله ، ودار حرب هى التى لا تحكمها شريعة الله ، ثم يقرر كيف تقوم علاقات قانونية بين دار الاسلام ودار الحرب ولا يترك الأمر فوضى بغير تنظيم .

(جـ) فى الدين :

تأثرت المسيحية بالعقيدة الاسلامية ـ رغم العــداء الصليبى ـ تأثرات شتى جاء فى كتاب ضحى الاسلام (١) .

« ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الاسلام . من ذلك انه فى القرن الثامن الميلادى ـ اى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ـ ظهرت فى سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنســا على البحر المتوسط)

---

(١) ١٩٦٥ ص ١٦٤

حركة تدعو الى انكار الاعتراف أمام القسس وأن ليس للقسس حق في ذلك ، وان يضرع الانسان الى الله وحده في غفران ما ارتكب من اثم . والاسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار ، فطبيعي لا يكون فيه اعتراف ...

« وكذلك قامت حركة تدعو الى تحطيم الصور والتماثيل الدينية . ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع للميلاد ــ اى في القرن الثالث والرابع الهجرى ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل . فقد أصدر الامبراطور الروماني « ليو الثالث » أمرا سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل وأمرا آخر في سنة ٧٣٠ بعد الاتيان بهذا وثنيـة . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ...

« وكذلك وجدت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية وانكرت الوهية المسيح » .

وهذا كله غير التأثيرات الأخرى في فن المعمار وفي الأدب والشعر ، وفي تفصيلات الحياة الأخرى . وغير الحركات الاستكشافية التى قامت لكشف أقطار الأرض متأثرة بالرحلات الاسلامية كرحلة ابن بطوطة والادريسى والبيرونى وغيرهم ومهتدية بالخرائط التى دونها علماء الجغرافية المسلمون من قبل لأقطار آسيا وافريقيا . وغير النهضة الصناعية التى اخذت بذورها من مهارات المسلمين .

وباختصار فقد كان للحضارة الاسلامية اشعاع واسع المدى في كل اتجاهات الحياة البشرية حيث كان المسلمون هم المصدر الوحيد في الأرض للعلم والمعرفة والحضارة لفترة طويلة من التاريخ .

خطر الانحراف

ما بين الذروة التى وصل اليها العالم الاسلامى والهوة التى نجد انفسنا اليوم فيها نقلة بعيدة ... ولا يمكن بطبيعة الحال أن يكون هذا الانتقال قد حدث فجأة . فذلك مخالف للسنن الربانية التى تجرى عليها الحياة في المجتمعات البشرية . ولا يمكن كذلك ان يكون هذا الانتقال قد حدث بغير اسباب « **ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم (١)** » .

---

(١) سورة الانفال : الآية ٥٣

وقد أنعم الله على هذه الأمة بنعمة الاسلام : **((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا))** (١) وانعم عليها بأن جعلها خير امة اخرجت للناس : **((كنتم خير امة أخرجت للناس))** (٢) ولكن على شرط معين . **((كنتم خير امه اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٣)))** . وأنعم عليها بالاستخلاف والتمكين فى الأرض ولكن بشرط معين كذلك : **((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا : يعبدوننى لا يشركون بى شيئا (٤)))** .

وطالما كان المسلمون على الشرط فان وعد الله المبذول لهم كان متحققا على الدوام لا يتخلف . فان وعد الله لا يتخلف أبدا . ولكن لما بدأ المسلمون يحيدون عن الخط السوى كان لابد أن يظهر الفساد فى الأرض حسب السنة الربانية : **((ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا ، لعلهم يرجعون (٥)))** . والسنة الربانية لا تخلف أبدا : **((سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٦)))** . وسنة الله لا تحابى احدا لأنه من نسل قوم كانوا مؤمنين ، انما تعطى الناس على قدر ايمانهم هم : **((واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال : انى جاعلك للناس اماما . قال: ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين (٧)))** .

ومن سنة الله أن الانهيار لا يحدث فجأة فى المجتمعات وخاصة حين تكون متينة البنيان وقد كان المجتمع الاسلامى الذى اسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم متين البناء بدرجة فائقة غير معهودة فى التاريخ . لذلك فان عوامل الهدم التى عملت فيه سواء من الداخل أو الخارج لم تستطع أن تحطم تماسكه الا بعد قرون طويلة جدا ، عانى فيها المجتمع الاسلامى ذبذبات متوالية من الصعود والهبوط واليقظة والخمول ، ولكن السنة الربانية التى لا تتخلف أبدا

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣

(٢ ، ٣) سورة آل عمران : الآية ١١٠

(٤) سورة النور : الآية ٥٥

(٥) سورة الروم : الآية ٤١

(٦) سورة الفتح : الآية ٢٣

(٧) سورة البقرة : الآية ١٢٤

كان لابد أن تعمل عملها فى النهاية حين تراكمت عوامل الفســاد التدريجى الطويل وتزايدت على مر القرون ، فأدت فى النهاية الى هذه الحال البائســة التى يعيشها المسلمون فى أرجاء الأرض .

ولابد لنا ــ ونحن بصدد بعث اسلامى جديد ، يعيد لهذه الأمة باذن الله مجدها الذى فرطت فيه ، وروحها البانية التى تخلت عنهــا ــ لابد لنا من دراسة خط الانحراف ، لنعلم من أين أتينا ، وكيف وصلنا لما وصلنا اليــه ، حتى يكون انبعاثنا الجديد ــ ان شــاء الله ــ مستقيما على الخط الربانى ، بريئا من الانحراف .

بدأ الانحراف فى الحقيقة مبكرا جدا فى الحياة الاسلامية ، ولكنه كان فى مبدأ أمره ضئيلا ومنحصرا فى نطــاق ضيق ، لذلك لم يؤثر فى بناء الأمــة الاسلامية ولم يعق انطلاقها الى مجالات نشاطها المختلفــة التى أبدعت فيها ابداعها العبقرى ، ثم جاءت مرحلة كان الابداع يأخذ ذروته فى كل المجالات : السياسية والاقتصادية والعلمية والحضارية ، ولقد ظل هذا الانحراف كذلك ثم اتسعت شقته حتى كاد يؤدى الى الانهيار الشامل لولا رعاية الله التى قيضت للاسلام حركة مد جــديد استمر بضعة قرون أخرى ، ولكن هــذه الحركة الجديدة لم تكن هى الأخرى بريئة من الانحراف الذى ظل يتزايد فى القرنين الأخيرين بصفة خاصة ، والقرن الأخــير بصفة أخص حتى ادى الى انهيــار جديد فى أرجاء العــالم الاســلامى ما زال يعانى منه حتى اليوم وحتى يعود الناس الى طريق الصواب .

بدأ الانحراف فى العصر الأموى محصورا فى تحويل الخــلافة الى ملك ، والبحبحة النسبية فى بيت المــال حيث استخدم جانب من أمواله فى تأليف القلوب ــ لا للاسلام كما هو منصوص عليه فى الآية : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم .. (١) » ــ ولكن للدولة ذاتها ، أى لشراء الأنصار ، لكى يؤيدوا الدولة الأموية ويتركوا تأييدهم الجانب الآخر . كما صحت النعرة القبلية التى كان الاسلام قد قضى عليها بتأليف المؤمنين كلهم فى أمة واحدة متآخية متآلفة . كما أن الأمويين حرصا منهم على عروبة الدولة قد ضغطوا على الفرس بما لا يتفق مع روح الاسلام ، وبصورة لم تتح لأحقاد الفرس المقهورين أن تذوب فى الاسلام ، بل ظلت الأحقــاد مؤرثة فى قلوبهم يتحينون الفرصة للكيد لهذا الدين كما بدا ذلك فى العصر العباسى .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٦٠

تلك كلها انحرافات ولا شك .. ولكنها كما قلنا كانت محصورة فى نطاق ضيق وكان بناء المجتمع الاسلامى من المتانة بحيث لم تؤثر تلك الانحرافات فى كيانه ولم تعوقه عن انطلاقته الكبرى البانية الراشدة ، فقد كان المجتمع الاسلامى ما يزال سليما فى مجموعه جادا فى أخذ الاسلام وحمله الى ربوع الارض ، وكانت الدولة والمجتمع حريصين على نشر الدعوة والانطلاق بها فى الآفاق ، فتمت فتوح مذهلة فى سرعتها ، تممت ما كان قد حدث من فتوح على عهد الخلفاء الراشدين فوصل الاسلام من المحيط غربا الى الهند شرقا فيما لا يتجاوز خمسين سنة من الزمان وهى سرعة غير معهودة فى التاريخ . كذلك كان المجتمع الاسلامى حريصا على عباداته حريصا على أخلاقه ، حريصا على تطبيق روح الاسلام ونصوصه ، وان كان خوفه من الفتنة ، التى كانت اصداؤها ما تزال قريبة ، قد اقعده عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما يقع من حكام بنى أمية من المخالفات .

ثم جاء العصر العباسى فزادت هذه الانحرافات حدة ، واضيفت اليها انحرافات جديدة من انواع جديدة .

فأما وراثة الملك فقد كانت على الأقل فى العصر الأموى تتم بصورة تضمن ترشيح أفضل الموجودين للخلافة مع استثناءات قليلة . أما فى العصر العباسى والثانى بصفة خاصة ، فقد كانت تتم بالدور أكثر منها بالاختيار ، حتى اذا جاء الدور على طفل فى الثامنة او العاشرة فليس هنالك ما يمنع من توليه الخلافة .

واما الحبحبة فى بيت المال فقد زادت مع زيادة المال حتى لم يعد أمرا مستغربا ولا مستنكرا ان يأمر الخليفة بمائة الف دينار من بيت المال لشاعر من المداحين مدحه ببضعة أبيات .

ثم اضيفت مجموعة جديدة من الانحرافات ...

فالمال الوفير الذى تدفق على الدولة من كل مكان ، من الفىء والخراج والجزية والزكاة من ناحية ، ومن التجارة الواسعة حيث كان المسلمون يقومون بحركة التجارة العالمية من ناحية أخرى ، ومن ازدهار العمران والصناعة من ناحية ثالثة .. كل ذلك أدى ــ مع عدم وجود ضوابط قوية فى سياسة الحكم ــ الى نشأة الترف فى حياة المسلمين . والترف داء هدام فى جميع الحالات ، وهو المدمر الأكبر لحضارات التاريخ .

بدأ الترف أولا فى قصور الخلفاء ، ثم فى قصور الأمراء ، ثم فى قصور الوزراء ثم فى قصور التجار الذين كانت ثرواتهم أحيانا تبلغ الملايين ، ثم

تدريجيا فى قصور الأغنياء من سكان بغداد مقر الخلافة . ورويدا رويدا انتقل الترف الى العواصم الكبرى فى العالم الاسلامى عن طريق العدوى من مدينة الخلافة فصارت دمشق والقاهرة وغيرهما معرضا للترف وما يجره معه من الفساد .

ومن مظاهر الترف التى برزت فى العصر العباسى ذلك العدد الوفير من الجوارى الذى كان يأتى من سبايا الحرب ، والجوارى المغنيات بصفة خاصة حيث كانت تقوم فى القصور حفلات طرب وغناء ورقص وخمر أحيانا تلهى المترفين عن جديات الأمور ، كما كان من أسباب الفتنة كذلك أن بين أولئك الجوارى من كن يهوديات ونصرانيات جئن من سبايا الحروب فى أوروبا ، وكن فى الواقع رسلا خفيين للأعداء من اليهود والنصارى الذين احتاح الاسلام بلادهم ، فكان همهن افساد ما يمكن افساده من أحوال المجتمع الاسلامى ، وقصور الخلافة بصورة خاصة ، وحسبهن فى ذلك أن يشغلن بال الخلفاء بمكايد النساء فى القصور فيلهيهم ذلك عن التفرغ للمشكلات الجادة ، وأن يشغلن الأمراء بهن وبمكايدهن حتى اذا وصلوا الى الحكم كان الترف والفراغ قد أكل جانبا من اهتمامهم الجدى بشئون المسلمين ، وبشئون الغزو بصفة خاصة وتلك هى الرسالة الخفية لأولئك الجوارى الحاقدات على الاسلام .

الى جانب هذا الترف البالغ ، ورد فعله ، وجدت الصوفية وهى انحراف خطير أصاب الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية فى العالم الاسلامى منذ العصر العباسى ، وظل يتزايد الى نهاية العصر العثمانى .

ان الاسلام لا يعرف الصوفية . . انما عرف **الزهادة** فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد البشر أجمعين ، وفى شخص الخلفاء الراشدين أجلة الصحابة . وهى استعلاء على متاع الأرض يعطى صاحبه قوة فى الحق ، وقوة فى الجلد على الجهاد فى سبيل الله ، مع ايجابية كاملة وصحو كامل ، ومواجهة واقتحام للصعاب . أما الصوفية — فهى — وان اشتركت مع الزهد فى بعض مظاهره وهى الاستعلاء على متاع الأرض — الا أنها صورة سلبية ، تتطهر بالانعزال عن الفساد ولكنها لا تواجهه ولا تقاومه ولا تقاتله فتكون النتيجة — حين ينعزل الأتقياء المتطهرون كلهم عن تيار الحياة فى المجتمع — أن يستأسد الشر ويستشرى ، لأنه يعمل فى الميدان وحده بغير مقاومة من العنصر النظيف فى المجتمع . والاسلام لا يقر هذه السلبية الانعزالية حتى لو كانت توفر لأصحابها التطهر الحقيقى لأنها أشبه بالرهبانية . ولا رهبانية فى الاسلام . ومع ذلك فانها لم تحافظ دائما على نظافتها وتطهرها ، بل سرى

اليها الفســـاد الذى سرى الى الرهبانيــة من قبل « **ورهبانيـــة ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغـاء رضـوان الله فما رعوها حق رعايتها** » (١) ، وذلك فضلا على ما انتهت اليه فى العصور الأخيرة خاصة مما يشـبه العبادة والتقديس من المريد لشيخه ، واتخاذه وسيلة وواسـطة الى الله ، أشـبه شىء بالكاهن فى المسيحية الذى لا يتم الاتصـال بالله الا عن طريقه ، وقد كان لليهودية والنصرانية اثر فى الصوفية لا شك فيه ، الى جانب التأثير الفارسى والتأثير الهندى . .

ومع الصوفية وجـد التواكل . وهو انحراف آخر خطير ما زال العـالم الاسلامى يعانى نتائجه حتى اللحظة . .

والفرق بين التوكل الحق وبين التواكل شـبيه ومواز للفرق بين **الزهادة** الحقة وبين التصوف . فالتوكل يقتضى الأخذ بالأسباب مع اليقين بأن الله هو الذى يرتب النتائج ، وان الأسباب لا تؤدى الى النتائج بصورة حتميـة وانما بمشيئة الله . فيفوض الأمر الى الله بعد الأخذ بالأسباب : « **فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** (٢) » . والعزيمة لا تكون عزيمة فى الواقع الا اذا اتخذت لها الأسباب ، والا فهى أمانى فارغة وليست عزيمة حقيقية كذلك يقول الله سبحانه : « **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون** (٣) » .

فارهاب أعداء الله وأعداء المسلمين واخزاؤهم ودحرهم وابطال تحدياتهم غاية تكفل الله بتحقيقها فى الآية السابقة : « **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لايعجزون** (٤) » . ومادام الله ــ سبحانه ــ قدقرر أن الذين كفروا واهمون فى ظنهم وفى تحديهم الله ، وانهم مدحورون فى تحديهم هذا ، فقد قضى الأمر ، وكتبت الهزيمة ، بالمشيئة الربانية ــ على الكافرين ولكن الله سبحانه قد اقتضت مشيئته ان يجرى قدره من خلال تصرفات البشر وعملهم وجهدهم فى الأرض ، ولذلك قال فى الآية التالية مباشرة : « **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة** » وتحدث فى الآية ذاتها عن الانفاق فى سبيل الله لاعداد هذه القوة ، أى انه

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٧
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩
(٣) سورة الانفال : الآية ٦٠
(٤) سورة الانفال : الآية ٥٩

سبحانه امر بالأخذ بالأسباب التى تؤدى ـ من خلال عمل البشر وجهدهم ـ الى تحقيق هذه الغاية المقررة المقضى بها فى قدر الله وسبق بها علمه ومشيئته. وهكذا لا يتعارض فى المفهوم الاسلامى الصحيح اخذ الناس بالأسباب وتوكلهم على الله فى الوقت ذاته بل يكون التوكل الصحيح هو اللجوء الى الله والتطلع الى معونته مع الأخذ بالأسباب التى يرجى بها تحقيق الغاية أما القعود عن العمل وعدم الأخذ بالأسباب بزعم التوكل على الله ، فهذا هو التواكل الذى أصاب المسلمين فى انحدارهم ، وهو مرض اذا أصاب أمة هوت فى مهاوى التخلف حسب سنة الله .

وعندما وصلت الأمور الى هذا الحد من السوء ، مع القعود عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومع نزاعات الحكام وصراعاتهم ومع ظهور الفرق والجدل الكلامى عن طريق العدوى بعد ترجمة الفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ، وتأثير ذلك على الوحدة الفكرية والروحية للامة الاسلامية ، فان الأعداء المتربصين انتهزوا هذه الفرصة السانحة للانقضاض على العالم الاسلامى ، فنشبت الحروب الصليبية التى استغرقت ما يقرب من قرنين من الزمان ، وفى أثناء ذلك هجم التتار أيضا هجومهم الكاسح الماحق الذى دمروا فيه كل شىء حتى وصلوا ـ دون توقف ـ الى عين جالوت فى الشام .

ولكن هذا القدر الضخم من الفساد لم يكن فى الحقيقة قد قضى على الاسلام فى قلوب المسلمين ، انما كان هؤلاء فى غفوة ران فيها على قلوبهم ما تجمع من أدران وانحرافات فما أن قام رجال صادقو الايمان يجددون لهذه الأمة امر دينها كما وعد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى هبت الأمة عن غفلتها وانبعثت تنفض عنها الركام وتقاتل فى سبيل الله ، فانتصرت ـ فى النهاية ـ على الصليبيين ودحرتهم فى جملة معارك كان أبرزها واحسمها معارك صلاح الدين كما هبت هبتها المؤمنة التى دحرت فيها التتار فى عين جالوت ، حين صاح قطز حاكم مصر المملوكى صيحته الشهيرة : « وا اسلاماه » . واندفع يقاتل التتار بايمان المؤمن الصادق الواثق من نصر الله ، فنصره الله ، تحقيقا لوعده الصادق **« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »** (١) .

---

(١) سورة محمد : الآية ٧

وكان فى اعقاب ذلك كله حركة مد جديدة قامت على يد الاتراك العثمانيين بعد أن أسسوا دولتهم فى تركيا وبدأوا يتوغلون فى شرق أوروبا حتى وصلوا الى فيينا وحاصروها مرتين ووصلوا الى بطرسبرج (لننجراد الآن) وكانت يومئذ عاصمة روسيا وطوقوها ، واخضعوا بلاد البلقان كلها ومنطقة القرم وما جاورها ، وظلت دولتهم قائمة ما يقرب من خمسة قرون ترهب أوروبا وتفزعها .

غير أن هذه الانتفاضة الجديدة شابتها عيوب وانحرافات ادت بها فى النهاية ــ حسب سنة الله ــ الى الانهيار . وقد أدى الأتراك العثمانيون خدمات جليلة للاسلام ، فقد كانوا متحمسين لخدمة الاسلام حماسة حقيقية ، وكانت لهم عبقرية سياسية وعسكرية استخدموها باخلاص لخدمة الدين . ولو لم يكن لهم فى تاريخهم من مفاخر الا حماية العالم الاسلامى من الغزو الصليبى زهاء اربعة قرون من الزمان ورفضهم الواعى المؤمن اعطاء اليهود وطنا قوميا فى فلسطين (أيام السلطان عبد الحميد) لكفاهم ذلك مجدا ومثوبة عند الله وعند الناس .

ولكن هذه الأمجاد العالية التى حققوها لا تنفى وجود العيوب والانحرافات التى لا بد أن تؤدى الى نهايتها الحتمية حين يسكت الناس عليها ولا يصححونها عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد كان من بين هذه العيوب والانحرافات ان الدولة العثمانية لم تستعرب وهذه أول دولة تتولى الخلافة دون أن تدخل فى اللسان العربى . واللغة العربية الزم لدولة الخلافة منها لغيرهم ، ذلك انه لا يمكن التفقه الحقيقى فى هذا الدين بغير تعلم لغة الكتاب المنزل (حتى وان كان بعض العلماء الأتراك قد تعلموا العربية والفوابها فى علوم الدين)

ثم أن النظام الادارى التركى كانت فيه ثغرات ينفذ منها الظلم السياسى والاجتماعى والاقتصادى وأبرز عيوبه تعيين الوالى لمدة محدودة يعزل بعدها عن العمل ، فتكون النتيجة العملية أنه لا يلتفت للاصلاح ولاقضاء مصالح الناس ، انما يلتفت لتكوين ثروة شخصية من خلال التزامه بجعل معين يدفعه للدولة ، فيجبى ما يطلب منه ويزيد عليه حصته الخاصة ، ويتولى الولاة على هذه الصورة فيظلمون الناس ويبتزون أموالهم ولا يلتفتون الى مصالحهم .

كذلك فان عدم الاذن بفتح باب الاجتهاد ــ على أساس ان القدماء قالوا كل شىء وانه ليس فى المحدثين من تتوفر فيه شروط الاجتهاد ــ فى

الوقت الذى طرات على حياة البشرية كلها ـ والمسلمين من بينهم .. تغيرات شتى نتيجة التقدم العلمى وتأثير ذلك فى تغيير وسائل الانتاج ، وتغيير صورة الحياة الاقتصادية والاجتماعية تبعا لذلك . هذا أدى الى بروز احوال جديدة للناس لا تستظل بظل الشريعة الاسلامية لأن الفقهاء لم يستنبطوا لها من الشريعة ما يناسبها من الأحكام الفقهية ، وكانت هذه هى الثغرة التى دخل منها اليهود والنصارى فى دار الخلافة ، فدسوا على الخلفاء قوانين غير اسلامية باسم انها قوانين اصلاحية وكان هذا منهم توطئة لتنحية الشريعة الاسلامية كلها فيما بعد .

ثم ان الصوفية بقيت على حالها بل زادت انتشارا وزادت سوءا كذلك حين صارت هى الطريق الوحيد للتدين فى نظر الناس ، وذلك حين انحسر الدين فى حس الناس الى عبادات فحسب ، وتضاءلت جوانبه الأخرى فى نفوسهم تدريجيا حتى كادت تخرج من اطار الدين . وقد كان هذا التحول فى معنى الدين ، والتركيز على الجانب التعبدى وحده ، دون بقية جوانبه الفعالة التى ينبغى أن تعمل فى وقت واحد مع الشعائر التعبدية .. كان هذا التحول من أشد الانحرافات التى أصابت العالم الاسلامى فى الفترة الاخيرة ، وذهبت بالمعنى الحقيقى للاسلام الذى كان من أبرز خصائصه تقرير المعنى الواسع الشامل للعبادة ، الذى يشمل كل تصرفات الانسان وكل عمله وكل جهده المبذول فى الأرض ، تحقيقا لقوله تعالى **(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (١))** . فاذا تحول الدين الى شعائر تعبدية فقط ، والى علاقة خاصة بين العبد والرب ، فهذا هو المفهوم المسيحى الكنسى للدين ، وليس هو مفهوم الاسلام ، الذى جعل الدين شعائر تعبدية وعملا فى الواقع الارضى فى ذات الوقت وجعله عقيدة وشريعة ، ودينا ودولة ودنيا وآخرة ، ونظاما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفكريا وروحيا واخلاقيا كلها فى آن واحد .. وكلها هى الدين .

ومع الصوفية يسرى دائما التواكل والقعود عن العمل والقعود عن اتخاذ الأسباب وكلها انحرافات مدمرة فى النهاية .

واسوأ من ذلك كله ، أو نتيجة لذلك كله ، فان الدين تحول الى مظاهر خاوية من الروح ، وتقاليد يحافظ عليها فى ذاتها بينما هى خالية من الدلالة

---

(١) سوره الذاريات : الآية ٥٦

ومن الرصيد الواقعي فصار الأمر كله تقليدا بلا حقيقة . حتى الشعائر التعبدية صارت مجرد تقليد .

وزاد الأمر سوءا حين دخلت الخرافة وحلت محل حقائق الدين . فتحول الدين في حس العامة الى أضرحة وأولياء ومشايخ ومسابح وأذكار وترانيم وبدع ما أنزل الله بها من سلطان .

هنا كان العدو المتربص ينتظر الفرصة السانحة . فدخل بخيله ورجله .. وكان الغزو الصليبي الصهيوني الذي ما زلنا نعاني آثاره حتى اللحظة، والذي طمع في القضاء الأخير على الاسلام ، لولا حركات البعث التي قيضها الله لهذه الأمة لتحاول بعث الاسلام من جديد في صورته النقية الشاملة المتكاملة كما أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكما فهمه المسلمون اول مرة .

ولقد كان الغزو الصليبي الصهيوني في هذه المرة أخبث والأم منه في المرة الأولى في العصور الوسطى . فلم يكتف بالغزو العسكري وحده كما حدث في ذلك الحين ، ولم يكتف كذلك بالغزو السياسي والاقتصادي ، ولكنه دخل بغزو أخطر هو الغزو الفكري – أو الروحي والثقافي ، الذي هدف به الى القضاء على الاسلام في داخل قلوب المسلمين والذي نلاحظ آثاره البالغة في حاضر المجتمع الاسلامي في حياة المثقفين بصفة خاصة .

وينبغي لنا أن ندرس أحوال المجتمع الاسلامي المعاصر بعناية وتمعن ، لنعرف من أين أتينا ، ونعرف كذلك طريق الخلاص .

* * *

الغزو الفكري في البلاد الاسلامية

حين بلغ المسلمون مبلغهم من الانحراف عن دينهم لم يكن من المتوقع من عدوهم أن يتركهم لأنفسهم ، وهو الحاقد المتربص منذ الحروب الصليبية، انما كان المتوقع أن يسارع الى اقتناص الفرصة السانحة لغزو العالم الاسلامي . وقد حدث ذلك بالفعل. ولكن الغزو في هذه المرة لم يكن غزوا عسكريا فحسب كما كان في الحروب الصليبية الأولى انما كان – الى جانب الغزو العسكري والسياسي والاقتصادي غزوا فكريا كذلك ، يحاول أن يقتلع الاسلام من جذوره من قلوب المسلمين ، ويستبدل به عقائد أخرى ، وقيما ومبادىء وأخلاقيات أخرى ، لا يهم ماذا تكون في ذاتها انما المهم فيها أن تبعد المسلمين عن الاسلام .

واذا اخذنا ما حاوله الغزو الصليبى فى مصر نموذجا للغزو الفكرى فسنجد ان العدو قد حاول مثل هذا بصورة او بأخرى فى كل مكان فى العالم الاسلامى وقد تختلف الصورة قليلا هنا أو هناك ، وقد يختلف مدى نجاحه كذلك من مكان الى آخر ، ولكن الهدف كان واحدا فى جميع الحالات، وهو محاولة فتنة المسلمين عن دينهم .

***

لجأ الغزو الصليبى فى مصر من أيام نابليون الى تنحية الشريعة الاسلامية عن الحكم واحلال القانون الوضعى بدلا منها ، لأن الحكم بالشريعة اذا ألغى فسيتبع ذلك حتما تخلخل بقية عرى الاسلام ، عروة عروة كما حدث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « تنقض عرى الاسلام عروة عروة فأولها نقضا الحكم وآخرها نقضا الصلاة » أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

وفى أيام الاحتلال البريطانى وضعت خطة خبيثة المدى ولكنها بحسب المثل الانجليزى المشهور : « بطىء ولكنه أكيد المفعول » .

ذلك ان نابليون ـ بحماقاته ـ كان قد أثار الثورة عليه فى مصر ، فأراد الانجليز أن ينفذوا نفس الخطة ـ وهى القضاء على الاسلام ـ دون اثارة ولا تنبيه ، حتى يتم المفعول والناس غافلون . وقد اتخذوا لذلك وسائل متعددة ومتنوعة منها :

١ ـ افساد التعليم .

٢ ـ افساد المرأة .

٣ ـ افساد مفهوم السياسة .

٤ ـ افساد الفكر والثقافة والفن .. الخ .

ونعرض هنا عرضا سريعا ملخصا لمحاولاتهم فى كل باب من هذه الأبواب :

١ ـ كان التعليم قبل الاحتلال البريطانى دينيا فى أساسه ، يتمثل فى الأزهر ومعاهده الدينية ، فجاء « دنلوب » المستشار الانجليزى لوزارة المعارف المصرية ـ وهو قسيس ـ فوضع سياسة تعليمية هدفها الأخير ابعاد المتعلمين عن الاسلام . وكان تركيزه على تعليم اللغة العربية والدين والتاريخ الاسلامى أشد من تركيزه على بقية المواد ، وان كان قد استخدمها كلها لتحطيم الروح المعنوية عند المصريين .

فبالنسبة للغة العربية كان يتعمد أن يعطى مدرسها راتبا أدنى بكثير من مدرسى المواد الأخرى ـ وبخاصة مدرس اللغةالانجليزية ـ وينعكس ذلك على المدرس ذاته فيفقد مكانته البارزة فى المدرسة والمجتمع ، وينظر الناس اليه نظرة أدنى من غيره من المدرسين ، ثم يسرى الشعور ذاته على اللغة التى يدرسها وهى اللغة العربية التى هى فى الوقت ذاته لغة القرآن ، فتفقد احترامها بين الناس .

واما حصة الدين فكانت تهمل بحيث توضع فى نهاية اليوم المدرسى والتلاميذ مرهقون من الدراسة ، ثم كانت تلغى فى نهاية العام مع كل المواد « الاضافية » التى لا تعتبر من صميم الجدول ، وهذا بالاضافة الى أن مدرسها ـ وهو أصلا من مدرسى اللغة العربية الذين امتهن دناوب وضعهم الاجتماعى والمعنوى ـ كان ينتقى دائما من العجزة المسنين ، بحيث لا توحى حصة الدين الى التلميذ بأى معنى من معانى الحيوية والنشاط ، (ويلاحظ ـ للمقارنة ـ ان حصة الدين فى المدارس التبشيرية كانت تجعل دائما فى باكورة الصباح والتلاميذ نشاطهم كله لما يتبدد منه شيء وكان يتولى تدريسها فى كنيسة المدرسة أصح المدرسين والمدرسات وأشبهم وأحبهم الى قلوب التلاميذ) .

وأما حصة التاريخ الاسلامى فكان يبدأ فيها بتلك الجملة التقليدية : كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب ، فنهاهم الاسلام عن ذلك ، وبذلك ـ كما قلنا فى مقدمة هذه المحاضرات ـ يفقد الاسلام معناه الحقيقى، ويصبح شيئا من تراث التاريخ الماضى ، لم تعد له مهمة يؤديها فى الوقت الحاضر ، ثم يدرس تاريخ البعثة النبوية والخلفاء الراشدين بكل بهائه ورونقه ، ليدرس بعده التاريخ السياسى الاسلامى وحده ، بمعزل عن التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والعلمى والحضارى والأخلاقى والفكرى .. الخ ، والتاريخ السياسى هو فى الواقع خط الانحراف ، الذى تحدثنا عنه من قبل وهو فى ذاته حقيقة ولكنه ليس كل الحقيقة والى جانبه كانت توجد مجالات هائلة أحدث الاسلام فيها واقعا ضخما مليئا بالنور ومليئا بالأمجاد . فالتركيز على خط الانحراف وحده واهمال كل الجوانب الناصعة من التاريخ الاسلامى قصد به أن يحدث أثرا معينا فى نفوس التلاميذ وهو أن الاسلام لم يعش الا فترة الخلفاء الراشدين ثم لم يعد له بعد ذلك وجود ، واذن فلا معنى ولا حاجة الى محاولة بعث هذا التاريخ من جديد ، أما الذى

يستحق الاتباع فهو أوربا ، فهى القوة وهى التقدم وهى الحضارة وهى النور .

هذاكله كان فى المدرسة الابتدائية التى افتتحها دنلوب . أما فى المدرسة الثانوية السائرة على نفس النهج فكان التهجم على الاسلام أصرح ، وتشويه حقائقه اشد . فاذا جئنا الى مدرسة المعلمين التى تخرج المدرسين فقد كان الهجوم فيها صريحا للغاية ـ لتشكيل عقول الطلاب ـ الذين سيصبحون مدرسين ـ تشكيلا معاديا للاسلام أو على الأقل غير معتز به . ثم كان يختار من بين المتخرجين أشدهم تأثرا بهذه التعاليم فيرسل فى بعثة الى انجلترا حيث يعود فيتقلد المناصب الرئيسية بعد تمام تشكيله على الوضع المطلوب فتتم الدورة من أول التلميذ الى المعلم ـ الى واضعى المناهج الى المشرفين على تنفيذها بطريقة معادية للاسلام .

٢ ـ وأما بالنسبة للمراة فقد كانت هناك عناية شديدة بافسادها ، ذلك ان افساد الرجل وحده لا يكفى لافساد المجتمع كله ، اذا بقيت الأم ـ حتى على جهلها ـ متدينة ومتمسكة بأخلاقيات الاسلام وتقاليده وبالاخص فى نواحى الجنس ، لأنها عندئذ ستلقن اطفالها مبادىء العقيدة ومبادىء الأخلاق فى صغرهم فيمسكهم ذلك عن الفساد الكامل ، ويردهم فى النهاية الى ما لقنوه وهم صغار . أما اذا افسدت الأم ذاتها فلن تلقن أبناءها شيئا من الدين ولا الاخلاق ، فيسهل عندئذ افساد الأجيال التالية وابعادها عن الاسلام .

ولما كانت المراة يومئذ جاهلة ومستقرة فى بيتها فلم يكن من السهل الوصول اليها لافسادها . ومن ثم لا نتعجب حين نرى مؤتمرات التبشير ـ التى تسعى لهدم الاسلام ـ تضع فى مقرراتها « ضرورة العمل على تحرير المرأة المسلمة وتعليمها » (١) .

وقد تولى قاسم أمين قضية « تحرير المرأة بعد أن أرسل فى بعثة الى فرنسا وهو شاب صغير السن وصاحبته هناك ـ كما كتب هو فى مذكراته ـ فتاة فرنسية أثرت ولا شك فى كل مفاهيمه الاسلامية عن التقاليد والأخلاق وعلاقات الجنسين (٢) ثم عاد الى مصر يبشر بتحرير المرأة وبالسفور وبأن تصنح المرأة المصرية مثل « أختها » الفرنسية لترتقى وتتقدم وتتحضر . .

---

(١) راجع كتاب القارة على العالم الاسلامى ترجمة محب الدين الخطيب .

(٢) راجع مذكرات قاسم أمين .

ثم قامت « هدى شعراوى » بالدعوة الى السفور . وتكونت مظاهرة نسائية فى ثورة ١٩١٩ فتجمعت المظاهرات فى ميدان الاسماعيلية (التحرير الآن ، وخلعن الحجاب وسكبن عليه البترول واشعلن فيه النار ، واعتبر ذلك بدء « تحـــرير » المراة المصرية اى خروجهـــا على طاعة ربهـــا ، واوامر دينها ، والسير فى المنزلق الذى رتبه لها أعداء الاسلام .

وفى اثناء ذلك أثيرت قضية تعليم المراة ، وبدات تتعلم اولا فى مدارس محافظة بالفعل ، لا يسمح فيها بأية مخالفة أخلاقية ، وذلك ليطمئن أولياء الأمور ليدفعوا ببناتهم الى المدارس دون خوف عليهن . ويكفى ـ فى هذه المرحلة ـ أن تتعود عيون الجماهير « المسلمة » على رؤية فتاة فى سن الزواج تخرج حاسرة الوجه والرأس حتى اذا تبلدت حواسهم على ذلك تبدأ المرحلة التالية وهى تقصير الملابس رويدا رويدا ، ثم قص الشعر وتقصيره ثم الدخول فى عالم « الموضات » الذى يؤدى فى النهاية الى الفتنة .

وفى أثناء السير فى قضية التعليم أثيرت قضاياه الجديدة : لماذا تتعلم الفتاة تعليما نسويا ؟ لمـــاذا لا تتعلم على نفس طريقة الفتى ؟ ثم .. لمـــاذا لا تدخل الجامعة مثلا ؟

وحين دخلت الجامعة بدات تثار مســـألة الاختلاط ، وبدأ المتبنون لقضية المراة من كتاب وصحفيين وغيرهم يركزون على ضرورة الاختلاط بين الطالبات والطلبة وان هذه هى « الروح الجامعية » التى ينبغى أن تتسم بها الجامعة والا فهى رجعية . ما تزال تعيش بعقلية ما قبل « التحرر » ، وهكذا وجدت بذرة الاختلاط التى سرت تدريجيا فى المجتمع كله حتى اصبحت هى الأصل واصبحت أوامر الاسلام من حجاب وعدم اختلاط هى الأمر المستنكر فى هذا المجتمع تتصايح ضده الصيحات للتغيير فيه والقضاء عليه .

وبدأ « ركن المراة » فى الصحافة ـ الى جانب صحافة المراة المتخصصة ـ يتحدث عن « كيف تكونين جذابة ، وكيف تبرزين مفاتن جسدك » .. الخ . وأصبحت الفتنة هى الشغل الشاغل للمرأة .. الا من عصم الله .

٣ ـ وبالنسبة للمفهوم السياسى حرص المستعمر الصليبى واعوانه على ابعاد السياسة عن الدين . وذلك لأنه حين تكون السياسة جزءا من الاسلام ـ كما هى حقيقة الواقع ـ يصبح المستعمر فى حس المسلم غازيا كافرا تنبغى مجاهدته حتى يجلو عن أرض الاسلام ، وتنبغى مقاومة شرائعه الوضعية واعادة شريعة الله الى الحكم بدلا منها . وفى هذا وذلك يكمن الخطر عـــلى

المستعمر . اما اذا انفصلت السياسة عن الدين فيمكن رويدا رويدا اعطاء الشرعية لهذا الاحتلال أو على الأقل تأخير الثورة عليه الى اقصى المدى .

فقام رجال من أعوان المستعمر من أمثال لطفى السيد يبشرون بهذا المفهوم الجديد وهو فصل الدين عن السياسة والقول بأن الدين علاقته بين العبد والرب ، ومحله القلب ، ولا صلة له بالحياة الواقعية ، التى تحكمها السياسة بعيدا عن الدين (بدعوى ان السياسة ملوثة ولا ينبغى لها أن تلوث الدين السامى الرفيع) (١) .

ولما ثارت ثورة الشعب المصرى فى النهاية على الاستعمار البريطانى سنة ١٩١٩ ، كانت ثورته دينية بحتة ، وكانت تنبع من الأزهر ، ويقوم الخطباء الأزهريون باذكاء حماسة الجماهير بتذكيرهم بالجهاد فى سبيل الله ، وبأن العدو الكافر لا يجوز له أن يبقى فى أرض الاسلام ولا بد من مجاهدته حتى يجلو . وكانت الجماهير تخرج بهذه الروح الدينية فتتعرض للموت برشاشات الجنود لا يمنعها ذلك من مواصلة السير فى مظاهراتها ، ومواصلة الجهاد ضد المستعمر .

ولكن « الزعيم الشعبى » الذى تولى زعامة الثورة ، وهو سعد زغلول ــ وهو من تلاميذ مدرسة لطفى السيد ــ حول هذه الثورة الدينية فى منبعها الى « ثورة وطنية » وأطلق ذلك الشعار المشهور «الدين لله والوطن للجميع» وطلب من اعوانه ، وكان محبوبا عند الجماهير الى درجة الهوس ــ أن يكفوا عن التحدث باسم الاسلام مراعاة لمشاعر الأقباط المشتركين فى الثورة، وهكذا تحولت المشاعر الدينية الى مشاعر وطنية لا علاقة لها بالاسلام ، وابعد الاسلام عن مجال السياسة واصبح الحديث عن كون السياسة جزءا من الدين حديثا مستنكرا لدى « المثقفين » ورجعية لا ينبغى الاستماع اليها ولا مهادنتها ، بل ينبغى القضاء عليها .

٤ ــ أما الفكر والثقافة والفن فقد مرت بسلسلة طويلة من الافساد وكان المستعمر تركيز شديد عليها ، باستخدام كل وسائل الاعلام المتاحة يومئذ ــ وما جد منها فى اثناء الطريق ــ لأنه يترتب على تشكيل الأفكار

---

(١) راجع مقالات لطفى السيد فى جريدة (الجريدة) .

والثقافة نتائج خطيرة جدا لم يغفل المستعمر خطرها ولم يتوان عن استخدامها فى تنفيذ اغراضه .

فالى جانب المدرسة الدنلوبية وتأثيرها فى تخريج اجيال لا تعرف حقيقة الاسلام ، بل لا تعرف عن الاسلام الا صورة مشوهة منفردة (يستعمل فيها واقع المسلمين السيء لاعطاء فكرة مشوهة عن الاسلام ذاته) .. الى جانب تلك المدرسة كانت هناك وسائل أخرى للافساد منها الصحافة للجماهير ، والكتب الثقافية للمثقفين ثم جاء دور السـينما ، ثم الاذاعة ، وأخيرا التليفزيون .

فأما الصحافة فلم تكن — بادىء ذى بدء — تهاجم الاسلام ، وما كانت تجرؤ يومئذ على مهاجمته . ولكنها وصلت الى هدفها بطريق ملتو طويل . فهى لا تهاجم الاسلام ولكنها فى الوقت ذاته لا تكاد تذكره الا فى المناسبات ، اما الحديث الدائم فهو عن أوربا وحضارتها وتقدمها وعلمها وفنها .. ومشكلاتها أيضا ، وعلى الرغم من أن هذه المشكلات كانت يومئذ خاصة بأوربا فقد راحت هذه الصحافة تؤكد اننا سائرون — لا محالة — على نفس الطريق الذى سارت فيه أوربا من قبل ، ومن ثم فستصيبنا ذات المشاكل ، ومن ثم أيضا فلا بد أن نأخذ حلول تلك المشاكل من أوربا .

وكان هذا الايحاء الخبيث يؤدى الى نتيجتين فى آن واحد : توجيه الأفكار كلها الى أوربا باعتبارها طريق المستقبل ، وفى هذا ابعاد لهذه الأفكار عن الاسلام ثم البحث عن حلول المشكلات هناك فى أوربا وعدم محاولة البحث عن حلول لها فى الاسلام ، وفى هذا ابعاد أشد عن طريق الاسلام .

ثم كذلك تعويد الناس رويدا رويدا على اتخاذ وجهة النظر الغربية سواء فى جعل الدين علاقة بين العبد والرب محله القلب ولا مجال لتدخله فى أمور الحياة الواقعة ، او فى التهوين من شأن التقاليد والاخلاق الخاصة بالجنس والنظر الى تدخل الدين فى شأنها على أنه رجعية بائدة لا ينبغى الاستمرار فيها انما ينبغى أن يؤخذ أمر التحلل الخلقى ببساطة ودون سعى الى وقفه والحيلولة دونه ..

وكذلك فى الالحاح على قضية المرأة « وتحريرها » وخروجها الى المجتمع ومخالطة الرجل بحجة مشاركته فى كل الامور .

وهكذا ظلت الصحافة تهيىء الأذهان على مدى خمسين عاما أو أكثر لليوم الذى يستخف فيه الناس بالاسلام وتقاليده واخلاقياته ، ويتقبلون الصور العارية والنكت العارية والدعوة المكشوفة الى الاباحية والتحلل ،

بل يصل الأمر اخيرا الى المهاجمة الصريحة للاسلام بصفته رجعية ينبغى القضاء عليها .

واذا كانت الصحافة قد جعلت لمخاطبة الجماهير فقد كان المثقفون على الطريقة الغربية يقومون بنفس الدور — وعلى ذات المراحل — بالنسبة للمثقفين من القراء فيلوون اعناقهم الى أوربا ، ويصدونهم عن الاسلام ، ثم ينفرونهم منه .. ثم يتجرأون فى النهاية على مهاجمته وتجريمه .

واما « الفن » فقد كان بابا واسعا من أبواب الفساد .

بدأ الأمر بالترجمة . والعجيب انه فى الوقت الذى كان ينبغى أن توجه فيه الترجمة كلها الى ترجمة العلوم النافعة ، والضرورية للمسلمين لينهضوا من تخلفهم العلمى ، فان الواقع أن قليلا جدا من جهد الترجمة وجه الى نقل العلوم النظرية أو العلمية ، أما الجهد الأكبر فقد وجه الى ترجمة القصص الغرامية والمسرحيات .

وحقيقة أنه ترجمت بعض روائع القصص والمسرحيات العالمية ، ولكنها قليلة بالنسبة الى الغثاء الذى كان يترجم ، والذى كان هدفه الأول عرض أشكال من الأخلاقيات والتقاليد تتصادم تصادما مباشرا مع أخلاقيات الاسلام وتقاليده فيما يتعلق بالعلاقات بين الرجل والمرأة ، والتركيز على « الغراميات » وتصويرها فى صورة مغرية تجعل الشباب الذى يقرؤها يتمنى أن لو كانت التقاليد فى بلاده تسمح بمثل هذه اللقاءات والمغازلات والمناجيات .. حتى اذا سنحت الفرصة — ذات يوم — لتحطيم التقاليد ، كان ذلك الشباب من المسارعين الى التحطيم ، وكذلك الفتاة ، فلما جاء دور التأليف بعد الترجمة ، سار التأليف على نفس النهج .. ثم ظل « يتطور » رويدا رويدا حتى صار همه السخرية بالاخلاق والتقاليد ، وتصوير الدين بأنه العائق الذى يعوق انطلاق البشرية .

واما السينما فقد كانت فى مبدأ أمرها أجنبية مستوردة .. ولكن كان هناك اصرار شديد على الانتاج المحلى الناطق بالعربية ، انه ولا شك أيسر الى الوصول الى قلوب المتفرجين وأقدر — ومن ثم على افسادهم . ولقى هذا الاتجاه تشجيعا شديدا حتى صار « الفيلم العربى » لا يقل سوءا عن الفيلم المستورد ، بل كثيرا ما يكون تافه القيمة من الناحية الفنية ، ولكنه يحرص على عنصر الاثارة العارية ليشارك فى أداء الدور المطلوب .

وجاء دور الاذاعة فى حينه .. فوضعت دائرة الافساد بالأغنية الخليعة واشاعة التفاهة فى نفس السامع وشغله عن جديات الأمور ، واستغراق وقته بعيدا عن محبة ربه وأوامر دينه ، وتحويل حياته كلها الى لهو تافه

مُبتذل لا يكون أمة سليمة ، ولا ينشىء ــ بالذات ــ أمة تجاهد فى سـبيل الله .

اما التليفزيون فقد كان خاتمة المطاف . .

* * *

بهذه الوسائل مجتمعة عمد أعداء الاسلام الى تفتيت قوى الأمة الاسلامية وتبديد طاقتها ، وابعادها ــ قبل كل شيء ــ عن مصدر قوتها الحقيقى وهو الاسلام ، حتى يعيش الاعداء فى مأمن من بعث اسلامى جديد .

ولكن هذا الكيد كله ــ وان كان قد أثر كثيرا فى اتجاه الامة ولا شك ــ لم يكن ليقضى على الاسلام كما يريد الأعداء . **« والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) »** . فقامت حركات للبعث الاسلامى فى مختلف بلاد الاسلام تجاهد لدفع هذا الكيد ، وبناء الأمة ــ من جديد ــ على أساس قويم من كتاب الله وسنة رسوله ، لتستعيد دورها التاريخى مرة أخرى ، وتحقق مرة أخرى أمر ربها اليها .

« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا (٢) » صدق الله العظيم .

« هو الذى أرسل رسـوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٣) » .

وان كان ذلك فى حاجة الى الجهاد المستمر حتى تنجلى الغاشية عن العالم الاسلامى ويعود الى حيث يريده الله .

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » (٤)

والله ولى التوفيق

---

(١) سورة يوسف الآية ٢١

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٣

(٣) سورة التوبة : الآية ٣٣

(٤) سورة الرعد الآية ١١

القســم الثانى

المجتمع الاسلامى المعاصر
وواقع انحرافاته
والمؤثرات التى أثرت فيه

كتب هذا القسم الأستاذ الشيخ محمد المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة المجتمع الاسلامى المعاصر

(١)

تتألف البشرية من مجتمعات والمجتمع هو مجموعة من الأفراد يربط بينها رابط مشترك يجعلها تعيش عيشة مشتركة وتنظم حياتها علاقات منتظمة معترف بها فيما بينهم . قد يكون هذا الرابط الأرض وما يقوم عليها من مصالح مشتركة كالمجتمع السويسرى (١) ، وقد يكون الجنس والأصل ومايتصل به من لغة وثقافة وتاريخ ومبادىء وهو المجتمع القومى (٢)، وقد يكون المبادىء السائدة والمعتقدات المشتركة وما يتولد عنها من أفكار وعواطف وسلوك وهو المجتمع العقائدى كالمجتمع الاسلامى .

وقد يتعدد انتماء الانسان الى أكثر من مجتمع كأن ينتمى الى المجتمع المصرى أو العراقى . والى المجتمع العربى والى المجتمع الاسلامى أو أن ينتمى الى المجتمع الكشميرى والى المجتمع الهندى والى المجتمع الاسلامى.

وهذه حقائق واقعية لا يمكن المماراة فيها ، وان كان الاختلاف بعد ذلك فى وضع هذه الانتماءات الواقعية فى موضع التعارض والتوافق ، وفى تقويم هذا الانتماء تقويما اعتقاديا أو مذهبيا . ذلك ان الناس يختلفون فى اعتبار الانتماء الأهم ، وفى تصنيف هذه الانتماءات المتعـددة ، بحسب قيمتها ومنزلتها لديهم ، وفى اقامة أحد هذه الانتماءات أو الروابط مهيمنا على الانتماءات والروابط الأخرى .

(٢)

ان الاسلام ــ باعتباره دينا وعقيدة وباعتباره ثقافة وحضارة ــ أحدث اثرا عميقا فى كثير من شعوب العالم ولا سيما الشعب العربى ، الذى حمل دعوته ، ونشر حضارته ، ونزل القرآن بلسانه . وبلغ هذا التأثير درجة من القوة والعمق والشمول جعلت هذه الشعوب التى دانت للاسلام منطبعة

---

(١) والكندى والبلجيكى .

(٢) كالمجتمع العربي والتركى والافغانى واليابانى والروسى .

بطابع اسلامى فى تركيبها الاجتماعى وفى تكوينها الفكرى وثقافتها وكثير من عاداتها ، حتى اضحت هذه الشعوب متسمة بطابع الاسلام فى مجتمعاتها ، على اختلاف أجناسها والسنتها . ولذلك فان تعبير (المجتمع الاسلامى) ينطبق اليوم على مجموعة بشرية كبيرة تسكن رقعة كبيرة من الأرض ، تتوزع على الخصوص فى ثلاث قارات من العـــالم ، وتتصل فيما بينها وتتجاور ، وتتشابه فى أحوالها الاجتماعية ومراحل تطورها ، وينظم شعوبها شعور مشترك بهذه الرابطة . لأن عوامل تغذية هذا الشعور واستمراره لا تزال قائمة ومستمرة وفعالة بالرغم من العوامل المعاكسة التى تعمل لاضعافه وتفتيته .

(٣)

لقد كان تطور دراسة المجتمع الذى ينتمى اليه كل من بلدان آسـيا وافريقيا الاسلامية ومنها البلاد العربية سائرا فى عصرنا الحديث هذا على خط المراحل التالية :

١ ـ دراسة المجتمع المحلى أو الوطنى :

ولنضرب لذلك مثلا مصر وسورية والعراق بعد الانفصال عن الدولة العثمانية ولا سيما فى عهود الانتداب أو السيطرة الأجنبية .

فقد كانت دراسة المجتمع ـ فى المدارس الحكومية لا فى مشاعر جمهور الشعب واحاديثه ـ دائرة حول الوطن أو المجتمع المصرى فى مصر والمجتمع السورى فى سورية والمجتمع العراقى فى العراق .

وكانت العناية منصرفة لدراســـة جغرافيـــة مصر وسورية والعراق ولا سيما القديم (١) وتاريخ كل منها مفصلا ، ودراسة النظام السياسى القائم فيها ، وترتيل الأناشيد التى محـورها الوطن المصرى والوطن السـورى والوطن العراقى والتى تستقطب عواطف الجيل كل حول وطنه الخاص فمصر (أم البلاد) وسورية (عنوان الفخامة) وهكذا الأوطان الأخرى كل منها مركز العناية والاهتمام بالنسبة لأهله وموضوع الدفاع والحماية . وأما سائر البلاد العربية فتأتى فى الدرجة الثانية من الاهتمام . وأما البلاد

---

(١) ان تسليط الاضواء على التاريخ القديم أى ما قبل الاسلام وتضخيمه والتوسع فيه والاشادة به انما يقصد بها هدفان : التهوين من شأن الاسلام والحضارة الاسلامية وجعلها حلقة من حلقات كثيرة غيرها . وتوليد اعتزاز بعصور ما قبل الاسلام اى توليد شعور قومى محلى مصرى أو سورى او عراقى .

الاسلامية عموما أو العالم أو المجتمع الاسلامى فليس له ذكر اطلاقا فى أكثر البلدان . وقس على هذه الأمثلة بقية البلدان أو المجتمعات الاسلامية ، ولا سيما ما كان منها استقلاله مشروطا بتحقيق هذا الانفصال كتركيا الكمالية .

وهذا لا يمنع وجود تيار ، فى هذه الشعوب نفسها ، يعاكس هذا الفصل ويحيا فى جو فكرة الاتصال بالمجتمع الأكبر من المجتمع الصغير أى بالمجتمع العربى ، ثم بالمجتمع الاسلامى من ورائه ، سواء أكان هذا التيار استمرارا للشعور الحى الموروث عند جمهرة الناس ، أم كان مصوغا صياغة علمية فى أجواء المثقفين غير الحكومية فى المجلات والمؤلفات والحلقات والندوات والجمعيات والنوادى .

٢ ـ **دراسة المجتمع القومى** كالمجتمع العربى والتركى وأمثالهما . وهذه المرحلة تتطابق مع المرحلة الأولى وتكون معها مرحلة واحدة بالنسبة للبلاد التى لم يحدث فيها تجزئة وتقسيم كتركيا وأما البلاد العربية فقد كانت مجزأة منذ زمن طويل واستمر ذلك فى عهد الاستعمار طبعا فمرت فى المرحلتين كل على حدة .

ان من فطرة البشر وواقع أحوالهم أن يعرف الانسان عن بلده وقومه أكثر مما يعرف عن غيرهم وليس ذلك بغريب ولا مستنكر ولكن الذى حدث فى هذا العصر الحديث جعل العناية مقصورة على المجتمع القومى والوطن القومى فقد انتقل السورى مثلا من نشيد (انت سوريا بلادى) الى نشيد (بلاد العرب أوطانى) واستمر المصرى ينشد (مصريا أم البلاد) واضاف اليها (أناشيد عربية) وأصبح (المجتمع العربى) موضوع دراسة فى أكثر الجامعات العربية كما أصبحت (التربية القومية) مادة دراسية فى كثير من البلاد العربية وتجد مثل هذا الانتقال حدث فى دساتير البلاد العربية فقد كانت تعبر فى بداية الاستقلال وفى عهود الانتداب أو النفوذ الأجنبى عن المرحلة الأولى فى عناوينها وموادها الأولى ثم أدخلت من سنوات قريبة فى أسمائها كلمة « العربية » وادخل فى مواد دساتيرها أنها جزء من الأمة العربية .

لا يستنكر أو يستغرب أن يعرف الانسان بلد قومه ومجتمعهم ويتقن لغته وآدابها . ولكن المستنكر أن يقتصر فى عنايته واهتمامه على مجتمعه القومى دون أن يعنى بدراسة المجتمعات التى تتصل به فى تاريخها أو ثقافتها أو حضارتها أو عقيدتها ومذهبها وفلسفتها فكيف اذا كانت تتصل به فى

جميع هذه المجالات وتشترك معه فى كثير من جوانب الحياة الماضيــة والحاضرة ؟!

ان مرحلة القوميات المنعزلة قد انقضت ، والوقوف عندها عرقلة لتطور الانسانية نحو الالتقاء ، وتفكير متأخر متقهقر ، ورجعة الى طور الصراع بين القوميات . وهى مرحلة يجب أن تتجاوزها الانسانية .

وهذا الاتجاه بالنسبة الى العرب على الخصوص والى سائر الشعوب الاسلامية اتجاه توجهه ـ من حيث يشعر أصحابه ومن حيث لا يشعرون ـ القوى العالمية التى يغيظها اتصال الشعب العربى بالشعوب الملتقيــة معه على صعيد الحضارة الاسلامية والثقافة الاسلامية والتاريخ الاسلامى وعلى فلسفة الاسلام وعقيدته وتشريعه ونظمه وعلى لغة مشتركة هى العربية لغة القرآن .

ان الاستعمارين الأميركى والروسى كليهمــا ، وكذلك الدول الغربيــة فى جملتها ، يستفزها ويثير مخاوفها التحام هــذه الشعوب التىالتقت على صعيد الاسلام خلال تاريخ طويل . وحينما نقول التقت على صعيد الاسلام لا نعنى انها تلتقى فى أداء الصلوات فى المساجد فحسب ، وتجتمع فى مواسم الحج لأداء مناسكه ، وتعتقد بعض المعتقدات الخاصة ،.بل نعنى أنها التقت فى الماضى على دين وثقافة وحضارة ونظم وعادات ولغة جعلتها اللغةالمشتركة هى لغة القرآن ، وأنها يمكن أن تستعيد بناء كيانها على هذه الأسس من جديد فى ظروف الحياة الحديثة .

وان احتجــاج القائلين بانحــراف بعض حكومات البــلاد الاســلامية فى سياستها الخارجية ـ سواء اكان هذا الانحراف خطأ أو انحيازا أو خيانة وتآمرا ـ وانتقالهم من هذا المنطلق الى قطع العلاقة مع شعب تلك البلاد ، بل الى معاداته ، احتجاج غريب وغير منطقى . لأننا اذا سرنا على هــذا المنطق وجب أن نعادى شعب أى قطر عربى تشذ حكومته أو تنحرف ، وكم مر من حكومات فى أقطار عربية سارت فى طريق الانحراف أو التعاون مع الأجنبى ، أفيجب حينئذ ان نخرج شعب ذلك القطر العربى من دائرة العروبة ، وأن تقطع الأقطــار الأخرى صلتها بهــذا الشعب ، وأن تقول انه ليس منا وليس من أمتنا . هذا منطق واضح الخطأ لا يقول به من عنده أدنى مسكة من تبصر .

ان مقاييس الحكم على الشعوب واتخاذ مواقف وصلات تجاهها غير مقاييس الحكم على الحكومات العابرة التى تحكم ذلك الشعب . فكم حكم

شعب سنين طويلة بحكومات لا يرضى عنها ولو خير لما اختارها ولو أتيحت له الفرصة لأزالها .

ان وجود عالم اسلامى يتألف من شعوب أو (قوميات) كثيرة متعددة تشغل رقعة واسعة من العالم كله مع أقليات مسلمة فى شعوب أخرى أيضا، تربط بينها روابط لا تقتصر على الدين بمعنى العبادات بل روابط من التاريخ والثقافة والفكر أو المبادىء الفكرية المنبثقة عن الاسلام حقيقة قائمة لا سبيل الى انكارها سواء بالنسبة لمن يؤيدها ويريد استمرارها وتنميتها أم بالنسبة لمن لا يريدها ويعاديها ويريد تفتيتها وتشتيتها أو يسعى لازالتها .

وبناء على اعتبار (المجتمع الاسلامى) و (العالم الاسلامى) حقيقة وواقعا فانه موضوع للدراسة بالنسبة للباحثين على اختلاف نزعاتهم ومذاهبهم وعلى اختلاف دوافعهم واهدافهم .

يعنى المستشرقون من مختلف الأمم بدراسة هذا الموضوع ليقدموا لجامعاتهم ولأمتهم معلومات دقيقة وواسعة تستفيد منها كل أمة بحسب غاياتها السياسية وأهدافها . تعنى أمريكا وجامعاتها بمثل هذه الدراسات لتكون أقدر على تنفيذ خططها وبسط نفوذها ، وتعنى كذلك روسيا فى جامعاتها ودوائرها السياسية والحزبية لتكون أقدر على تحويل المجتمع الاسلامى الى مجتمع اشتراكى يصبح بطبيعة الحال تابعا لها ودائرا فى فلكها ويصبح أبناؤه أتباعا لها ودعاة لمذهبها .

أما أصحاب هذا المجتمع من مختلف الشعوب فهم مع الأسف أقل الناس عناية ببحثه وأقلهم معرفة به ، مع أنهم أحوج الناس الى ذلك بل ان ذلك بالنسبة اليهم قضية حياة ومصير . وأغرب من هذا أن العرب ، وهم نواة العالم الاسلامى ، ونقطة دائرته ، ودعاة مذهبه الأوائل ، ربما كانوا أقل عناية به من سواهم . مع أن فى الاعراض عن دراسة العالم الاسلامى والمجتمع الاسلامى من قبلهم تقصيرا وتفريطا بحضارتهم وثقافتهم ولغتهم ، فضلا عن دينهم ، وبكيانهم ومستقبلهم ، وفى الدعوة الى هذا الاعراض خيانة سافرة لقضيتهم أيا كان الذى يقوم بها .

اهداف دراسة المجتمع الاسلامى المعاصر :

اذا كان لكل فئة من الباحثين فى المجتمع الاسلامى هدف معين من دراسته فان الأهداف التى يحققها المنتمون الى هذا المجتمع من هذه الدراسة هى :

(أ) تغيير هذا المجتمع وتطويره نحو الأفضل والأصلح ، عن طريق معرفته معرفة علمية صحيحة ومعرفة عوامل تغييره . ذلك ان هذا المجتمع أصابته خلال قرون طويلة آفات وأمراض وشابته شوائب شوهت بعض معالمه وأفكاره وحصلت فيه انحرافات فى خلال مسيرته المنطلقة من مبادىء الاسلام المثلى .

(ب) تحرير هذا المجتمع مما هو واقع فيه من بسط النفوذ الأجنبى وتسلطه ومن جذبه كليا أو جذب فريق من أبنائه للدوران فى فلك غيره . وتحريره فكريا واجتماعيا اصعب من تحريره عسكريا ، اذ بالتبعية الفكرية العقائدية لأى مذهب عقائدى من المذاهب التى أخرجتها حضارة العصر الحديث ، ولأى معسكر من المعسكرات السياسية أو الدول الأجنبية ، أكبر عائق يحول دون التحرر والاستقلال الحقيقى ، ويحول دون قيام كيان ذاتى لكل شعب من الشعوب الاسلامية ، وفى مقدمتها الشعب العربى ، كما يحول دون أخذ المبادرة المستقلة للاسهام فى الحضارة الانسانية ، والاضطلاع بعبء دور حضارى نافع ، نابع من كيانها ومبادئها الانسانية المنبثقة من الاسلام .

(جـ) فسح المجال ــ عن طريق هذه المعرفة ــ للالتقاء الانسانى على أكثر من صعيد واحد ، بين شعوب العالم الاسلامى ، التى تربطها روابط تاريخ وثقافة وحضارة وروح انسانية .

ولمقاومة الاستعمار ، لا عن طريق الالتجاء الى استعمار آخر ، الذى هو أشبه بالاحتماء بقاطع طريق من قاطع طريق آخر لأنه يأخذ اتاوة أقل أو يظهر ابتسامة وودا كاذبا . ان دراسة أبناء كل قومية ، من القوميات التى تؤلف العالم الاسلامى ، للمجتمع الاسلامى العام وللعالم الاسلامى تشعرهم بروابط المودة والأخوة الانسانية الملتقية على طريق الحق والخير والتحرر من كل عبودية لغير الله ، من غير أن يكون فى ذلك افتئات قومية من هذه القوميات على أخرى . وتؤدى هذه الدراسة والمعرفة للمجتمع الاسلامى العام الى أن يكون الالتقاء عن طريق الفكر والثقافة وبوساطة الجيل المثقف والشعب بوجه عام ولا يقتصر على الالتقاء بوساطة رجال محدودى العدد من طريق المؤتمرات السياسية .

(د) توسيع ميدان بحث الظواهر الاجتماعية الماثلة فى مجتمعات الشعوب الاسلامية . ذلك أن علم الاجتماع يلجأ ــ فى مقابل الطريقة التجريبية

فى العلوم ـ الى نماذج متعددة وأمثلة مختلفة فى أحوال متشـــابهة للظاهرة الواحدة .

وعلى هذا فان مجتمع كل شعب أو قوم من الأقوام التى تؤلف العالم الاسلامى محتاج لمعرفة نفسه معرفة علميـــة ، الى دراسة الظواهر نفســها فى مجتمع مشابه ليستخرج الأسباب والعلل والقانون الذى به تفسر تلك الظاهرة .

فالطلاق أو الميراث أو الملكية الاقتصادية أو ازمة الحكم أو التخلف الاقتصادى أو انتشار العصبيات المحلية كل ذلك ظواهر تتشابه تشابها كبيرا فى المجتمعات الاسلامية فى العصور الأخيرة ، فدراستها فى شعوب متعددة يهىء فرصة أكبر لكشف عوامل التطور وقانون الظاهرة .

حاضر العـالم الاسلامى :

تحت هذا العنوان كتبت مؤلفات (١) وظهرت مجلات (٢) ووضعت مادة دراسية فى مناهج بعض الجامعات العربية .

ان مباحث هذه المادة **تختلف بعض الاختلاف عن مبـــاحث المجتمع الاسلامى المعاصر مع أن الموضوع الذى يبحث واحد** ولكن من وجوه مختلفة. فحاضر العالم الاسلامى ينظر الى التقسيمات السياسية الحالية ويدرس كل دولة من الدول الاسلامية من حيث أحوالها المختلفة ومشكلاتها وسكانها وثقافتها وغير ذلك مما يعطى صورة واضحة عنها كأندونيسيا والباكستان وايران وافغانستان فى آسيا والسنيغال ومالى والنيجر فى أفريقيا وألبانيـا فى أوربا وغيرها .

وكذلك الأقليات الاسلامية كالمسلمين فى الهند وسيلان وبورما والصين ويوغوسلافيا وقبرص واليونان ، وتدرس حالة المسلمين فى البلاد المحتلة كمسلمى تركستان وقفقاسيا وأذربيجان الواقعة تحت الاحتلال الروسى وكالمسلمين فى الحبشة وأرتيريا والأقسام المحتلة من الصومال .

---

(١) أشهرها وأعظمها حتى الان على قدم عهد تأليفه « حاضر العالم الاسلامى الذى ألفه لوثرب ستو دارد وترجمه عجاج نويهض وعلق عليه الامير شكيب ارسلان واشتهر باسمه الان تعليقاته فاقت الاصل حجما و قيمة وهو موسوعة تاريخية للعالم الاسلامى ط : دار الفكر ١٩٧١ .

(٢) كالمجلة التى كان يصدرها المستشرق لويس ماسنيون باسم «حولية العالم الاسلامى» annaire de monde Musulman التى يجد الباحث فيها معلومات قيمة وان كانت وضعت لخدمة وزارة الخارجية وفرنسا فيما وراء البحار .

وتدرس بعض قضايا مشتركة كانتشار الاسلام فى العالم والاستعمار وتاريخه فيها وقضايا العالم الاسلامى كقضية فلسطين وكشمير واريتريا والصومال .

أما مادة (المجتمع الاسلامى المعاصر) فهى دراسة شاملة للمجتمع الاسلامى بوجه عام دون تخصيص دراسة لقضاياه العامة وللظواهر الاجتماعية المشتركة ، فى صورتها الواقعية وتحليلها ، ثم نقدها من زاوية النظرة الاسلامية . **وقد تلتقى المادتان فى بعض القضايا كموضوع الاستعمار والتبشير والغزو العقائدى الفكرى** ومع ذلك فيمكن أن تعالج فى كل منهما من زاوية . فالمجتمع الاسلامى يدرس الاستعمار كظاهرة عامة جاءت نتيجة الضعف والتخلف ، ويدرس حاضر العالم الاسلامى من حيث تاريخه وتطوره وتوزع دوله فى العالم الاسلامى وما تركه من آثار سياسية بوجه خاص .

الوعى الاجتماعى

ان شعور الجماعة بكيانها أو وعيها الذاتى سمة من سمات المجتمعات الحية المتحضرة . فكل فرد فى مثل هذه الجماعة يشعر شعورا قويا بالانتماء الى كيان بشرى معين يرتبط مصيره بمصيره ، ويشعر بالانتماء الى ثقافته، والى جملة المبادىء والعادات السائدة فيه ، حتى تؤلف مجموع هذه المشاعر الفردية رأيا عاما وشعورا مشتركا وتماسكا وتكافلا فى السراء والضراء ووحدة فى الكيان .

وانا نجد أصل هذا الشعور فى صورة غريزة عند الحيوان تجعله يحس من غير تفكير ، بالانتماء الى القطيع الذى هو منه ، والى الجنس أو الفصيلة التى هو منها ، فيدفعه هذا الشعور الى السير بسير القطيع ، يعدو اذا عدا ويقف اذا وقف ، ويقاتل خصمه من الأجناس الأخرى اذا قاتل .

ويكاد يكون الانسان البدائى أشبه بالحيوان فى شعوره هذا ، ففيه كثير من الغريزة وقليل من الادراك والمعرفة .

أما عند الانسان الراقى فينقلب هذا الشعور الى وعى تغذيه المعرفة والثقافة ، حتى ينتقل من حيز الغريزة الى حيز التفكير المختار ، ولو كان هذا الاختيار تؤثر فيه ظروف وعوامل خارجة عن الفرد .

ان هذا الوعى الذاتى يضيق اطاره ويتسع ، فيكون قبليا فى أولى مراحله ثم يكون قوميا اذا شمل قومية كاملة ، ثم يكون عقائديا قد يشمل عدة

قوميات تربطها روابط بعقيدة شاملة واحـــدة كالمجتمع الديمقراطى أو الاشتراكى أو كالمجتمع الاسلامى .

إن ضعف الوعى الذاتى سمة من سمات المجتمعات البدائية التى يكون الوعى فيها لا يزال فى صورة شعور غريزى ، وهو كذلك سمة من سمات المجتمعات التى انحسرت عنها الحضارة وتخلفت وانحلت روابطها وانتكست من الوحدة الكبيرة الشاملة الى التجزؤ والانقسام الداخلى فكريا واجتماعيا وسياسيا .

وحين تتصل هذه المجتمعات المتخلفة بالمجتمعـات الراقيـة المتحضرة المعاصرة لها ، سواء أكان اتصال استعمار وغلبة أم اتصال احتكاك وتجاور ، عن طريق التجارة أو الثقافة ، ينشأ فيها غالبـا شعور بالاعجاب بالغير وشعور باحتقار الذات وهو ما جعله ابن خلدون سنة من سنن الله فى المجتمعات ، وهو تقليد المغلوب للغالب فى عاداته وأحواله .

تجد مثل هذه المجتمعات المتخلفة متطلعة الى ثقافة القوى المتحضر على انها الثقافة المفضلة المثلى ، والى عاداته على انها أفضل العادات ، وتجدها تنظر باعجاب الى أبطال ذلك المجتمع القوى المتحضر حتى ولو كانوا من قادة الاستيلاء الاستعمارى الذين فتحوا بلادها أو من العاملين لتهديمها .

ان الوعى الذاتى يسـير فى خط معاكس للشعور بالتبعيـة وقوة احدهما ضعف للاخر . فالوعى الذاتى شعور طبيعى وفطرة أصيلة والشعور بالتبعية حالة مرضية وانتكاس .. الوعى الذاتى يقوى بقوة الجماعة المعنوية والمادية وقوة ارتباط أفرادها بمبادىء مشتركة وشدة اعتزازهم بها ، ويضعف اذا ضعفت معنويا وماديا وضعف تماسكها وارتباطها والتفافها حول مبادىء مشتركة .

واننا نلاحظ بألم يحز فى نفوسنا ، ان هذه الظاهرة أعنى ضعف الوعى الذاتى وقوة الشعور بالتبعيـة هو حاليـا من سمات المجتمعات الاسلامية . ولنا عودة الى هذه الظاهرة وبيان أسبابها وطرق معالجتها .

فى المجتمعات الراقية المعاصرة نلاحظ قوة الوعى الذاتى ، وهذا الوعى تغذيه وتقويه عوامل من أهمها : معرفة الفرد النيرة بالمجتمع الذى ينتمى اليه وبالمبادىء السـائدة فيه وتتكون هذه المعرفة بوسـائل متعددة أهمهـا تدريس هذا المجتمع الذى يعيش وينتمى اليه ، وتدريس المبادىء التى تسوده ويشترك أفراده فى الأخذ بها .

اننا فى مجتمعنا الاسلامى الكبير سواء فى المجتمع العربى أو فى المجتمعات الاسلامية الأخرى فى مرحلة خطيرة نحتاج فيها الى التحرر من الشعور بالتبعية بعد التحرر من الاستعمار العسكرى ، والى تكوين وعى ذاتى مبنى على المعرفة ، ومن أجل اجتياز هذه المرحلة والسير فيها نحو تحقيق أهدافنا فى تكوين مجتمع قوى متقدم متحضر قائم على مبادىء الاسلام المشتركة وتعاليمه يجب أن ندرس المجتمع الاسلامى .

يجب أن ندرس هذا المجتمع الاسلامى فى اطاره البشرى والجغرافى وفى خصائصه الفكرية والمبدئية والعقائدية .

ندرسه فى صورته الواقعية كما هو بمحاسنه ومساوئه لنستطيع معالجة آفاته وأمراضه وتوجيهه نحو الصورة المثالية التى نتطلع اليها والتى يجب أن تكون معرفتنا لها سابقة .

لا بد لهذه الدراسة من مقدمة تتضمن أفكارا عامة وتضعنا فى مكاننا من البشرية كما انه لا بد من معرفة مبادىء علم الاجتماع لنتمكن من معرفة عوامل التأثير والتغيير فى المجتمع ومعرفة الظواهر الاجتماعية وسننها أو قوانين نشوئها وتطورها، بالاضافة الى مبحث اجتماعى هام يتصل بموضوعنا وهو بحث الأمة وتعريفها والعوامل المؤثرة فى تكوينها ومراحل تطورها .

انواع المجتمعات فى العصر الحديث

١ ــ اذا وضعنا أمام أبصارنا خريطة العالم البشرى مقسمة الى مجتمعات أو وحدات اجتماعية متميزة بدا لنا بادىء ذى بدء انقسام العالم الى شعوب أو أقوام أو مجتمعات قومية فهنالك مجتمع هندى وصينى وعربى وايرانى وفرنسى وروسى وانكليزى و ... .

٢ ــ كما يبدو لنا كذلك تقسيم آخر بحسب الوحدات السياسية أو الدول وهو يطابق التقسيم السابق تارة ويختلف عنه تارة أخرى فالمانيا شعب أو قومية واحدة ولكنها دولتان والعرب قومية ولكنهم دول متعددة وفرنسا دولة وقومية كذلك أفغانستان وتركيا .

٣ ــ ولكن خريطة العالم الحديث أصبحت مقسمة تقسيما آخر غدا أعظم شأنا وأهم من التقسيم الأول لما له من نتائج فى الأحداث العالمية بل فى مجرى الحضارة وذلك هو تقسيم العالم على الأساس العقائدى أو المذهبى .

فالمجتمع البشرى ينقسم اليوم الى مجتمعات عقـــائدية كالمجتمع الاشتراكى والمجتمع الديمقراطى والمجتمع الاسلامى وقد يطلق عليها أحيانا لفظ « معسكرات » اشارة الى ما بينها من صراع ولفظ « كتل » . . ليست هذه المجتمعات معســكرات سياسية فحسب ، وانما هى ذات روابط مشتركة فكل منها تربطه مبادىء وأفكار متشابهة كذلك ؛ كالتنظيم السياسى والاقتصادى ، وثقافة فكرية متشـــابهة كذلك . فالشـعوب أو الدول الديمقراطية تتشابه فى موقفها من الانسان كما تشترك وتتشـابه فى تنظيمها السياسى القائم على حرية الفكرة السياسية وتعدد الأحزاب وتنافسها وعلى قاعدة الانتخابات العامة والنظام النيـابى ، وكذلك فى تنظيمها الاقتصادى القائم على الاقتصاد الحر الموجه أو المقيد ، وهكذا فى ســائر تنظيماتها وتشريعاتها . وكذلك المجتمع الاشتراكى الماركسى ، فهو على اختلاف شعوبه ودوله يشترك فى المعتقدات الفكرية والمبادىء ، وفى التشريعات الاجتماعية والتنظيمات الاقتصادية المتفرعة من مبدأ المادية التاريخية ، وفى التنظيم السياسى القائم على فكرة الطبقة لا على الانسان الفرد ، وعلى منع حرية العقيدة السياسية ، وعلى الحزب الواحد وتنظيماته ، وعلى ملكية الدولة وسيطرتها المطلقة فى المجال الاقتصادى .

ان كل مجتمع من هذه المجتمعات العقائدية يتشـابه ويتجانس فى جميع المجالات حتى فى الفن وفى اللعب ، ولكل منها فلسفته فى هذه الميادين .

رجحان الروابط العقائدية المذهبية :

لقد برز عنصر العقيدة فى العصر الحاضر بروزا قويا وغدت رابطة العقيدة هى الغالبة الراجحة ، حتى ان كثيرا من القوميات انقسمت بحسب اختلاف مذهبها العقائدى . فالمانيا انقسمت الى اشتراكية وديمقراطية ، وكذلك كوريا وفيتنام ، وانقسمت القارة الهندية الى الهند وباكستان .

وهكذا يلاحظ أن المنتمين الى قومية واحدة انقسموا الى معسكرين متصارعين ، ينضم كل فريق منهم الى المشترك معه فى المذهب العقائدى وان اختلف فى القومية ، ويتحالف معه سياسيا ، ويتعـاون معه اقتصاديا ، ويتفق معه ، أو يتشابه فى التشريع والتنظيم السياسى والاقتصادى ، وفى نوعية الثقـافة بل فى الأدب والفن . فهنالك ادب ديمقراطى وفن اشتراكى ، وان اختلفت اللغات وطرائق التعبير الفنى . ليس معنى هذا بالطبع انعدام الطابع القومى والروابط القومية ، ولكنهـا تأتى فى الدرجـة الثانية بالنسبة للرابطة العقائدية التى أصبحت طاغية على نفسية الشعوب والجماهير وعلى تفكير القيادات . وهكذا نرى أن القومية الواحدة تتجزأ وتنفصل وتتصارع بسبب الاشتراك العقائدى . حتى لقد أصبح الأفراد المؤمنون بمذهب

عقائدى يوالون ويناصرون الدولة التى تدين بمذهبهم ، ولو كانت عدوة لقوميتهم ، بل يتمنون انتصارها ولو على حساب هزيمة الأمة التى ينتسبون اليها ، ويعتبرون امدادها بالمعلومات والأخبار واجبا تفرضه العقيدة وخدمة الحق الذى يؤمنون به .

« المجتمع الاسلامى المعاصر » :

ان الشعوب التى تدين جماهيرها بالاسلام موزعة فى العالم فى عدد من القارات ، ويؤلف كل منها فى العصر الحاضر مجتمعا خاصا له كيانه السياسى وخصائصه وسماته الاجتماعية . ففى أقصى الشرق اندونيسيا وسكانها نحو ١١٥ مليونا أكثرهم من المسلمين . ويليها الملايو ثم الهند ، وفيها أقلية كبيرة تبلغ ٥٠ مليونا ، والباكستان وسكانها نحو ١٠٠ مليون فيهم أقلية ضئيلة من غير المسلمين ، والأفغانستان وكلها مسلمون وسكانها نحو ١٤ مليونا وايران وسكانها يزيدون على ١٢ مليونا وتركيا ، ثم البلاد العربية الموجودة فى آسيا وهى العراق وسوريا والأردن وفلسطين المحتلة ولبنان والجزيرة العربية بدولها المتعددة ويبلغ سكانها ٣٠ مليونا أكثريتهم المطلقة من المسلمين . وهناك أقطار اسلامية كاملة واقعة تحت الاحتلال الروسى كبلاد تركستان التى دخلت الاسلام منذ القرن الأول للهجرة . وكبلاد قفقاسيا ـ ويسكنها الجركس ـ فى هذه البلاد التى احتلها الروس وحملوا أهلها على الشيوعية عشرات الملايين من المسلمين . وفى آسيا بلاد فيها أقليات مسلمة كالفيلبين وسيلان وبورما وتايلاند والصين . وفى القارة الافريقية بلاد عربية هى مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وشنقيط أو موريتانيا ، التى هى فى الأصل جزء من المغرب ، وسكان هذه البلاد العربية الافريقية مسلمون ويزيد عددهم على ٧٠ مليونا وفى أفريقيا شعوب مسلمة أخرى كالصومال وأريتريا وتشاد والنيجر والسنغال ومالى ونيجيريا وغيرها وفى سائر الشعوب الافريقية أقليات مسلمة موزعة فى القارة .

وفى أوربا مسلمون فى البانيا التى حكمتها الشيوعية وكلهم فى الأصل مسلمون ، وفى يوغوسلافيا أقلية تبلغ ٣ ملايين ، وفى اليونان وقبرص وبلغاريا أقليات اسلامية .

وفى أمريكا دخل الاسلام فى هذا العصر عن طريق المهاجرين من المسلمين ، والذين دخلوا الاسلام من أهلها من السود ، ولكن لبعضهم انحرافات خطيرة عن الاسلام يرجى أن يقيض الله من يعيدها الى الطريق السوى .

ان هــذه الشعوب الكثيرة الموزعة تدين بالاسلام وتأثرت به بنسب متفاوتة فى حياتها الفكرية والعملية ، ونعنى هنا بالاسلام ما تفهمه هــذه الشعوب بالاسلام وما تطبقه منه ولو كان فى هذا الفهم أو التطبيق نقص أو انحراف أو تشويه مما سنبينه فيما بعد .

فهناك مجتمع اندونيسى ومجتمع باكستانى وأفغانى وايرانى وصومالى وعربى وكلها توصف بكونها اسلامية أو مسلمة ، هذا المعنى الذى بيناه . وما نريد دراسته هنا هو السمات المشتركة للمجتمع الاسلامى بوجه عام ، بصرف النظر عن اختلاف القوميات والشعوب . فان بين الشعوب التى تنتسب الى الاسلام فى العصر الحاضر ، على ما بينها من اختلاف ، روابط مشتركة ومشاركات ناشئة عن عوامل ومؤثرات مماثلة أو متشابهة .

الروابط والعوامل المشتركة

١ ــ وحدة العقيدة والمبادىء :

ان جميع الشعوب الاسلامية تشترك فى تصور واحد للوجود والكون، فقد ثبت فى عقولها ونفوسها ان لهذا الكون الرحب العظيم خالقا واحدا حكيما قديرا ، وان الانسان أحد مخلوقات الله وأكرمها ، وان هذا الانسان مخلوق الله وعبد الله ، وهو فى الوقت نفسه ذو سلطان على هذا الكون الذى سخره الله له ، وذلك كما ينص القرآن الكريم ، وان للانسان حياتين : الأولى للعمل وتحمل أعباء الأمانة ، والثانية للجزاء وتحمل نتائج المسؤولية، وانه يصــل الى الحقائق الحسية بما وهبــه الله من هبات البصر والسمع والحواس والعقل ، والى الحقائق غير المادية بهــداية الرسل ، وخاتم هؤلاء الرسل هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ورسالته خاتمةالرسالات وأعمها وأبقاها ، وقد أنزل الله عليه كتابا خالدا محفوظا ، تضمن هــذه الرسالة وهو القرآن الكريم ، وهو عليه الصلاة والسلام المكلف بتبليغه وتبيينه للناس وتفصيله فيما اصطلح على تسميته (السنة) .

هذه العقيدة ، التى توجز فى عبارة جامعة هى : (لا اله الا الله محمد رسول الله) ، عميقة الأثر فى نفوس المؤمنين بها . ويتفرع عن هذه العقيدة مبادىء ومفاهيم وأفكار وعواطف وتتولد عنها نتائج هامة كان ولا يزال لهــا أثر فى مجرى تاريخ هذه الشعوب وفى حياتها .

تتجلى هذه العقيدة وتلك المبادىء فى ابسط مظاهر الحياة الاجتماعية، فى الســلام والتحية ، وفى مناسبات الحيـــاة من ولادة وموت ، وانتصار

وهزيمة ، وتتجلى فى الوان من الشعور أصبحت فى حياة المسلمين أشبه بالفرائز ، كالشعور بالمساواة بين العروق والألوان ، وفقدان التمييز العنصرى فى ضمير هذه الشعوب ، مما لا نجد له نظيرا فى الشعوب التى تعد اليوم أرقى الشعوب . ان تعبيرات بنى آدم وآدمى وانسان وناس أصبحت تعبيرات أساسية ورائجة عند المسلمين جميعا وهى تصور هذا الشعور بوحدة الانسانية .

وعلى هذا نستطيع ان نقول موجزين ان للمسلمين جميعا مفاهيم متماثلة أو متشابهة فى الحياة تجعل لهم فلسفة أو قاعدة فكرية واحدة لحياتهم وان تفاوتوا فى مستوى فهمها ولكن الحد الأدنى مشترك بينهم جميعا مع اختلاف المستويات والشعوب .

٢ ــ وحدة القيم الخلقية أو الاشتراك فى تقدير الخير والشر والفضيلة والرذيلة :

يتميز المجتمع الاسلامى على اختلاف الأقطار والشعوب بالتوافق المبدئى فى تقويم الأعمال من الوجهه الأخلاقية وتحديد الخير والشر والفضائل والرذائل اذا استثنينا ما حدث من تأثير للقيم غير الاسلامية الحادث بسبب الاتصال بالحضارة الغربية فالخمر والزنى والغش والظلم والتعذيب والتمثيل والاعتداء والربا .. رذائل وهى شر ، والزكاة واغاثة المحتاج وغض البصر والقيام بعمل نافع للناس ولو بالأجرة واماطة الأذى عن الطريق والرفق بالحيوان .. فضائل وهى خير .

وان نظر المسلمين الى هذه الأمور متفق ولو أنهم انحرفوا عنه فى العمل وخالفوه فى التطبيق ، وليست كلها كذلك عند غيرهم من المجتمعات .

٣ ــ العادات :

ان الاتفاق فى هذا التقويم والتقدير للاعمال والأشياء جعل أفراد المجتمع الاسلامى يشتركون فى كثير من العادات التى يحكمون فيها الاسلام تحليلا وتحريما ، فالختان ، والطهارة من النجاسات ، والمآكل المحللة واللباس الساتر للعورة بالنسبة للرجال والنساء والأعياد وأمثال ذلك من العادات مشتركة بين المسلمين ، وان اختل بعضها بمؤثرات خارجية ، وكذلك المآكل والمشارب المحرمة والأعمال المحظورة وهى لا تزال مراعاة الى حد كبير فى اكثر المجتمعات الاسلامية . وكلما حرص المجتمع على التزام الاسلام والوقوف أمام عدوى أمراض المجتمعات الأخرى كان التشابه والتوافق بين أفراده أكمل وأشمل .

٤ ــ الثقافة :

ان المسلمين فى اكثر البلدان الاسلامية يشتركون فى جزء كبير من ثقافتهم فهم يدرسون القرآن والحديث والعقيدة واحكام العبادات والمعاملات والأخلاق وسائر تعاليم الاسلام ، كما يقرؤون كثيرا من آثار الفكر الاسلامى فى مختلف الميادين والعصور فى الأدب والتاريخ وتراجم الرجال والفلسفة وسائر جوانب الثقافة الاسلامية . وكانت هذه الثقافة الاسلامية هى الثقافة العامة التى يتلقاها المسلمون قبل ان تدخل الثقافة الأوربية الحديثة فكانت مشتركة فيما بينهم . وقد بقى لها ــ وان انحسرت بعض الانحسار ، بسبب مزاحمة الثقافة الحديثة الأجنبية لهــا ــ أثر واضح يختلف قوة وضعفا باختلاف البلدان والبيئات .

واللغة الأساسية لهذه الثقافة هى اللغة العربية ، فهى لغة القرآن والحديث ولا بد لكل من يريد ان يتوسع فى الثقافة الاسلامية من تعلمها . ولذلك نلاحظ انتشارها فى المدارس القديمة والحديثة فى البلاد الاسلامية ، وكثرة المتعلمين لها ودخولها فى برامج التعليم ، والاهتمام بحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وتعلمه فى المصحف وبالأحرف العربية .

أضف الى ما تقدم انتشار الحروف العربية واستعمالها لكتابة لغات البلاد الاسلامية كالفارسية والأوردية والجاوية (الأندونيسية) والتركية الى عهد كمال أتاتورك الذى منع استعمالها تعصبا لقوميته ومحاربته للاسلام وبهذه الطريقة أصبح الحرف العربى مشتركا بين هذه الشعوب لشيوعه بسبب القرآن من جهة ولاستعماله فى كتابة بعض اللغات من جهة أخرى .

ومن هذا نرى ان فى العالم منطقة واسعة يمكن أن نسميها منطقة الثقافة الاسلامية واللغة العربية والحرف العربى لها فيها مكانة عظيمة وانتشار واسع وهذا يكون أساسا مشتركا هاما بين شعوب العالم الاسلامى .

٥ ــ التاريخ :

ان اكثر البلاد الاسلامية ، وهى التى دخلت الاسلام منذ ظهوره وأوائل انتشاره فى وقت مبكر ، تشترك فى الحقيقة فى تاريخ عصور طويلة . فأحداثه الكبرى ، وصفحاته المشرقة ، وعهود سلمه وحربه ، وانتصاراته ونكباته ، كلها مشتركة بين هذه البلاد . وهى عامل هام جدا فى تكوين نفسية المسلمين وعواطفهم وأفكارهم وتوحيد موقفهم من الشعوب الأخرى . والشعوب التى تأخرت فى دخولها الاسلام التحقت بتلك الشعوب السابقة فى التأثر بهذه الأحداث والعهود التاريخية وتشترك جميعها فى نظرتها الى

التاريخ ، فظهور الاسلام بالنسبة اليها جميعا بداية عهد جديد للانسانية يحررها من الظلم والخنوع والوثنيات وينقلها الى عهد النور والهداية والتحرر والكرامة الانسانية . وشخصية خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم هى الشخصية الانسانية الأولى فى المكانة ، والنموذج الانسانى الكامل ، وهكذا تتوحد نظرة المسلمين الى شخصيات هذا التاريخ السياسية والعلمية والخلقية والى عهوده المختلفة وذلك وفقا للمقاييس المشتركة التى جاءهم بها الاسلام ليقيسوا بها الناس والعهود .

بل ان الشعوب الاسلامية فى العصور الأخيرة من تاريخها وقعت تحت مؤثرات متشابهة ، فمروا بعهد تخلف وتأخر وعانوا حكم المستعمرين الأجانب ثم استيقظوا فى نهضة عامة . انهم يتشابهون ويشتركون فى هذا كله فيزداد تشابههم وتتقارب عقولهم ونفسياتهم الى حد كبير لا يعادله تقارب أى مجموعة أخرى من الشعوب .

٦ ـ التشريع والأحوال الاجتماعية :

خلال عصور طويلة نفذ تشريع واحد فى البلاد الاسلامية وهو التشريع الاسلامى الذى يرجع فى أصوله الى القرآن والسنة . فقد طبع هذا التشريع المجتمع الاسلامى فى جميع البلاد بطابع واحد . فتشريع الأسرة وعلاقات أفرادها بعضهم ببعض هو تشريع واحد . والتشريع الذى ينظم العلاقات المالية والتجارية بين الناس هو كذلك تشريع واحد . ولم يطرأ الخلل على هذه الوحدة التشريعية الا فى القرن الأخير ، حين بدأت البلاد الاسلامية واحدة بعد أخرى تستبدل بالتشريع الاسلامى التشريع الأجنبى ، الانكليزى مثلا أو الفرنسى . وبقيت بعض البلاد الاسلامية سائرة فى طريقها الأول ، فى تنفيذ التشريع الاسلامى ، وبقيت جميعها منفذة لأحكام الشريعة فى شؤون الأسرة من زواج وطلاق وميراث وغيرها ، لا يستثنى من ذلك الا المسلمين الواقعين تحت الحكم الشيوعى ، فهم يحكمون بالقانون الشيوعى . ومع ذلك فان كثيرين منهم لا يزالون يطبقون الشريعة الاسلامية بالاتفاق فيما بينهم .

ان ما تقدم من العوامل الفكرية والثقافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية أوجدت روابط مشتركة بين الشعوب التى تدين بالاسلام ، وكثيرا من التشابه والانسجام فى طريق التفكير وأساليب السلوك ومظاهر الحياة ، وكثيرا من التوافق فى الأخلاق والعادات والعواطف ونستطيع القول اجمالا انها ولدت أمرين :

احدهما : ان الشعوب الاسلامية تؤلف بمجموعها (عالما اسلاميا) ويمكن القول أن هناك (مجتمعا اسلاميا) أو جماعة اسلامية أو هيئة اجتماعية اسلامية ، تتمثل وتتجسد فى كل واحد من هذه الشعوب . وهذه الحقيقة تطرح امامنا موضوعا هاما وسؤالا خطيرا وهو : **هل يمكن القول انها تؤلف أمة واحدة** يمكن أن توصف بأنها **الأمة الاسلامية ؟**

ثانيهما : تميز العالم الاسلامى أو المجتمع الاسلامى عن العالم الاخر من ديمقراطى غربى واشتراكى ماركسى ووثنى آسيوى افريقى .

وسنعالج كلا من هذين الأمرين ونبحثهما فى الصفحات التالية .

المسالة الأولى :

هل تؤلف الشعوب الاسلامية فى العصر الحاضر أمة واحدة ؟

ان الجواب على هذا السؤال يقتضينا أولا أن نعرف (الأمة) ونحدد مفهومها ، ويقتضينا ثانيا أن نعرف العوامل التى تكونها ثم نعتبر ذلك ونطبقه فى هذه الحالة التى نبحثها .

ومن أجل اعطاء فكرة عن مفهوم الأمة وعن العوامل التى تكونها تتضح الأفكار التالية :

١ ـ الأمة هى الوحدة الاجتماعية المنسجمة أو المشتركة فى حد ادنى من الانسجام فى اسسها الفكرية وعواطفها واتجاهاتها .

٢ ـ ان العوامل المادية كالأرض والدم أو العرق التى تكونها أو تعين على تكوينها آخذة نحو الضعف ، وان العوامل المعنوية كاللغة والثقافة والعقيدة يتزايد أثرها كلما تقدمت الحضارة .

٣ ـ ان مرجع العوامل المعنوية من اللغة والثقافة والتاريخ الى عامل الفكر والعقيدة .

٤ ـ ان الأمة ليست كيانا ثابتا جامدا ، بل هى متطورة . فقد مرت بمرحلة كانت الأمة فيها قبيلة ، ثم كانت مرحلة أخرى غدت فيها الأمة قوما او قومية ، وتتجه البشرية الى تكوين أمم من نوع جديد وهى التى تنصهر فيها مجموعة من الشعوب فى اطار واحد تنظمها فكرة عقائدية واحدة ونظم تشريعية واجتماعية واحدة بل قد يكون لها تنظيم سياسى موحد .

وباعتبار هذه النظرات وبالرجوع الى التاريخ يتجلى لنا أن هذه الشعوب كانت تؤلف فى فترة من تاريخها أمة واحدة ، وذلك فى عصر ازدهار الحضارة الاسلامية ، وانها تؤلف كذلك الى حد كبير فى عصرنا هذا أمة . ويتأكد هذا المعنى لو بذل جهد يسير فى التنسيق بينها وفتح الأبواب والسدود التى أقامتها المطامع السياسية الخاصة والمصالح الاستعمارية فى آن واحد . ويتناول التنسيق مناهج التعليم ونظم التشريع والتعاون والتكامل الاقتصادى وتنسيق السياسة الخارجية ، ويتناول التخفيف من الحواجز والسدود ونظم الجنسية والاقامة والمكوس (الجمارك) ونظم التوظيف وكل ما يؤدى فى النتيجة وبعد مدة من الزمن الى اعادة وحـدة الوطن الاسلامى التى كانت فى عصر الاسـلام الزاهر والتى قال فى وصفها آدم متز مؤلف كتاب (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع) : ان المسلم كان ينتقل من بلد اسلامى الى بلد اسلامى آخر ولو اختلفت الدولتان بسهولة أكثر بكثير مما كان يجده الألمانى فى القرن الثامن عشر للميلاد فى الانتقال من مقاطعة المانية الى مقاطعة أخرى .

واذا أردنا الدقة فى تحديد فكرتنا فى هذا الموضوع نقول ان الشـعوب الاسلامية كانت تؤلف أمة بالمعنى التام خلال عدد من القرون التى أعقبت ظهور الاسلام فقد امتزجت الشعوب الاسلامية فى مجال العلم والسياسة والادارة والاقتصاد والمواصلات وسائر مجالات الحياة امتزاجا عجيبا وكان الشعور بالانتماء الى الوطن الاسلامى والثقافة الاسلامية أقوى بكثير من شعور الانتماء الى البلد والقومية ـ فتجد فى الفقهاء والمحدثين وفى الأطباء والفلاسفة وفى الحكام والقضاة العربى والهندى والفارسى والكردى والتركستانى البخارى ملتقين على صعيد الثقافة الاسلامية والعقيدة الاسلامية والمفاهيم والعادات الاسلامية .

ولكن هذا الارتباط أخذ يضعف شـيئا فشيئا بسبب انقسـام الوطن الاسلامى الى دول مختلفة ، والى مذاهب وعصبيات متعددة ، وبسبب غلبة التربية الفردية على التربية الاجتماعية ، وأخيرا بسبب الانقسام الذى أحدثه الاستعمار فى غزواته العسكرية والفكرية فى العصر الأخير حتى أصبح كل شعب من الشعوب الاسلامية فى شغل شاغل فى قضاياه ومشكلاته التى خلقها الاستعمار المعادى للاسلام وبما أضرمه الاستعمار من روح العصبيات القومية بقصد اضعاف الرابطة الاسلامية وخوفا من قيام العالم الاسلامى فى صورة كتلة متحدة ناهضة تقف أمام الغزو الاستعمارى والنفوذ الأجنبى . ان هذه العوامل كلها أضعفت الشعور بالرابطة الاسلامية الشاملة فى مقـابل غلبة الارتباط بالرابطة القومية بل الاقليمية ، حتى ضعف فعلا وفى واقع الأمر

معنى الأمة الاسلامية فى العصر الحديث . ولكن هذا الضعف الطارىء لا يعنى زوال الرابطة ولا فقدان معنى الأمة الاسلامية ، ومن الممكن بل من الواجب معالجته ، ولا سيما اننا نجابه تكتلات عقائدية فى العالم ، تحيط بنا وتحاول بسط نفوذها والتسلل الى الداخل وتمزيق وتشتيت الكيان الاسلامى واضعاف الرابطة الاسلامية لالحاق الشعوب بها وجعلها تابعة لها ودائرة فى فلكها .

ان دراستنا التفصيلية للمجتمع الاسلامى تمكننا من معرفة الوسائل التى بها يمكن أن نعيد الأمة الاسلامية الى حيويتها ووحدتها ولكننا نستطيع الآن أن نجمل الشروط التى اذا تحققت أعادت الشعوب الاسلامية الى ارتباطها واتحادها والى بقائها على صعيد واحد بحيث يمكن أن تستحق أن نصفها بأنها أمة ويكون حكمنا عليها حينئذ حكما موضوعيا صحيحا .

وهذه الشروط هى بايجاز :

أولا : التنسيق بين الشعوب الاسلامية من ناحية التعليم والتشريع والتنظيم الاقتصادى وسائر النواحى الاجتماعية التى تنتج بالطبع توحيد الاتجاهات السياسية . وذلك بأن يكون الاسلام هو المصدر الذى تستقى منه اتجاهاتها التربوية والثقافية والتشريعية والاقتصادية والسياسية ، ومنه تصوغ فلسفتها فى الحياة . وتقوم بهذا التنسيق لجان فنية من وزارات التربية والعدل والاقتصاد والشئون الاجتماعية والاعلام . وتكون النهضات القومية فى مجالات التربية والتنمية الاقتصادية والتشريع وغيرها فى اطار **الاسلام باعتباره منهجا وعقيدة ونظاما للحياة** . ويعنى بوجه خاص باقامة تكامل اقتصادى بين البلاد الاسلامية وتكوين وحدة اقتصادية أو سوق مشتركة .

ثانيا : التخفيف من السدود والحواجز القائمة ، للاتجاه فى نهاية الأمر الى ازالتها . وذلك بتنسيق قوانين وانظمة الجنسية والعمل والتوظف ، بطريقة تنظر الى الواقع القائم ومشكلاته ، لتنتهى الى أن تجعل من مجموع الشعوب الاسلامية وحدة يسهل التنقل فى داخلها ، وتحل فيها الصفة الاسلامية المحل الأول ، ويكون ذلك عاما شاملا يطبق على الجميع وفى جميع البلاد الاسلامية . ويراعى فى هذا التنظيم والتقنين الا يخل بحقوق المواطنين غير المسلمين الذين سكنوا مع المسلمين فى بلد واحد منذ قرون طويلة . . ويقتضى ذلك بطبيعة الحال ازالة الحاجز الأكبر الذى وضعته الدول غير الاسلامية فى وسط البلاد العربية والاسلامية وهو (اسرائيل) التى هى شعب مركب « تركيبا اصطناعيا » بهجرات حديثة لجاليات من مختلف الجنسيات ،

وبعمليات اغتصابية ، وبقرار من هيئة الأمم المتحدة ، اشتركت فى اقراره والتصويت عليه والدفاع عنه الدول الاشتراكية والدول الديمقراطية أو الرأسمالية على السواء سنة ١٩٤٨ وما بعدها ، ولا يزال موقفهم جميعا من بقائها دولة واستمرارها ثابتا لم يتغير .

ثالثا : تعميم مبادىء الاسلام فى الجمهور والمثقفين عن طريق التعليم العام والتعليم الشعبى ، وبسائر طرق الاعلام والنشر ، لامكان استمرار وجود القاعدة الشعبية التى تدعم الفكرة السابقة وتعضدها وتؤيدها وتستمد لتنفيذها ولتقف أمام التعاليم العقائدية التى تسللت ولا تزال تتسلل الى داخل البلاد الاسلامية على يد الأجانب فى بداية الأمر ، ثم على يد بعض أبناء الشعوب الاسلامية ممن صبؤوا عن عقيدتهم ، وخرجوا على أمتهم وأصبحوا دمى تحركها قوى خارجية واجراء لأمم أجنبية شرقية وغربية .

المسالة الثانية : موقع العالم الاسلامى ودوره

يقع العالم الاسلامى جغرافيا بين عالم الشرق القديم ، الذى يشمل الهند والصين وغيرها ، والغرب الذى كان يشمل قديما اليونان والرومان وحديثا أوربا وأمريكا . ويقع من جهة أخرى بين أوربا وأمريكا التى تقع شمالى جزء كبير منه وشعوب أفريقيا الوثنية التى تقع جنوبى جزء كبير من أجزائه .

ان هذا الموقع الجغرافى يقابله كذلك موقع حضارى يتوسط حضارتين . فالمجتمع الاسلامى يتميز عن عالمين يحيطان به من الطرفين وهما العالم الشرقى الوثنى من جهة ، والروحى من جهة أخرى . والعالم الغربى المادى فى تفكيره وهدفه .

أما العالم الشرقى فقد تميز بانتشار ديانتين كبيرتين انتشرتا فى أكبر أجزائه : الهند والصين وهما البوذية والهندوكية . وكلاهما تتميز بالاتجاه الروحى المعارض أشد المعارضة للاتجاه المادى فالزهد والتقشف والاعراض عن الدنيا وشهواتها من أهم خصائص البوذية ، وكذلك الهندوكية التى عرفت برياضتها الروحية التى تستهدف افناء الجانب المادى من الانسان ليذوب فى الوجود ويصل الى الحقيقة بل ليتحد مع ما يسمى عندهم النرفانا أى القوة المسيطرة على الوجود أو الاله بمفهومهم وهى الحالة التى يعبر عنها بوحدة الوجود .

ان هذه الاتجاهات الروحية المغالية المتطرفة والمعارضة معارضة شديدة للاتجاه المادى والواقعى اقترنت فى هذه الديانات بالخرافات الوثنية التى اشتملت على تقديس بعض أنواع الحيوان ، كالبقر والثعابين والقردة فى قصص أسطورية عجيبة .

وان هذه العقائد والديانات ، على ما فيها من قواعد أخلاقية وروح انسانية وسلمية ، لم تقم ولا يمكن أن تقوم على أساسها حضارة انسانية متقدمة من الناحية المادية ، بل أنهـا تردت أحيانا الى أدنى دركات الانحطاط الفكرى والعصبية غير الانسانية التى كانت آثارها فى الهند تلك المذابح الكبيرة المتكررة التى قام بها المنتسبون الى الديانات الهندية المتفرعة عن هذه الديانات الأصلية، وكان من ضحاياها مئات الألوف بل الملايين من المسلمين .

ان أبرز شخصياتهم فى العصر الحديث ، الذى تتمثل فيه الهندوكية فى أصفى وأرفع أشكالها ، وهو غاندى المتقشف المسالم والداعية الى السلام ، لم يستطع بأساليبه الروحيـة أن يخرج الاستعمار من بلاده ، ولا اسـتطاع أن يحول بين قومه والمذابح الوحشية التى قاموا بها وهو يرى ويسمع . ان نيته الطيبة وقدرته على كبح شهواته لا يمكن أن تكون قاعدة عامة ولا يمكن نشرها، بل لا يمكن أن تجتمع مع رقى العصر الحديث المادى ، ولا يمكن اطلاقا المقارنة بينه وبين الشخصيات التاريخية الاسلامية التى استطاعت أن تجمع بين القوة المادية كالحكم والسلطان أو الغنى ، والقوة الخلقية والروحية كما تحققت فى مثل أبى بكر وعمر وعلى وعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين وأورنك زيب ــ الملك الهندى ــ وغيرهم من خلفاء المسلمين وملوكهم .

ولذلك كان من أعجب العجب اقبال بعض أبناء العروبة والاسلام على الاشادة بغاندى وتعظيمه واقامة المهرجانات له وهو لا يعدو أن يكون على ما فيه من عظمة ومكارم أخلاق أحد ممثلى العقائد الوثنية التى سببت الكوارث للانسان عامة وللمسلمين خاصة والاشـادة به اشـادة بمذهبـه الهندوكى وفلسفته التى تتعارض مع الاسلام ومع الفطرة الانسانية السليمة .

ومن العجيب أن يشيد العرب المسلمون بغـاندى أحد أبطـال الوثنية المجوسـية والفلسفة الخيالية أو طاغور الشـاعر الهندوكى ويعرضوا عن الفيلسوف الذى يشيد بالعرب ويتغنى بتاريخهم ويعتز بحضـارتهم ويذكر بالحنين والشوق بلادهم والذى أقام فلسفتـه على الاسـلام وأتى فى ذلك بالروائع والبدائع وهو محمد اقبال .

لا شك أن هذا الموقف تمليه الشعوبية الحديثة التى تريد دفن التراث العربى والثقافة الاسلامية عن طريق اذابتها وتمييعها باسم الانسانية وأدنى من هذا النوع من الوثنيات العريقة وثنية الشعوب الافريقية التى ليس وراءها فلسفة ولا حضارة .

أما العالم الغربى فيتمثل قديما فى الرومان واليونان . وقد تجلت حضارتهما فى الاستعمار الرومانى من جهة ، وفى الفلسفة التى عرفت عن اليونان . وتتمثل حديثا فى الحضارة المادية الصناعية أو الآلية بلونيها أو شعبتيها الديمقراطية أو الرأسمالية ، والاشتراكية الماركسية أو الشيوعية .

ان الحضارة الحديثة ارتقت بالآلات وبالجوانب المادية من الحياة ، حتى ان العقل فيها ليس الا أداة لاكتشاف العالم المادى ثم للانتاج الصناعى والرقى الآلى ، وليست غاية الحياة الا اللذة المادية والرفاهية ، سواء تمتع بها أفراد أو طبقة فى النظام الرأسمالى أو الجمهورى أو الشعب — لو صح زعمهم — فى النظام الاشتراكى . والحقيقة أن النظامين من طينة واحدة ، ويشتركان فى اسس فلسفية وأهداف مشتركة ، وهى اعتبار الرقى المادى أساسا للحضارة وجعل اشباع الشهوات هدفا وغاية ، ولكن الاختلاف فى الطريقة والأسلوب أى فى نظام التوزيع ، وكلاهما معنون بعنوان مادى .

أما الانسان ، فى جانبه الانسانى والخلقى والروحى ، فليس موضوع عناية فى أى واحد من النظامين وليس هدفا لأى واحد منهما ، ولذلك بقى الانسان فى النظامين متدنيا ومنحطا من ناحية العواطف الانسانية والضمير الخلقى . فحيثما كنت فيهما تجد التنافس والصراع بل القتال ، وأحيانا التعذيب والتمثيل ، وتجد الاباحية والتحلل الخلقى والاثرة أو الأنانية الفردية وتكالب الناس على الشهوات المادية وتسخير العلم والمؤسسات العلمية لهذه الغايات التى يشترك فيها العالمان والنظامان الديمقراطى الرأسمالى والاشتراكى الشيوعى حتى فى داخل كل نظام من هذه الأنظمة .

أما تحرر الانسان من العبودية ومن الخوف ومن الجوع ومن استعباد الشهوات له ومن استعباد الأفراد أو الجماعات وايقاظ ضميره وتنمية مشاعره الانسانية وعمله فى سبيل أخيه الانسان من غير تمييز وارتفاعه خلقيا وروحيا وتهذيب غرائزه وميوله فكل هذا بعيد كل البعد عن الحضارة الصناعية الآلية سواء فى البلاد الرأسمالية أم الاشتراكية الماركسية .

ان الرأسمالية على ما فيها من حرية القول والكتابة والتصرف ، لم تحم الانسان من مظالمها ومآسيها ومفاسدها فى داخل بلادها وفى خارجها حيث

يكون الانسان موضوع استغلال لها . وان الشيوعية ، وان زعم مروجوها انها اشبعت المعدة واطعمت الأفواه ووضعت حدا ادنى للمعيشة ، فلم تحم كرامة الانسان وحريته فى القول والكتابة والتصرف ، بل ذاق الانسان فى نظامها من الصراع بين الحكام ومن تعذيب المخالفين والمعارضين ومن تزاحم أصحاب النظام نفسه بل تصارعهم وتقاتلهم ومن الكبت الفكرى والنفسى وألوان التقتيل والتعذيب باسم النظام نفسه ما ليس له نظير حتى فى العصور القديمة وعصور التأخر والانحطاط ، وليس الانسان فيها الا آلة انتاج واستهلاك .

ان كلا من النظامين فى ازمة ، وانسان هذه الحضارة المادية فى ازمة ما بعدها ازمة ، فهو انسان عصر القلق والتنافس ، لأن حضارته ليست حضارة الاطمئنان والتعاون .

وههنا يأتى دور المجتمع الاسلامى اذا استطاع ان يقوم وينهض بعبئه . ذلك ان الانسانية بحاجة الى حضارة تجمع بين التقدم المادى والرقى الخلقى ، ليكون لتقدمها المادى الصناعى والعمرانى أهداف خلقية وغايات مثالية ، لتحقق للانسان الضمير الخلقى فى الفرد وروح التعاون فى الجماعة . وهذا النوع من الحضارة لا يمكن أن يتحقق فى حضارة تقيم فلسفتها على جعل المادة فى أى صورة من صورها أعلى ما فى الوجود ، كأن تجعل الانتاج مثلا هو غاية الانسان فى هذه الحياة ، وأن تجعل رفاهيته المادية غاية ، أو أن تجعل اعلاء قومه وحدهم دون بنى الانسان غاية وجوده . وان حضارة العصر الحديث قد اتخذت لنفسها كما قال « الدوس هكسلى » فى كتابه « الوسائل والغايات » أصناما أو آلهة جديدة من الوطنية او القومية أو الجماهير أو الانتاج أو من العقل أو العلم ولا تصلح أى واحدة من هذه ان تكون القيمة العليا أو الغاية النهائية . ولذلك كانت العلة فى أصل فلسفة هذه الحضارة وعقيدتها ، وكان لابد من ظهور الخلل فى فروعها ونتائجها .

ان هذا النوع من الحضارة التى تحقق شرط التقدم فى المجالين المادى والخلقى وتقيم أساس فلسفتها وعقيدتها على غاية عليا ، وتربط كل تلك الغايات المحدودة من الوطن والقوم والانتاج والعقل والعلم بغاية للوجود أعلى منها ، هى الحضارة المبنية على الاسلام . ذلك أن الاسلام يستوعب الحياة المادية كلها سواء من جهة التقدم الفكرى فى مجال معرفة الكون ، أو فى مجال الصناعة والعمل ، او التنظيم والعمران ، ويتجاوز ذلك الى وضع أهداف سامية وغايات أخلاقية للحياة ، ولا يهمل أى قيمة من تلك القيم ، من العقل او العلم او الانتاج او الوطن أو الشعب . ذلك انه يقيم أساس نظرته على

ما يجمع تلك الأهداف ويضعها في موضعها اللائق بها من غير مغالاة ولا تفريط ، فيربطها جميعا بالوجود العام ، ويربط الوجود كله بالله المستعلى عليها جميعا .. وبذلك لا يجعل الحقيقة الجزئية كلية أو حاكمة على الكل ، ولا يبنى على حقيقة ناقصة مبتورة ولا على نظرة جانبية جزئية .

ولكن المسألة التى تطرح هى : هل المجتمع الاسلامى بوضعه الحاضر قادر على القيام بهذا الدور والاضطلاع بعبء هذه الأمانة ؟

لقد كان للمجتمع الاسلامى سابقة حضارية ، حقق فيها فى بعض العصور الشروط التى أشرنا اليهـــا ، فحقق تقدما كبيرا فى مجال معرفة الطبيعـــة (الكون) ، وازدهرت العلوم الرياضية والطبيعية ازدهارا لم يسبق له نظير ، وكانت مقدمة للحضارة الحديثة . وحقق كذلك فى مجال التقـدم الاقتصادى نجاحا كبيرا ، فازدهرت الزراعة والتجـارة ، وكذلك الصناعة فى حـــدود امكانات ذلك العهـد ، وحقق ـ بعد هذا ـ التعاون الانســـانى بين مختلف الشعوب والأقوام بسبب المفهوم الجديد الذى بنى عليه ، وهو أن البشر كلهم من أصل واحد ، فهم لذلك متساوون ، وتحقق هذا التعاون الانســـانى فى مجال العلم والبحث وفى مجال الحكم والسياسة وفى مجال التجارة والاقتصاد وفى مجال الأعمال الخيرية والتعاونية .

ولكن هذا المجتمع الاسلامى أصابه انحراف وتشويه وتمزق ، فتردى وتخلف وعاد فى حال لا يحقق فيهـــا تلك المثالية . ذلك انه شوه المفاهيم الاسلامية ، وخلطها بغيرها ، وانتقص من أطرافهـــا ، وغير نسبها ، وفكك أجزاء النظام الاسلامى المترابط ، حتى لكأن الاسلام اسلام آخر ، فلم يعد يؤتى ثمراته المرجوة .

مر المجتمع الاسلامى حينما ازداد الانحراف والتشويه والتمزق بطور انحطاط وتخلف فاعتراه الجمود والوقوف والضعف ، سواء فى مجال العلوم المادية أم فى مجال النشاط الاقتصادى أم فى المجال السياسى والاجتماعى ، فلم يعد قادرا على أن يقوم بدوره العظيم ، فى التوفيق بين الحضـارة الروحيـة والحضارة المادية فى حضارة جامعة منسجمة متوازنة ، واستمر هذا الوضع المتخلف عدة قرون ، وكان عصر الاستعمار ، أى اســتيلاء دول أوربا التى نهضت من الناحية المادية وبلغت فى قوة المال والسلاح مبلغـا عظيما على أكثر شعوب العالم الاسلامى ، واستمر هذا العهـــد مدة تختلف من بلد الى آخر وكان هذا الاستعمار استيلاء وحكما من جهة ، وغزوا فكريا من جهة أخرى ، وقد استمر هذا الغزو الفكرى ، ولا يزال مستمرا ، ينقل الأفكار والمفاهيم ،

بل المذاهب والعقائد والعادات الى البلاد الاسلامية ، لتزاحم الاسلام نفسه بل لتحل محله في بعض الأحيان .

ثم ظهرت بوادر وعى ذاتى ، كان من أسبابها احياء التراث الاسلامى ، ومن نتائجها محاولة اقامة نهضة على أسس مأخوذة من الاسلام ، ولكنها تنوء بعبئين : عبء عصر الانحطاط والتشويه ، وعبء الاستعمار ورواسبه وغزوه المستمر ، وكلاهما معوق للمجتمع الاسلامى عن القيام بدوره من جديد . ولهذا كان لا بد لقيامه بهذا الدور من تحقق الشروط التالية :

١ ـ نشر المفاهيم الاسلامية الأصيلة والتحرر من آثار التشويه والانحراف وبث وعى اسلامى مستند الى القرآن والسنة المفصلة لكليات القرآن وذلك لاعادة تنظيم الحياة الفردية والاجتماعية واقامة النظم الاجتماعية الاسلامية .

٢ ـ تدارك التخلف المادى الناشىء عن الجمود وعن تشويه المفاهيم الاسلامية سواء فى الصناعة والزراعة والعمران والتسلح أم فى العلوم المادية النظرية للتوسع فى كشف آفاق الكون واستثمار ذلك فى خدمة الانسان .

٣ ـ التحرر من التبعية للدول الأجنبية جميعها ولا سيما التبعية الفكرية والمذهبية . بعد أن نظر اليها العالم الاسلامى نظرة المعجب بها ، الخاضع لقوتها ، فقلدها وتأثر بكل ما فيها من خير أو شر ومن نافع أو ضار . ثم احلال الوعى الاسلامى المبنى على الفكر والثقافة الاسلامية محل هذه التبعية وذلك ليتمكن العالم الاسلامى بجميع شعوبه من الاستقلال الحقيقى والشعور بالكيان الذاتى ومن القيام حينئذ بدوره الحضارى الانسانى .

ان هذا التغيير ، الذى ينتهى الى قيام مجتمع اسلامى جديد وحضارة اسلامية جديدة ، يرجى أن يؤدى الى قيام نظم سياسية واقتصادية واجتماعية ذات أهداف أخلاقية وانسانية ، تحل مشكلات الصراع والتنافس والاستعمار والاثرة والقلق والانهيار الخلقى والظلم الاجتماعى ، تدعمها تربية خلقية تقوم على ايمان بعقيدة صحيحة أو تصور صحيح للوجود وبما ينبثق عنه من حضارة ونظم .

ان تغيير المجتمع الاسلامى الحالى ، ومعالجة نقائصه وأمراضه ، لنقله الى صورة أخرى مثالية أو صالحة على الأقل يحتاج الى معرفة الصورة الواقعية والصورة المثالية وطريق الانتقال من الأولى الى الثانية واليك ايضاحا موجزا لذلك :

١ ـ معرفة الصورة الواقعية للمجتمع الاسلامى المعاصر كما هى بخيرها وشرها بمحاسنها ومساوئها وهى التى يجب ان يتعاون عليها الباحثون والمفكرون من مختلف الشعوب الاسلامية ومن مختلف الجوانب الفكرية والاقتصادية والسياسية وغيرها .

٢ ـ تصور الوضع المثالى او الأصلح الذى نريد ان ننقل اليه المجتمع الحالى وهذا هو موضوع الأبحاث المتخصصة فى الاسلام نفسه باعتباره نظاما شاملا كاملا ابتداء من تصوره العام للوجود او عقيدته الى اسسه وقواعده الأخلاقية الى تشريعه وتنظيمه للعلاقات الانسانية فى مجال الأسرة والتعامل الاقتصادى ونظام الحكم . وللمتخصصين فى كل قسم من اقسام هذا النظام أن يتعمقوا بعد ذلك فى ابراز خصائصه وبيان تفصيلاته بعد اتضاح الصورة العامة الشاملة . ولا بد هنا من ملاحظتين هامتين :

الأولى : ان هذا العرض للصورة المثالية أو للاسلام يجب الا يختلط مطلقا أو يلتبس بالأبحاث التى تكون غايتها المقارنة والموازنة بين الاسلام والمذاهب الأخرى أو الرد عليها ولا بالأبحاث التى غايتها التوفيق والتقريب بين الاسلام والمذاهب الأخرى مهما كان الهدف المقصود من ذلك .

الثانية : أن يكون استخراج هذه الصورة الصحيحة للاسلام ـ فى مجال العقيدة والأخلاق والأحكام الفقهية ـ مستندا فى الأصل ومستمدا من القرآن ومن الحديث الذى لا يمكن مطلقا أن يستغنى عنه لايضاح كليات القرآن ومبادئه ومعرفة القرائن المعينة على فهم أهدافه ومقاصده كأسباب النزول وغيرها وتفصيلات ما أجمل فيه . ولا بد للباحث المختص ـ لاستخراج هذه الصورة ـ من الاطلاع على آراء علماء المسلمين وائمتهم إبتداء من الصحابة فالتابعين فمن بعدهم من أئمة العلوم الاسلامية من عقيدة وفقه وغيرهما من الموثوقين فى علمهم ودينهم . وذلك باستعراض آرائهم ومعرفة أدلتهم من القرآن والسنة ووجهة نظرهم على اعتبار انها فهوم علماء المسلمين لما ورد فى الكتاب والسنة وهى فى مجموعها تدل ـ ولا شك ـ على الاتجاه الصحيح ، وتهدى الى طريق الحق ، وان كان لعصر كل جيل منهم ظروف فكرية واجتماعية تجعلهم يطرحون للبحث قضايا معينة لا بد من طرحها ، ويصوغون الأفكار والأحكام صياغة متناسبة مع أجواء زمانهم ، وان لم تختلف الأصول ولا المبادىء والمقاصد التى اشتمل عليها القرآن واوضحتها السنة وفصلتها . واستمرارا لجهد السلف الصالح من المسلمين الذين بنوا مجد الاسلام ونهلوا من ينابيعه فأجادوا وأبدعوا ، وسيرا على سنتهم ، يترتب على أهل هذا العصر ، على من توافرت فيهم الشروط العلمية والخلقية والدينية ،

ان يقدموا لابناء عصرهم هذا صورة صحيحة عن الاسـلام مصوغة صياغة يفهمونها ولا تهمل المشكلات القائمة حاليا فى عالمنـا ولا تتجاهلها ، ولا تخضع أيضا للحلول المقدمة من المذاهب الأخرى او التى الفها الناس بحجة مسـايرة التطور بمحاولات التوفيق او التلفيق على الأصح .

٣ ـ معرفة عوامل التغيير الاجتماعى التى تقدمها لنا أبحاث علم الاجتماع والتى طالما اشار اليها القرآن وأشار اليهـا الحديث كذلك . فمن الضرورى الاستفادة من علم الاجتماع لتحقيق التغيير الذى نريده ، ولخدمـة أهداف الاسلام . ذلك ان علم الاجتماع يقدم لك قوانين الحيـاة الاجتماعية ، وسنن تطورها وتغيرها ، كما يقدم لك علم الكيمياء قوانين المادة ، ولك أن تستعمل نتائج هذا العـلم الذى هو دراسـة للواقع للهدف الذى تريده . ان جميع « العلوم » مجردة وحيادية اثناء البحث والدراسة ، ما لم تشوه صـورة الواقع بدوافع شخصية ، ولكنها ليست حيادية فيما وراء ذلك ، وواقع الأمم المعاصرة كلها شاهد على ذلك .

ملامح المجتمع الاسلامى المعاصر

لا بد لمعرفة ما آل اليه المجتمع الاسلامى المعاصر وتحديد معالمه وأوصافه فى جميع الجوانب ، من استعراض الأطوار السابقة التى مر بها وكانت مقدمة وممهدة للوصول الى الطور الحاضر ، وبذلك تكون دراستنا للمجتمع الاسلامى دراسة تراعى حركة المجتمع وسنن تغيره وتبدله ، كما أنهـا تشمل مختلف النواحى والجوانب كالجانب الفكرى والسياسى والاقتصـادى ، وغيرها وهى جوانب يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا ويرتبط بعضها ببعض . ولكننـا سنوجه عنايتنا فى هذه الدراسة الى الجانب الفكرى تاركين المجال للباحثين الذين يعنون بالجانبين الآخرين .

ونرى أن نقسم تاريخ المجتمع الاسلامى بحسب صفاته وخصائصه وقوته وضعفه الى ثلاثة عصور :

١ ـ عصر ظهور الاسـلام وازدهاره .
٢ ـ عصر الانحـراف والانحطـاط .
٣ ـ عصر الاستعمار والغزو الأجنبى .

وقد عرضنا لصورة المجتمع الاسـلامى وخصائصه فى عصر ازدهاره فى القسم الأول من هذه الدراسـة ، ولذلك نقصر دراسـتنا هنا على العصرين الأخيرين :

عصر الانحراف والانحطاط

لو نظرنا الى المجتمع الاسـلامى فى العصور الأخيرة التى سبقت عصر الاستعمار وعصر الالتقاء بالحضارة الغربية لوجدنا أن هذا المجتمع مختلف فى صفاته وخصائصه عن المجتمع الاسـلامى الأول اختلافا كبيرا . فما هى صفات هذا المجتمع الاسلامى الأخير وخصائصه ؟ وما هى أسباب اختلافه عن المجتمع الأول واسباب تبدله ؟

ان الموازنة بين صورة المجتمع الاسلامى فى القرون الأخيرة وصورة المجتمع الاسلامى الأول ترينا الفرق الكبير والتفاوت العظيم بينهما فلنستعرض صفات مجتمع عصر التخلف والانحطاط .

ان أبرز مظاهر هذا المجتمع فقدان الحيوية والنشاط وسيادة الركود والاستسلام فى جميع جوانب الحيـاة :

(أ) **ففى المجال الفكرى** : ضعف التفكير العلمى وتوقف المسلمون عن السير فى كشف سنن الكون واعرضوا عن ذلك اعراضا يكاد يكون تاما فأهملت علوم الكون أو الطبيعة ، بل انتشرت الخرافات والأساطير ، وضعف التفكير فى الأسباب ومعرفتها ، حتى أن الأمية انتشرت انتشارا كبيرا بين المسلمين بعد أن كان الاسلام دافعا الى ازالتها ، والى نشر العلم والتعليم ، واكتشاف آيات الله فى الكون ، وازدهار العلوم الكونيـة . ومال النـاس ميلا عظيما الى ذكر الخوارق والكرامات تعظيما لمن يعتقدون بهم ، حتى غدت حياة أعلام الاسلام وعظمائه منسوجة فى نظر اهل العصر من الخوارق والكرامات ، وغدت المقياس الوحيد لصلاحهم وتقواهم ومنزلتهم فى الاسلام . ولا نقصد بكلامنا هذا انه ليس للخوارق والكرامات مكان فى الاسلام وعقيدته ولكن فرق كبير بين أن تكون هذه الخوارق أمرا استثنائيا نادرا ، يعتد به مع غيره فى مقياس التقوى والصلاح ، كما صرح بذلك كبار ائمة الصوفية انفسهم كالجنيـد ، وبين أن تكون هى القاعدة فى حياة العظماء الصلحاء ، وهى المقياس الوحيد لصلاحهم وتقواهم ، وتهمل جوانب عظمتهم الحقيقية .

ان لهذا التردى والتحول أسبابا سنذكر اهمهـا فى نظرنا : ان العقيدة الاسلامية التى كانت كما يبدو من القرآن الكريم ، اقتناعا بالأدلة الموصلة الى الايمان بالله ، وتوجها للنظر فى الكون ، والتفكير فى مظـاهره ، وكشف سنن الله فى جريان حوادثه ، بعيدا عن أساطير الوثنيات وخرافاتهـا ، أصبحت فى العصر الأخير :

١ ــ مناقشات فلسفية كلامية عند الخاصة .

٢ ــ ومزيجا من العقيدة الصحيحة والخرافات والأساطير عند العامة . فالعقيدة عند الخاصة أصبحت فلسفية تدور حول قضايا لم يكن الجيل الأول من المسلمين يشغلون انفسهم بها كمسألة الذات والصفات هل هى عينها أم غيرها ، ومسألة خلق القرآن ، والبحث فى جزئيات الحياة الآخرة ، وفى العرش والكرسى ، وأيهما أقدم ، الى غير ذلك من مسائل شغلت الخاصة عن أصل العقيدة المحررة للانسان ، الدافعة له لتحرير الانسانية ، والمحملة اياه المسؤولية العظمى أمام خالقه ومن بيده مصيره . وأما ما سوى ذلك من جزئيات وتفصيلات فقد آمن بها الأولون كما وردت فى القرآن الكريم ، دون أن يجعلوها موضوعا للبحث النظرى والخلافات . ولقد كان بعض هذه القضايا موضع بحث فى العصر العباسى الأول حينما التقى الاسلام بالفلسفة اليونانية ، وكان ينبغى أن تبقى فى موضعها التاريخى ، لا أن تصبح جزءا مما يلقنه أبناء المسلمين لتعلم عقيدتهم . لقد نقلت هذه القضايا الايمان الاسلامى من حيز القوة الحيوية التى كانت تدفع المسلم لتحرير البشر من عبادة ما سوى الله ــ سواء أكان ذلك المعبود بشرا أو شمسا أو قمرا أو كوكبا أو حيوانا أو صنما ــ الى حيز المناقشات الفلسفية ، والمناظرات الكلامية ، والخلافات المذهبية حول هذه النظريات الفلسفية الدينية .

أما عند الجمهور والعامة فأصبحت كما قلنا مزيجا من الايمان بالله وبرسوله واليوم الآخر ومن عقائد أخرى غريبة ودخيلة كالاعتقاد بالقبور وقصدها لقضاء الحاجات والاعتقاد بتصريف « الأولياء » ــ بعد تحريف معناها الاسلامى ــ لشؤون الكون . وابتداع أوراد خاصة مبتدعة ومصنوعة لتحقيق أغراض دنيوية ، واتخاذ أنواع من الرقى والتمائم مع تعطيل الأخذ بالأسباب غالبا .

ان فقدان الابداع العلمى : الذى عرف به المسلمون فى القرون الأولى للاسلام فى شتى مجالات العلوم النظرية والعلمية والدينية والدنيوية كانت نتيجة لغلبة روح التقليد للسابقين وتقديس الرجال تقديسا يقرب من العصمة وأخذ أقوالهم من غير معرفة الدليل النقلى فى الشرعيات والدليل العقلى فى العقليات .

ففى مجال الفقه الاسلامى يلاحظ أن الفقه كان حيا خصبا منذ زمن الصحابة حتى عهد الأئمة المجتهدين فى القرن الثانى للهجرة ثم فى العصور التى تلت عصر المجتهدين قرونا عديدة الى أن جاءت العصور الأخيرة ولا سيما بعد

القرن العاشر للهجرة . فأصبح أكثر الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم ، ويختصرون مؤلفاتهم فى متون موجزة ، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن ادلتها من الكتاب والسنة ، مكتفين بنسبتها الى أصحابها . فبعد أن كانت تحل المشكلات الاجتماعية فى صدر الاسلام فى ضوء نصوص الكتاب والسنة وكليات الشريعة ومقاصدها المستنبطة منهما ، وانطلاقا من هذه المقاصد التى راعى الشارع فيها مصالح العباد ، أصبحت تحل على أساس تطبيق أقوال مذهبية ، وآراء فقهاء المذاهب المتأخرين ، دون النظر لا الى الدليل الأصلى ولا الى مقاصد الشريعة ولا الى المصلحة العامة التى هى من مقاصد الشريعة .

لقد منى الفقه الاسلامى بظاهرتين : احداهما التعصب المذهبى ، وثانيهما التقليد البعيد عن معرفة الدليل الشرعى الأصلى . وهو غالبا تقليد لفقيه متأخر من فقهاء المذاهب أو المؤلفين فيه . وبالبعد عن نصوص القرآن والسنة ضعفت الملكة الفقهية ، وضيق على الناس أفق الشريعة الواسع ، وظهرت العصبية بين المذاهب حتى كان يصلى فى كل مسجد أئمة بعدد المذاهب المتبعة فى ذلك البلد ، وتقام عدة جماعات فى آن واحد أو على التعاقب . ومن البديهى حينئذ أن تختفى ملكة الاجتهاد حتى فى صورها الجزئية والمحدودة ، والا يظهر مجتهدون كبار وأن تقف وتركد الحيوية فى هذا المجال كما ركدت الحياة فى المجالات الأخرى .

تعطيل الأخذ بالأسباب :

ان الوقوف موقف الاستسلام وعدم الحركة أمام طوارىء الحياة ، من مرض أو فقر أو استيلاء عدو ، ناشىء عن تشويه وسوء فهم للعقيدة الاسلامية . فقد روج بعض المتكلمين (علماء العقيدة) من المتأخرين أن الاعتقاد بتوليد الأسباب لنتائجها يناقض ويعارض الاعتقاد بأن الله هو الخالق للحوداث ، وهونوا من شأنها تهوينا يؤدى الى تعطيل التفكير وربط الأسباب بالنتائج . وروج كذلك فريق من الصوفية أن الأخذ بالأسباب الوصول الى نتائجها ينافى التوكل على الله ، حتى جعلوا المثل الأعلى للانسان الكامل الانسان المستسلم بلا حركة ولا ارادة . وكلا الفكرتين خطأ ، ومخالف القرآن والسنة فما أكثر ما قرن الله تعالى فى القرآن النتائج بمقدماتها ، كنمو النبات بعد نزول المطر فى آيات كثيرة ، وسوق الرياح للسحب ، ونزول الماء منها **(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الأرض بعد موتها (١) ، (وارسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه) (٢).**

---

(١) سورة فاطر : الآية ٩

(٢) سورة الحجر : الآية ٢٢

وكذلك الحديث النبوى كقول الرسول صلى الله عليه وسلم **(ان الله انزل لكل داء دواء فاذا أصاب الدواء الداء برا باذن الله)** . وينتهى الحديث فى احدى رواياته (يا عباد الله الا فتداووا) ويأمر القرآن كذلك باتخاذ الأسباب للوصول الى النتائج . فقد امر بالحذر والانتباه الى الأسلحة فى حال الحرب مع الأعداء ، فى وقت يكون الانسان فيه أشد ما يكون صلة بالله وتوكلا عليه ، وهو وقت الصلاة ، ومع ذلك أمر بعدم الغفلة عن الأسلحة ، وبأخذ الحذر وذلك فى وصف صلاة الخوف اثناء القتال **(واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا اسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم . ود الذين كفروا او تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة (١))** . وفى مثل هذا المعنى قوله تعالى : **(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة (٢))** . ثم ان عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته كان قائما على اتخاذ الأسباب والوسائل فى السلم والحرب . فقد اتخذ السلاح ، وحفر الخندق ، ودبر أمر الهجرة أحسن تدبير ، وأمر بتأبير النخل بعد أن أمر بتجربة تركه فلم يثمر .

سوء فهم عقيدة القضاء والقدر :

وقد أساء المسلمون فى العصور الأخيرة فهم القضاء والقدر فقد فهموا من ذلك الاستسلام للواقع باعتباره نتيجة تقدير الله السابق وقضائه المنفذ وفق ارادته وقد ادت هذه الفكرة الى نتائج خطيرة سيئة ، منها ترك الكسب والارتزاق ، وامثال هذه المواقف التى يوجب فيها الاسلام العمل لتغيير الواقع ويجعل السكوت تقصيرا حينا ، وخطيئة بل اثما كبيرا أحيانا أخرى . والدليل على فساد هذا الفهم أن القرآن دعا الى قتال الكفار والمشركين ، ولا سيما اذا كانوا معتدين ومهاجمين ، ودعا الى دفع الظلم والظالمين ، وجعل الاثم فى السكوت عنهم : **(ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٣))** . قال أبو بكر رضى الله عنه « أيها الناس انكم تقرؤون هذه الآية

---

(١) سورة النساء الآية : ١٠٢

(٢) سورة الانفال : الآية ٦٠

(٣) سورة النساء : الآية ٩٧ ، ٩٨

وتضعونها فى غير موضعها ـ **(يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم (١))** لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

ولو كان الايمان بالقضاء والقدر معناه السكوت والاستسلام لاقتضى ذلك ان يسكت محمد صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه قومه من الفساد والشرك والضلال ، لأنه قضاء وقدر ، ولكن الذى فعله عكس ذلك فقد أنكر ما كانوا عليه ولم يرض به وحاربه حتى ازاله وغيره . وكذلك كان عمل الصحابة ، وهم أعرف الناس بالاسلام ، وكذلك كانت مواقفهم سواء فى انكار المنكر ، ام فى العمل سعيا فى طلب الرزق وتخلصا من الحاجة والفقر . وحينما اعترض على عمر وقيل له أتفر من قدر الله ؟ قال : أفر من قدر الله الى قدر الله . وهذه المعانى كلها مأخوذة من قول الرسول صلى الله عليه وسلم « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وكيف يكون هذا التفسير الاستسلامى للقدر صحيحا ، والقرآن نفسه يدعو الى انكار المنكر بل الى تغييره فى مثل قوله تعالى : **((ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون (٢)))** . وقوله : **((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (٣)** .

الزهد والتوكل :

ومن جملة ما أحدث من التشويه والتغيير لتعاليم الاسلام ومفاهيمه وأدى الى تلك النتائج السيئة تبديل مفهوم التوكل . ذلك أن المتأخرين فهموا من التوكل ترك الأخذ بالأسباب ، واهمال سنن الله فى هذا الكون ، والاستسلام دون حركة أو عمل للوصول الى غاية أو هدف ، كالنصر على الأعداء أو الحصول على الرزق . ولو كان هذا الفهم صحيحا لكان أولى الناس بتطبيقه سيد المتوكلين ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه اتخذ للنصر أسبابه ، واتخذ الأدوية لنفسه ولغيره وعالجه الحارث بن كلدة الطبيب العربى وغيره ، وكان يذكره لأصحابه ليعالجهم . وكذلك كانت خطة الصحابة فى معالجة الأمور واتخاذ الأسباب والسعى فى طلب المعاش .

ان هذا المفهوم المشوه للتوكل أضيف اليه مفهوم مشوه آخر للزهد فأدى ذلك الى ركود الحياة الاقتصادية . فقد ظهرت بعد عهد الصحابة دعوة دخيلة الى ترك الدنيا والانصراف الى العبادة بمعناها الضيق واشادة بالفقر ودعوة

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٠٤

(٣) سورة الرعد : الآية ١١

اليه . واحتج أصحاب هذه الدعوة بالتوكل على الله ليؤيدوا دعواهم وبالغوا في ذلك مبالغة كبيرة وأورثوا الأمة بلاء وضعفا .

وقد أدرك السلف الأول من المسلمين انحراف هذه الدعوة عن الجادة الاسلامية القويمة ، وظهر نقدهم على لسان امام أهل السنة أحمد بن حنبل ، فقد قيل له ان فى المسجد جماعة لا يعملون ويقولون انهم متوكلون . فقال رحمه الله : هؤلاء مبتدعة ، هؤلاء قوم سوء أرادوا تعطيل الدنيا . ولما قيل له : انهم يحتجون بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : **لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا** . فقال أى شيء هذا غير العمل ؟ : تغدو وتروح . وفى قول آخر له : انهم نسكوا نسكا أعجميا (١) . وهكذا ميز الامام أحمد بين نوعين من الزهد والتنسك زهد اسلامى أصيل ، وزهد أعجمى دخيل تسلل من الملل الأخرى كالبوذية والهندوكية عن طريق من أسلموا ولم يحسنوا فهم الاسلام أو فهموه من خلال مفاهيمهم الدينية السابقة .

والحقيقة أن الاسلام يدعو الى مفهوم معين للزهد وهو ايثار الآخرة على الدنيا ، والعمل فى هذه الدنيا على أساس أن الحياة الآخرة هى الغاية ، وان الدنيا وما فيها لا تقصد لذاتها ، ولا تكون هدفا أو غاية ، وانما هى وسيلة ، ولكنها وسيلة لا بد منها ويمكن أن نلخص نظرة الاسلام فى هذا الموضوع فى المبادىء والأفكار التالية :

١ ـ السعى لكسب الرزق وتحصيل المال حلال بل مطلوب لكف النفس عن السؤال وسد حاجة العيال ونفع العباد .

فقد سمى الله فى القرآن العمل والكسب (ابتغاء من فضل الله) فى مواطن عديدة ، حتى كأن التارك للعمل معرض عن فضل الله . وسمى ما ينتفع به الانسان فى هذه الحياة وما يتمتع به (زينة الله) و (الطيبات) ، وندد بمن يحرمه فى قوله تعالى **(قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق (٢))** ووجه الانسان الى استثمار ما فى الكون مما ينتفع به كلما ورد ذكر شيء ينتفع به فاذا ذكر الماء اعقبه بقوله **(لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (٣))** ، وان ذكر الانعام قال **(لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون (٤)**

---

(١) الف محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ ابى حنيفة رسالة بعنوان : الاكتساب فى الرزق المستطاب وألف أحد ائمة الفقه الحنبلى أبو بكر الخلال رسالة لطيفة فى الحث على العمل أورد فيها هذه الاقوال وهى تدل على الاتجاه الاسلامى الاصيل وهما مطبوعتان .

(٢) الاعراف الآية : ٣٢

(٣) النحل الآية : ١٠

(٤) النحل الآية ٥

وان ذكر البحـــر عـــدد منافعـه فقـــال (**لتاكلوا منـه لحمـا طـريا وتستخرجوا منه حلية تلبســونها وترى الفلك مواخر فيـه ولتبتغوا من فضله (١)**) . ويذكرنا القرآن دائما بأن الكون وما فيه « مسخر » و «مذلل» لنا مشيرا الى الانتفاع بهذا التسخير والتذليل .

والأحاديث النبوية التى تحضنا على العمل بأنواعه كثيرة . فمنهـا ما هو عام ، كقول الرسول الكريم صلوات الله عليه (**الخلق كلهم عيـال الله وأحبهم اليه انفعهم لعيـاله**) وتفضيله الرجل الذى قيل انه يعمل وينفق على أخيـه المنصرف الى العبادة دون عمل ، ومنها ما هو خاص بنوع منه كالزراعة كقوله (**ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه انسان أو دابة أو طـير الا كان له به صدقة**) وقوله (**اذا قامت القيامة على أحدكم وفى يده فسيلة فليغرسـها**) وكقوله فى العمل اليـدوى (**أطيب كسب الرجل عمـله بيده**) وقوله (**من أمسى كالا من عمل يده بات مغفورا له**) . وهـذا هو الفهم الذى فهمه الصحابة ، وظهر على السنتهم وفى افعالهم . فمن ذلك قول عمر (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وان الله انما يرزق النــاس بعضهم ببعض) . وكان المهاجرون من الصحـــابة اكثر ما يشتغلون بالتجـــارة ، ومنهم أبو بكر وعمـر وعثمـان وعبد الرحمن بن عوف ، وكان الأنصار أكثرهم يشتغلون بالزراعة . واما أهل الصفة فهم اللاجئون الى المدينة بسبب اسلامهم ، فكانوا ، بسبب ضعفهم أو فقرهم ، يجلسون فى صفة المسجد النبوى (دكة مرتفعة) ويعاونهم اخوانهم المؤمنون ريثمـا تتحسن حالهم فاذا تحسنت حالهم وأمكنهم العمل والكسب خرجوا . هذا وان الفقر مصيبة استعاذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرنها فى اســـتعاذته بالكفر فقال (اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر) . فكيف يصبح الفقر أمرا مطلوبا ومرغوبا فيــه وممدوحا لذاته . ان هذا قلب للحقائق التى جاء بها الاسلام وتشويه لتعاليمه . واما ما ورد فى مدح الفقراء ودعوتهم الى الصبر ، فذلك علتـه ظاهرة واضحة فالدعوة الى الصــبر على المصائب اذا لم يستطع لها الانسان دفعـا أمر معقول جـدا ، وكذلك بيان أن الفقر لا يشين الانسان ، كما ان الغنى ليس مزية ، وأن الأغنيــاء يغلب عليهم اللهو والترف المؤدى الى الفسق وأكثر معارضى دعوات الانبيـــاء منهـم ، وكثيرون منهم يظلمون الناس . وفى مقابل ذلك أكثر المستجيبين للأنبـــاء والمصلحين هم من الفقراء ، فالمعارضون لنوح عابوا عليـه اتبـــاعه الفقراء (**وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى (٢)**) ذلك لأن الأغنياء بسبب اعتدادهم بأموالهم واستعلائهم بها على الناس ـ يستكبرون عن اجابة دعوات

(١) النحل الآية : ١٤

(٢) هود الآية : ٢٧

الاصلاح . ومن هؤلاء نماذج ذكرهم القرآن كصاحب الجنتين (١) وقارون (٢) واغنياء قريش **(اما من استغنى فانت له تصدى)** (٣) . وصاحب المال الممدود الوليد بن المغيرة **(ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع ان ازيد كلا انه كان لآياتنا عنيدا (٤))** .
وعلى هذا كان من الحكمة فى الاسلام رفع الروح المعنوية عند الفقراء واشعارهم بالعزة بسبب ايمانهم وموقفهم الى جانب الحق ، وافهام الناس أن الغنى ليس فى ذاته مزية تعلى من شأن صاحبها . هذا تأويل ما ورد فى هذا الباب فى الفقر والفقراء وهو لا يتعارض مع الأصل الأول وهو أن الفقر مصيبة يجب السعى التخلص منها .

٢ _ اما الأصل الثانى او الفكرة الثانية المتممة للسابقة فذلك أن السعى فى كسب الرزق وجمع المال لا يجوز أن يستغرق نشاط الانسان ويصبح همه الشاغل ولا أن يكون المال نفسه غاية مقصودة والمحبوب الأسمى ولا أن يكون القيمة العليا . فقد حارب الاسلام هذا الاتجاه الذى يتجه نحوه الماديون الذين يجعلون المال او الانتاج او النشاط الاقتصادى الهم ومحبوبهم وغاية وجودهم . فقد ورد فى الحديث النبوى **(تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة تعس وانتكس)** وورد فى كتاب الله **(قل أن كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتى الله بامره والله لا يهدى القوم الفاسقين (٥)** .

٣ _ اما المبدأ الثالث فهو أن المال يجب أن يكسب من طريق حلال مشروع ليس فيه استغلال للآخرين ولا اضرار بهم فالربا والسرقة والقمار والاحتكار والغبن الفاحش والمتاجرة بالمواد الضارة بالناس كالخمر والحشيش كل هذا وامثاله حرام وممنوع .

لقد افضنا فى بيان موقف الاسلام من هذه القضية الهامة أعنى النشاط الاقتصادى لبيان معرفة مدى الانحراف الذى حصل فى عصور الانحطاط والتخلف ومدى ما اوصل اليه من نتائج ضارة .

---

(١) سورة الكهف
(٢) سورة القصص
(٣) سورة عبس : الآية ٥ ، ٦
(٤) سورة المدثر : الآيات ١١ _ ١٦
(٥) سورة التوبة : الآية ٢٤

اهمال الجانب الاجتماعى :

من جملة أسباب الانحراف والتشويه اغفال الجانب الاجتماعى من الاسلام اغفالا كبيرا ، والانصراف الى العبادات بمعناها الضيق ، والى الجانب الفردى من آداب وسنن ، سواء فى الأمور المطلوبة المأمور بها أو المحظورة المنهى عنها ، بحيث ان المثل الأعلى للمسلم فى عصر الانحطاط هو الانسان المعتزل للمجتمع ، المنصرف لعباداته الخاصة ، التارك للمحرمات . وانحصرت مقاييس التقوى فى هذا المجال الفردى أو الشخصى ، ولهذا نرى أن الجوانب التالية أصابها بعض الاهمال بل الاهمال التام أحيانا :

(أ) القضايا العامة التى تهم المسلمين عامة أو مجتمعا من مجتمعاتهم سواء أكانت مبدأ من مبادىء الاسلام العامة كالجهاد مثلا أم حادثة هامة كمأساة الأندلس بالنسبة الى مسلمى المشرق . فالجهاد لم يكن يذكر بالتأكيد ويعطى من الأهمية بمقدار ما تذكر وتكرر بعض السنن والآداب المتعلقة بالحياة الشخصية ، بحيث يكاد يرسخ فى الأذهان أن هذه السنن والآداب أعظم شأنا من الجهاد او تعدله على الأقل . فبينما نرى القرآن الكريم يكرر ويلح ويؤكد فى موضوع الجهاد والقتال فى سبيل حماية الاسلام ومبادئه وفى سبيل المستضعفين وكذلك الأحاديث النبوية الواردة فى هذا الموضوع وكل ما يتعلق به من اعداد السلاح وغيره ، نرى أن هذا كله لا يذكر فى متون الفقه الصغيرة ولا فى أكثر الخطب والمواعظ والدروس . وكان هذا سببا فى ضعف الوعى السياسى بل فقدانه . ومن هذا الباب كثير من القضايا التى أولاها الاسلام عنايته وأكد عليها ، كمقاومة الظلم سواء أكان ظلم الحكام أم ظلم الأغنياء المانعين للزكاة والمستغلين لفقر الفقراء فما أكثر ما ورد فى هذا الباب .

ومن هذا القبيل ايضا الاهتمام بمعالجة الفقر باعتباره آفة اجتماعية بجميع الوسائل ، والاهتمام بنشر العلم الذى ينفع المسلمين فى دينهم ودنياهم .

ولو رجعنا بذاكرتنا الى صدر الاسلام لوجدنا أن هذه القضايا كانت تحتل محل الصدارة . فالآيات والأحاديث الواردة فى الجهاد شديدة اللهجة ، وتضع الجهاد فى قمة العبادات ، وتجعله أثقلها وزنا فى القيمة والأجر ، وكذلك اقامة العدل ومنع الظلم والاشتغال بالعلم ، كل هذه الأمور جعلها الاسلام فى المنزلة الأولى كما تشير الى ذلك الآيات والأحاديث .

(ب) حقوق العباد سواء أكانت حقوقا مادية مالية أم معنوية :

ان المسلمين لم يجهلوا فى وقت من الأوقات حكم الاسلام فى حقوق الناس بوجه عام ، فهم يعلمون أن الربا استغلال حرام ، وان الغش والاحتكار ونقص المكاييل والموازين حرام ، وان اغتصاب شبر من أرض أو شيء من المال بغير حق حرام ، وأن المهر حق من حقوق المراة ، وأن المال الموقوف على جهة لا يحل الا لتلك الجهة ولكن هذه الأمور المتعلقة بحقوق الناس أصبحت مرتبتها فى ضمير كثير من الناس ، وعلى لسان الوعاظ فى الدرجة الثانية . ذلك انهم عنوا أكثر ما عنوا بمظاهر العبادات ، وبما ابتدعوه من أذكار وعبادات ، ظنا منهم أنها هى التى تنجيهم عند الله ، وانها تكفر عنهم وتغفر لهم ظلمهم للناس . فتجد الرجل يصلى ويصوم ويحج ، وربما زاد على الفرائض بما يتطوع به من هذه العبادات ، وربما زاد عليها ما ابتدعه الناس ، وهو فى الوقت نفسه لا يهتم بدين يماطل فى أدائه ، وأجحاف بحق عمال يشتغلون عنده ، واحتكار لأقوات العباد ، وربح فاحش يربحه على حساب المستهلكين من عباد الله ، أو اهمال لما يترتب عليه الوفاء به كاخلاف الوعد فى تنفيذ عقد كما يفعل كثير من الصناع من النجارين والحدادين والخياطين وغيرهم ، وكالاخلال بالعمل الذى يكلف به فى مقابل أجر أو الغش فى الصناعة التى يصنعها . كل هذه الحقوق التى تتعلق بالذمة ، ولا تمحو العبادات اثم الاخلال بها وهضمها تجد الاهتمام بها قليلا ، مع أن الاسلام جعلها فى المرتبة الأولى بعد توحيد الله وأولاها عنايته ، بل ان من واجب المسلم أن يبحث عما يحتاج اليه عباد الله ، فيحاول أن يسد حاجتهم ويعينهم ، كأن يعين جاره أو صاحبه ، اذا وجده فى حاجة الى مال أو طعام أو أى نوع من أنواع المساعدة المشروعة فان لذلك من الأجر ما يفوق بدرجات النوافل من العبادات . ولو رجعنا الى الأحاديث النبوية لوجدنا تشديدا وتأكيدا على هذه الناحية من نواحى الاسلام ، سواء من ناحية الامتناع عن الايذاء واكل حقوق الناس ، كقوله عليه الصلاة والسلام : **« من غش فليس منا »** وقوله : **« من احتكر فهو ملعون »** أم كان ذلك عملا ايجابيا مطلوبا كقوله عليه الصلاة والسلام **« من نفس عن اخيه كربا نفس الله عنه كربه يوم القيامة »** وقوله الذى يتضمن قاعدة اجتماعية رائعة : **« الخلق كلهم عيال الله واحبهم الى الله انفعهم لعياله »** .

الآداب الاجتماعية :

ان هذا الجانب وان لم يكن فى مرتبة الجانبين السابقين ، من القضايا العامة وحقوق العباد ، لكنه كذلك ذو شأن وأثر فى تماسك المجتمع وتعاونه

ووحدته . فان المسلمين فى عصور التخلف الأخيرة ، حين عنوا بالجانب الفردى الشخصى ، عنوا بالآداب الفردية المتعلقة بذات الانسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين . فقد يكون المسلم فى ذاته نظيفا ولكنه لا يبالى أن يلقى القمامة فى طريق المسلمين ، ناسيا أن (اماطة الأذى عن الطريق من شعب الايمان) ، كما ورد فى الحديث . وقد يكون المسلم مراعيا لأحكام الطهارة وشروط النظافة فى نفسه ، ولكنه لا يبالى أن يلوث للناس طرقهم واماكن جلوسهم ، وأن يخل بالآداب الاجتماعية التى أمر الاسلام بها فى هذا الموضوع .

ان ماذكرناه آنفا من اهمال الجانب الاجتماعى من الحياة ، فى هذه النواحى الثلاث التى عددناها ، اخل بتماسك المجتمع وادى الى ضعفه وتخلخله ، وفسح المجال فيما بعد لدخول المذاهب الأجنبية واصحابها ، بحجة الاصلاح والنهضة والتحرر من التخلف ، فتسللت الى الجيل الذى لم يعرف الاسلام على حقيقته ، وانما عرفه فى الصورة المنقوصة المشوهة التى وجد عليها المسلمين ، فظن هذه الصورة هى الاسلام فأعرض عنها وعن الاسلام الذى ظنه اياها ، وأقبل على هذه المذاهب يأخذها ويدعو اليها .

تشويه العبادة :

لقد أصاب العبادة ، وهى جزء أساسى من نظام الاسلام الشامل ما أصاب غيرها من تشويه . أن العبادات الأساسية كالصلوات الخمس وصوم رمضان والحج لم تتغير ولكن الذى حدث فى هذا المجال من انحراف هو :

١ ــ عزل العبادة عن بقية احكام الاسلام حتى كان الاسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلا وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية . ومع ان أكثر الناس ان لم نقل كلهم يعلمون ان الاسلام ليس هو العبادة المخصوصة فحسب ، فانهم اهملوا الجوانب الأخرى ، وغضوا النظر عنها وانزلوا مرتبتها . ودعا فريق من المرشدين الى الاعراض عما سوى هذه العبادات ، فالجهاد وانكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل فى جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة ، كل ذلك فى نظر هذا الفريق من الناس ــ وما أكثرهم فى عصور الانحطاط ــ فضول يشغل عن الله وعن عبادته ، واشتغال الانسان بما لا يعنيه . وقد جهلوا ان هذا من صميم العبادة بل اكثره من الفروض العينية او فروض الكفاية . وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى فى الاسلام شاملة لجميع الواجبات التى أوجبها الاسلام ، من عبادات خاصة وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة فى المعاملة واحسان ،

كل ذلك مقرونا بتوحيد الله والاخلاص له ، اصبحت مقاييس التقوى محصورة فى العبادات بالمعنى الخاص الضيق من صلاة وصوم وحج وعمرة .

وهكذا أعانت هذه الفكرة التى عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الاسلامى الشامل على ضعف الوعى السياسى والاجتماعى بل الأخلاقى .

٢ ـ ابتداع عبادات جديدة ، بعضها من جنس العبادات الاسلامية كصيام أيام لم تشرع ، واختراع أدعية مخصوصة ملتزمة ، أو التزام أوراد واذكار بأعداد كبيرة جدا أو من غير جنس العبادات المشروعة كالنذور للقبور او اتخاذ أعياد ومواسم واحتفالات عندها ، أو فى أيام مخصوصة ، وغير ذلك مما شاع وانتشر فى البلاد الاسلامية فى صور متعددة مختلفة حتى غدت العبادة فى أصلها المشروع وزياداتها المبتدعة الشغل الشاغل الذى لا يبقى مكانا لجهاد أو لعمل اجتماعى نافع أو للتفكر فى قضايا عامة تهم المسلمين ، ولا سيما اذا لاحظنا بدقة أن الغاية التى كان يوجه اليها كثير من المرشدين ويغرسونها فى نفوس أتباعهم هى (الوصول) الى الله والى (المعرفة) وحصول (الفتوح) لهم ، وهذا يكون فى زعمهم عن طريق الانشغال الكلى بالعبادات بمعناها الضيق الذى ذكرناه ، والذى هو مزيج عجيب من أمور مشروعة وأمور مخترعة مبتدعة ومع تغيير فى نسب الأشياء ومقاصدها الأصلية . فى حين ان الاسلام وجه أتباعه الى تحرير الناس من العبوديات أى تحقيق معنى (لا اله الا الله) أى جعل الخضوع لله وحده دون غيره فى الفرد والجماعات ، وهذا يقتضى عملا وجهادا أو استعدادا . وبينما نجد معنى (الولاية) فى نصوص القرآن والسنة هى مناصرة المسلم لله ولدينه ودعوته وتوحيده وشريعته باخلاص لا يقصد منه الا مرضاته ، أصبحت الولاية بالمعنى الآخر (منزلة باطنية) يصل اليها الانسان عن طريق العبادات المخصوصة التى وصفناها وعن طريق العمل الفردى والانعزال ، وترك ما لا يعنى أى ترك القضايا العامة من جهاد وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ودفاع عن الضعفاء والمظلومين ووقوف أمام الطغاة والظالمين . وعلامات الولاية بالمعنى الأول تحمل المشاق والشدائد وبذل المال والنفس فى سبيل اعلاء كلمة الله وذروتها الشهادة ، فان علامات الولاية بالمعنى الثانى هى فعل الخوارق والكرامات . ولم يرد لفظ (الولاية) فى القرآن والسنة وكلام الصحابة والتابعين الا بالمعنى الأول الذى ذكرناه وهو المناصرة فالناس فى الاسلام فريقان (أولياء الله) أى انصاره على مراتبهم فى هذه النصرة واخلاص نفوسهم فيها وحسن قيامهم بحقها و (أولياء للشيطان) أى انصار له من انصار الشر والرذيلة والظلم والباطل والشرك والالحاد على مراتبهم كذلك ، والله سبحانه (ولى الذين

آمنوا) أى نصيرهم والمؤمنون بعضهم (أولياء) بعض أى نصراء لهم ولو استعرضت جميع آيات القرآن لما وجدت غير هذا المعنى .

٣ ـ اقامة العبادة مقام العمل ، فقراءة القرآن وتلاوته لفظا أصبح بديلا عن العمل بما فيه ، من آيات الجهاد والنظر الى الكون والتفكير فيما خلق الله واقامة العدل والميزان بالقسط والحكم بما أنزل الله واستثمار ما فى الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة .

ومثل هذا جعل العبادة نفسها بديلا عن الأسباب لانتاج النتائج فبينما كان الرسول صلوات الله عليه يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ويدعو الله ويبتهل اليه لينصره اذا بالمسلمين فى هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء ، المأثور منه والمبتدع المخترع ، بديلا عن اتخاذ الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر ، لا بأسبابها المشروعة التى جعلها الله سببا وطريقا اليها ، بل بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها وربما اخترعوا لذلك رقى وتمائم وزيارات لأمكنة خاصة وأورادا ابتدعوها ، مع ان طريق الاسلام فى كتابه وسنة نبيه فى هذا ظاهر واضح وهو التوجه الى الله بصدق بطلب المقصود واتخاذ ما أمر الله ورسوله به من الأسباب وما جعله الله سنة من سننه للوصول الى الأهداف المقصودة وهذه هى الطريق التى سلكها النبى نفسه عليه الصلاة والسلام فى انجاح دعوته وبلوغ النصر والتماس الشفاء وما وجه اليه أصحابه .

هذه هى الصورة التى انتهت اليها العبادة فى الاسلام بعد أن كانت فى أصل الاسلام وفى تطبيقه الأول القوة المحركة للنظام كله والموصلة بين العقيدة وأنظمة الاسلام فى الحياة فهى تجعل العقيدة حية فى النفس وتقلبها الى شعور وعواطف دافعة .

وليس السلوك المثالى فى حياة الفرد وجهاده فى المجال الاجتماعى لاعلاء كلمة الله وتحقيق المثل العليا الا نتيجة مباشرة للعبادة فى أشكالها وأنواعها المعروفة المشروعة . فالصلاة مثلا فى حياة الرعيل الاول من الصحابة كانت على مستوى جهادهم فى سبيل الدعوة بل كانت مددا مستمرا لهذا الجهاد مصفية ومزكية له ليكون خالصا لله ومرضيا له وصدعا بأمره ولذلك ورد فى الكتاب الكريم (واستعينوا بالصبر والصلاة) (١) .

لقد نشأ فى العصور التى انحرفت عن الاسلام طبقتان طبقة انصرفت الى العبادة بمعناها المحدود الضيق ، وتركت المجالات العامة التى يعتبر الاسلام

---

(١) البقرة الآية : ٤٥

العمل فيها عبادة ايضا ، وانعزلت عن المجتمع وقضاياه ، وطبقـــة مترفة فتنت بالدنيا وشهواتها ، وانغمست فيها ، فشغلت بها عن العمل للاسلام، والاهتمام بأمر المسلمين . واكثر هذه الطبقة من الأمراء والحكام وحاشيتهم كما حدث فى الأندلس وفى العصر العباسى وكانوا من أسباب انحــلال دولة الاسلام والكوارث التى أصابت المسلمين .

ضعف الوعى الشامل للاسلام :

ان ما ذكرناه من قصر العبادة والتقوى على العبادات المخصوصة واهمال الجانب الاجتماعى كاقامة العدل ومنع الظلم والطغيان والقيام بأمر الجهاد أو جعل مرتبته فى الاهتمام دون الاهتمام بالآداب والسنن الفردية والعبادات نشأ عن أمر هام هو ضعف ادراك الاسلام ادراكا شاملا ، وتحتاج هذه الفكرة الى شىء من التوضيح :

يلاحظ أن القرآن ذكر امورا وطلب اعمالا وكرر ذكرها وطلبهـا وأكد ذلك تأكيدا يظهر من قرائن الكلام كأن يقترن الطلب بالتهديد كاقتران النهى عن الربا بقوله : (**فاذنوا بحرب من الله ورسوله**) (١) أو قوله فى معرض النهى عن المعصية وتفضيل الشهوات الدنيوية (**قل ان كان آباؤكم وأبنـاؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى ياتى الله بامره والله لا يهدى القوم الفاسقين** (٢) أو ذكر العقوبة الشديدة فى الآخرة جزاء للفعل كالذى يفر من القتال من غير عذر (**فقـد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير** (٣) .

وطلب القرآن أمورا هى من باب الآداب كقوله تعـالى : (**اذا قيل لـكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم** (٤) وكقوله فى استئذان الأولاد البالغين فى الدخول على آبائهم (**واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا**) (٥)

فليس الاستئذان المطلوب هنا فى رتبة الجهاد مثلا وبين النوعين مراتب ودرجات كثيرة . ومثل هذا يلاحظ فى الحديث فليس ما ورد فيه من آداب

---

(١) البقرة ٢٧٩

(٢) التوبة ٢٤

(٣) الانفال ١٦

(٤) المجادلة ١١

(٥) النور ٥٩

الجلوس أو الطعام والشراب او التحية فى منزله الجهاد والارتباط بالجماعة الاسلامية أو دولة الاسلام ويظهر هذا كذلك من صيغة الحديث وطريقة التعبير وقرائن الكلام كالتشديد والتهديد فى الأحاديث التالية :

(من مات وليس فى عنقه بيعه فقد مات ميتة جاهلية) .

بمعنى أن الانتماء الى الدولة الاسلامية والحكم الاسلامى فرض مؤكد جدا لا يجوز التخلى عنه . وكذلك الحديث الآخر فى قوله صلى الله عليه وسلم :

(من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو فقد مات ميتة جاهلية) .

فهو دليل على اهمية الجهاد ومنزلته بين الأعمال المفروضة المطلوبة .

وكذلك فى المنهيات كقوله عليه الصلاة والسلام فى التنديد بالربا والاستغلال المالى المحرم **(درهم من ربا أشد من ست وثلاثين زنية ادناها كالذى يزنى بامه) .**

ولو سمعت الأحاديث المتعلقة بآداب الطعام والتحية واللباس وما اليها من أحوال الانسان الشخصية لوجدت فيها الحض والاستحسان ولكنك لا تجد فيها هذا التشديد والتهديد ، ولا تجدها كذلك متكررة فى كلام الرسول عليه الصلاة والسلام كما تجد أحاديث الجهاد والعلم وحفظ حقوق الناس .

لقد أدرك الصحابة خاصة ، والجيل الأول من المسلمين عامة ، الاسلام بجميع أجزائه مع ادراكهم لموقع كل جزء منه ودرجة اهميته وموقعه من الأجزاء الأخرى ، وذلك من (فقه الدين) الذى أشار اليه النبى العظيم صلوات الله عليه فى قوله : **(من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) .**

فان الاسلام نظام كامل يشتمل على أجزاء لكل منها نسبته وموقعه ودرجته وقد أضاع المسلمون المتأخرون فى فهمهم للاسلام هذه النسبة فكبروا وصغروا ورفعوا وخفضوا فبدت صورة الاسلام متغيرة متبدلة وان كان لها ملامح من الصورة الصحيحة (١) وقدروا قيم الناس كذلك بغير المقاييس الصحيحة ، فالقائم بما طلبه الاسلام من اعمال عظيمة مؤكدة كمنع الظلم واقامة العدل ونشر الدعوة الى دين الله واغاثة الملهوف ــ أعظم وأعلى درجة بل درجات من المقتصر على الآداب والسنن والمخل بالأولى أعظم جرما

---

(١) راجع شرح هذه الفكرة فى كتابنا (الفكر الاسلامى الحديث فى مواجهة الافكار الغربية) ص ٦٥ .

ومسئولية من المخل بالثانية وليس الأمر كذلك فى نظر الناس فى العصور المتأخرة .

فالمتعصب لأحد قرابته وعشيرته تعصبا يؤدى الى هضم حقوق الآخرين ، والمستغل لعباد الله الذى لا يعطى الأجير حقه الذى يستحقه ، أو الذى يربح الربح الفاحش الذى يضر بالفقراء ، والمتعاون مع أعداء العقيدة الاسلامية الموالى لهم ، كل هؤلاء على اختلاف ذنوبهم على درجة من الاجرام والانحراف عن الاسلام لا يعدلهم فى قبح أعمالهم التارك لبعض السنن بل المرتكب لبعض الذنوب التى اذا تاب منها قد يغفر الله له مما لا يتعلق بايذاء الناس فى أعراضهم وأموالهم وحقوقهم .

والناس حتى خاصتهم فى عصور الانحطاط يقلبون هذه النظرة فتصغر فى عيونهم ذنوب النوع الأول ـ وهى ذنوب تهدم كيان المجتمع الاسلامى ـ وتكبر فى عيونهم ذنوب المخلين ببعض الآداب والمقصرين فى بعض السنن ، وتلك مصيبة كبرى أصابت المسلمين فى تفكيرهم وفى فهمهم ولا سيما حين يقع فيها العلماء والدعاة الى الاسلام .

ظواهر اخرى فى عصر الانحطاط

١ ـ تشعب الاسلام الى شعب منفصلة :

كان الاسلام فى الأصل كما نزل به الوحى فى القرآن الكريم وكما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدة مترابطة الأجزاء تتصل فيه العقيدة الايمانية بالعبادة والسلوك وهذه كلها تتصل بتنظيم العلاقات الاجتماعية أو الأحكام ومجموع ذلك كله مرتبط بمفهوم الأمة والجماعة والدولة وتتصل بالجهاد لتحقيق مثله العليا من ازالة الظلم واحقاق واقامة العدل .

وكان وعى المسلمين الأولين له ـ ولا سيما جيل الصحابة والصدر الأول ـ مشتملا على القناعة العقلية بحقائق العقيدة وعلى السلوك العملى فى تطبيق أحكامه وعلى الشعور بالمعانى النفسية التى أثارتها آيات الكتاب واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كاستشعار الخشية من الله ورجاء رحمته والخشوع فى عبادته والندم على معصيته والعزم على الجهاد لاعلاء كلمته والرغبة فى بذل النفس والمال فى سبيله .

وقد حدث أن انفصلت هذه الوحدة الحيوية الكاملة التى تضمنها الاسلام فى مصدريه وتمثلها وعى المسلمين فى ضمائرهم الى شعب ثلاث هى :

شعبة العقليات أو الجانب الفكرى فكانت من اختصاص علم الكلام والعقائد .

وشعبة الأحكام العملية او الجانب الفقهى فكانت من اختصاص الفقه وعلمائه .

وشعبة الوجدانيات أو الجانب النفسى والخلقى فكانت من اختصاص أهل الزهد والتصوف .

لقد بدت بوادر هذا الانفصال منذ القرن الثانى للهجرة دون أن يكون متميزا واضح الحدود والمعالم ولكنه كان يزداد تميزا ووضوحا على مر القرون .

فصار هم كل فريق من الفئات الثلاث منحصرا فى ناحية دون غيرها حتى كأنها هى الاسلام فى نظره ويهتم كل فريق بالجانب الذى يعنيه من القرآن الكريم فيهتم أهل الكلام بما فيه من أدلة يحتجون بها تأييدا لمذهبهم وآرائهم . ويهتم أهل الفقه بآيات الأحكام ، ويعنى أهل الزهد والسلوك بعبر آياته وتحريك القلوب بمواعظه وبالمعانى النفسية والأعمال الباطنة أى حركات النفس الخفية وفقا لاشاراته وارشاداته .

وهكذا انفصلت هذه العناصر الثلاثة فى ثلاث دوائر متباينة تلتقى أحيانا عند بعض الشخصيات الاسلامية وقد تتقارب أو تنفصل ، وبذلك تفككت الوحدة الحيوية التى هى قوام الاسلام . وقد نشأ نتيجة لذلك علماء متخصصون فى كل فرع من هذه الفروع الثلاثة ، بل وجد أحيانا فى بعض العصور ولا سيما المعاصرة محترفون صناعتهم علم الكلام أو الفقه ولكنهم ليسوا دعاة الى الله ولا مبشرين بالاسلام ، وقد لا يهتم بعضهم بما يحل بالاسلام والمسلمين من نكبات ومصائب وتبقى ضمائرهم مرتاحة اذا استخرجوا قضية عقلية قد لا يكون لها أى جدوى فى حياة المسلمين ، أو حكما فقهيا فى مسألة متخيلة غير واقعة ، أو تذوقوا حلاوة الوجد الصوفى .

ان هذا الحكم ليس عاما بالطبع ولا نعنى بقولنا هذا انطباق هذا الحكم على جميع المشتغلين بالكلام والفقه والتصوف بل وجد من علماء الاسلام من جمعوا الجوانب الثلاثة ، وكانوا من خيرة الدعاة كالغزالى الذى كان فيلسوفا ومتكلما ناضل عن الاسلام بسلاح الفلسفة ، وكان فقيها أصوليا ، وكان من ائمة الزهد والتصوف على ما فى آرائه أحيانا من مآخذ . وكان ابن تيمية الذى كان صاحب مذهب فى المنطق والعقليات ، وفقيها عظيما بلغ مرتبة الاجتهاد واماما فى الزهد والتصوف الاسلامى السلفى . وشاه ولى الله

الدهدوى الذى جمع فى كتابه (حجة الله البالغة) الاسلام كله بعناصره الثلاثة على سعة فى الأفق ودقة فى الادراك ، وذوق فى الوجدانيات .

ان العصور المتأخرة قدمت الاسلام أجزاء متناثرة مفككة من اعتقادات أساسية صحيحة ، أو فرعية وغير ثابتة ، او دخيلة واحكام جزئية فى مجال الفقه ولا سيما العبادات وقواعد أخلاقية وآداب شخصية ورياضات روحية . فقد ضعف عند المسلمين الادراك الكلى للاسلام باعتباره مذهبا كاملا ونظاما شاملا يتألف من اقسام واجزاء ، لكل منها موقعه ونسبته وقيمته ، ولذلك لم يستطع المسلمون مواجهة العقائد الغازية والمذاهب الحديثة بسبب ضعف ادراكهم للاسلام أو تصورهم له هذا التصور المشتت المجزأ .

لقد خيل لبعض الباحثين كالمستشرق الانكليزى جب ، بسبب هذه الآفة التى اعترت العقلية الاسلامية فى العصور الأخيرة – ان العقلية الاسلامية فى ذاتها عقلية تهتم بالجزئيات لا بالكليات ، وانها عاجزة عن التركيب الفكرى الشامل . والحقيقة ليست كذلك ، فالمسلمون من الصحابة اولا كانوا بالفطرة مدركين لكليات الاسلام واهدافه العامة ، وعلماء الاسلام الأوائل كانوا كذلك مدركين لشمول الاسلام ومبادئه العامة ، والدليل على ذلك ما استخرجه الفقهاء من قواعد كلية معروفة كقواعد ابن نجيم الحنفى ، وقواعد ابن رجب الحنبلى ، ويكفى أن يقرأ الباحث كتاب الموافقات للشاطبى ليقتنع بذلك .

ان خطأ جب وأمثاله من الذين درسوا الاسلام من الخارج انهم خدعوا بالصورة الأخيرة للاسلام لدى مسلمى العصور المتأخرة فحكموا بها على الاسلام نفسه .

ان هذه الآفة التى وضعناها هى التى تعلل لنا ضعف المجتمع الاسلامى امام الأفكار والمذاهب الوافدة ، وانفساح المجال أمامها للتسلل الى داخل المجتمع الاسلامى ، رغم وجود « فقهاء » و « متصوفين » و « علماء كلام » .

لقد حجب الاسلام باعتباره مذهبا محررا للانسانية من الوثنيات ومن الاستعباد والانقسام مذهبا جامعا للمؤمنين به يسلك بهم طريق الجهاد بأنواعه لتحرير العالم كله والسمو بالانسان ، أقول : لقد حجب هذا الاسلام بالمناقشات الفلسفية الكلامية والخلافات الفقهية والشطحات الصوفية .

٣ ـ انقسام المجتمع الاسلامي الى اقسام وعصبيات :

ان اعطاء الجزئيات الثانوية ـ سواء أكان ذلك فى مجال الاعتقادات أم فى مجال الفقهيات ـ شأنا كبيرا ادى الى اعتبار الخلاف فيها نزاعا وفرقة وادى ذلك الى أن تكونت من كل مجموعة من الآراء ، فى المسائل الفرعية ، والقضايا الجزئية ، والثانوية ، مذاهب مختلفة فى الاعتقادات وفى الفقهيات، وكانت الحواجز بين هذه المذاهب سواء منها الفقهية أو الاعتقادية تزداد مع الزمن كثافة وجاءت النزعة الصوفية لتكون تيارا ثالثا يضاف الى النزعتين المذكورتين :

(أ) ففى مجال الاعتقاديات : مثلا طرحت مسائل لم تكن موضوعا للبحث فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم ، ربما كان السبب فى طرحها النقاش مع أهل المذاهب الأخرى من فلسفية ودينية ونقل بعض المسائل المتعلقة بعالم الغيب أو ما وراء الطبيعة الى اطار التفكير العقلى مع أنها مسائل يرجع فيها الى النقل من هذا النوع مثلا مسألة رؤية الله فى الآخرة ومسألة الذات والصفات الالهية ومسألة الآيات المتشابهات كالاستواء على العرش ونسبة الوجه واليد والاتيان والنزول الى الله ، فالصحابة والسلف الأول فهموها كما وردت فى القرآن بحسب الفهم العربى ووفق المعهود من أساليب العرب فى كلامهم ولم يجعلوا منها مسائل فلسفية وخلافية ولا سألوا عن الجنة والنار هل هى مخلوقة سابقا أم انها ستخلق .

ان الصحابة والجيل الأول اهتموا من العقيدة بأصولها القرآنية فآمنوا بالله الواحد الأحد المنزه عن الشرك وبأنبيائه وبخاتم رسله الى الناس وبالحساب فى حياة آخرة ، وجاهدوا لتخليص البشر من أنواع العبودية لغير الله كعبادة الأنبياء أو الصالحين ، أو الملوك ، أو الشمس ، أو القمر ، أو الأصنام . وجاهدوا فى سبيل تحرير المستضعفين من الناس ، وعملوا على ازالة الظلم ، ونشر العدل والعلم ، ومن أجل هذه الأهداف فتحوا البلدان وأسسوا الدولة . واذا بهذه العقيدة الفعالة الدافعة الى أعمال انسانية نافعة تنقلب الى عقلية جدلية وفلسفات نظرية ، تتجمد أخيرا فى مذاهب مختلفة .

(ب) الاتجاه الفقهى : وأما موقفهم من القضايا العملية والمشكلات الواقعية التى تحتاج الى اتخاذ موقف ، والأخذ بحكم فقد كانوا يعملون رأيهم فى حل المشكلة فى ضوء النصوص الواردة فى القرآن والسنة ، وفى ضوء أهداف الشريعة العامة التى وعوها حق الوعى . وقد كانت لهم

اجتهادات مهمة مختلفة سواء فى العبادات أو المعاملات ـ أى التشريعات المالية والتنظيمات الاجتماعية والسياسية ـ ولكن هذا الاختلاف النظرى فى المجال الفقهى لم يكن سببا للعداء بينهم كما حدث فى الخلاف فى قضية اراضى فارس التى فتحت .

وقد نشأ انطلاقا من آراء الصحابة ـ مذاهب فقهية اتخذ لها أصحابها أسسا وقواعد للاستنتاج وكليات عامة ، ثم جزئيات تفرعت عنها فكانت مذاهب ائمة التابعين أولا ، ثم كانت مذاهب القرن الثانى والثالث للهجرة التى منها المذاهب الأربعة وغيرها كمذهب الأوزاعى والليث بن سعد وزيد بن على وجعفر الصادق وابن جرير الطبرى وغيرهم .

لم تكن تلك المذاهب الفقهية فى القرون الأولى للهجرة لتقسم الناس الى أتباع ثابتين ومتعصبين لمذاهبهم ، بل كانت آراء كثيرة مجتمعة على الصعيد الاسلامى يأخذ منها عامة المسلمين ما يشاؤون ، فيتبعون رأى أى واحد من هؤلاء الأئمة المجتهدين ، ما داموا كلهم ينهلون من أصل واحد هو القرآن والسنة النبوية التى وردت ـ بنص القرآن الكريم لتفصيل القرآن وتبيينه ـ وكانت الخاصة كالقضاة مثلا تأخذ منها ما كان أقوى حجة وأصح استدلالا وكانت أهداف الشريعة ومقاصدها التى استخلصها هؤلاء الأئمة المجتهدون من نصوص الشريعة نفسها لا تغيب عنهم فى استخراجاتهم وأحكامهم .

أما ما انتهى اليه الأمر فى العصور المتأخرة فى ميدان الفقه فهو ظهور عدة ظواهر كان لها أثر واضح فى انقسام الناس ـ بحسب البلدان والمناطق ـ الى مذاهب تجمدت وتصلبت . ومن هذه الظواهر :

١ ـ اهتمام الفقهاء بالفروع والجزئيات ـ وبعضها افتراضى خيالى غير واقعى ـ أكثر من اهتمامهم بمقاصد الشريعة وأهداف الاسلام . وهذا الاهتمام بالجزئيات ـ وهى بطبيعتها خلافية بسبب الخلاف فى ثبوت أصل النص ان كان من السنة أو فى فهمه وتأويله ـ جعل الخلاف فيها بنظرهم خلافا ذا شأن كبير فاذا اجتمع الخلاف فى جزئيات كثيرة ولا سيما فى أحكام العبادات كان سببا فى شىء من البعد بين المذاهب المختلفة قد يصل الى حد الجفاء مع المخالفين فى تلك الجزئيات ، وليس كل مذهب من المذاهب كما انتهى اليه الأمر الا مجموعة هذه الجزئيات الخلافية .

٢ ـ اهتمام فقهاء كل مذهب بالأحكام التى استخرجها أمامهم وأتباعه اكثر من اهتمامهم بأدلتها الأصلية من الكتاب والسنة ، ولذلك تدور ابحاثهم ـ اذا بحثوا فى الأصول والأدلة ـ على التماس ادلة الكتاب والسنة المؤيدة لرأى امامهم ومذهبهم بدلا من أن يكون هدفهم التماس ما ترجحه ادلة

الكتاب والسنة من الآراء والأحكام ، وبذلك بقى كل مذهب فى قوقعتـه الخاصة دون أن يحاول الحوار والتفاعل مع المذاهب أو الآراء الأخرى على صعيد الاسلام العام ، وبمقاييس الكتاب والسنة لا غير ، وكلامنا هذا طبعا منصب على العصور المتأخرة دون العصر الذهبى الأول .

٣ ـ اقتصار اهل كل مذهب على النظر الى الاسلام من خلال مذهبهم حتى كان مذهبهم ـ فى اعتبارهم العملى ـ هو الاسلام ، ولو انهم يقولون نظريا ان جميع المذاهب معتبرة ومأخوذة من الاسلام .

٤ ـ ان التمسك بجزئيات المذهب فى العصور المتأخرة واغفال الكليات والمبادىء العامة الماثلة فى الشريعة أو اغفالها ، واهمال العودة الى أدلة الكتاب والسنة أدى بطبيعة الحال الى نوع من الانغلاق فى اطار المذهب وبالتالى الى التعصب للمذهب الذى حل محل الشريعة التى هى أوسع من المذهب وليس المذهب فى الأصل الا فرعا منها ، وفهما من فهوم كثيرة لها .

٥ ـ انتهت المذاهب بطريقتها التى سلكتها فى البعد عن النظر فى الأدلة وفى الانحصار فى المذهب والتعصب له الى وقوف الاجتهاد الذى يقتضى بطبيعته الرجوع الى الأدلة الأصلية واستخراج المبادىء والقواعد الكلية والتجرد من العصبية للمذهب والأخذ بما يثبته الدليل .

٦ ـ ظهر فى العصر الحديث نهضة محمودة أساسها العودة الى الكتاب والسنة ومعرفة الأدلة ومختلف الآراء فى المسائل الفقهية ، وتوسعت هذه الحركة ووضع فى خطط كليات الشريعة فى أكثر بلدان العالم الاسلامى مادة الفقه المقارن ، وهو يشتمل على استعراض آراء المذاهب وأدلتها فى المسائل الفقهية كما وضعت فى بعضها مادة فقه الكتاب والسنة . وهذا هو الطريق الى احياء الفقه الاسلامى المعتمد على أدلة الكتاب والسنة ، ولا شك أن فقه مذاهب الأئمة المجتهدين كنز ثمين يستفاد منه فى هذا المجال خلافا للانحصار فى مذهب واحد .

الا أن من المؤسف أن بعض طلاب العلم الذين أنعم الله عليهم بالاطلاع على هذه الطريقة تولدت عندهم عصبية جديدة دفعتهم الى النظر الى المذاهب وأتباعها نظرة ازدراء وجفاء بل عداء وربما نالوا بألسنتهم أئمة المذاهب أنفسهم فى حين أن مخالفتنا لامام من الأئمة المبنية على دليل أقوى من الكتاب والسنة لا تقتضى الغض من مكانته والانتقاص من فضله ، ولا يجوز أن نعامل أتباع هذه المذاهب الاجتهادية ولو كانوا مخطئين بروح الحقد والعداوة والبغضاء ، وانما الخلاف فى الأسلوب والطريقة ، وفى الأحكام والفروع ، وان تصحيح خطئهم لا يكون بالطعن والمهاجمة العنيفة ، واذا كانت دعوة

المخالف لأصل الدين ، انما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة فما بالك بالمسلم المؤمن .

٧ ـ ان الظواهر التي وصفناها هي الغالبة على اهل العصور الأخيرة ، ولكن من الانصاف القول انه لم يخل عصر من علماء فحول وائمة كانوا منارا للخط السليم والسبيل القويم من حيث رجوعهم الى الأدلة الأصلية واطلاعهم على آراء المذاهب الاخرى المخالفة لمذهبهم وقدرتهم على الترجيح بحسب الدليل دون تعصب .

* * *

(ج) الاتجاه الصوفى :

فى مقابل عناية المتكلمين بالعقليات والفقهاء بالأعمال الظاهرة ، وما يتعلق بها من نصوص وأحكام ، ظهرت عناية فريق من العباد والعلماء منذ أواخر القرن الأول للهجرة بالعبادة واصلاح القلوب وتزكية النفوس ، واشتدت هذه النزعة ردا على الاقبال على الترف والشهوات الذى ظهر وأخذ يزداد ابتداء من القرن الثانى للهجرة فى العصر العباسى . وعرف أعلام من الزهاد المخلصين والعباد الجريئين بأقوالهم وأحوالهم من أمثال الحسن البصرى وسفيان الثورى الذين ضربوا أمثلة رائعة فى التجرد والاخلاص لله والزهد فى الدنيا والجراة فى الحق والترفع عن أموال الأغنياء ، لا شك أن لهذه النزعة أصولها فى الكتاب والسنة ، فالجانب الاخلاقى من الاسلام لا يقتصر على معالجة جوارح الانسان الظاهرة وأعماله الخارجية فيتناولها بالترهيب من العقوبة ـ الدنيوية والأخروية ـ وبالترغيب بالمثوبة ويحكم عليها بالتحليل والتحريم ولكنه يعالجها من داخل النفس الانسانية فيدعو الى « تزكيتها » ينقلها من نفس « أمارة بالسوء » الى « نفس لوامة » ثم الى نفس « مطمئنة » . والفقه كما يقول ابن تيمية فقهان ، فقه الظاهر أو الأعمال الظاهرة ، وفقه الباطن أو الأعمال الباطنة . وهذا الفقه الأخير كما يرى ابن تمية ـ وهو على حق فيما يرى ـ واجب على كل مسلم .

ولكن هذه النزعة أخذت مع تطور الزمن ، وبتأثير عوامل خارجية تدخلت فى طريقها تنحرف انحرافا تدريجيا ، فبدأ الانحراف بالتأكيد على معنى الزهد والعبادة دون غيرهما من معانى الاسلام الكبرى . ثم اشتد هذا الانحراف وظهرت ظواهر كثيرة أهمها تضخيم فكرة الشيخ المرشد والمغالاة فى وصفه وفى الخضوع له . ومنها تشويه معنى الولاية وجعلها مقاما باطنيا يجعل لصاحبها قدرة على التصرف فى الكون ، ومنها المغالاة فى ذكر الخوارق

والكرامات وجعلها مقياسا للتقوى والصلاح ، ثم اشتد الانحراف مرة اخرى فكانت فكرة وحدة الوجود وخلاصتها التباس الخالق بالمخلوق ، واندماج العابد بالمعبود ، ومنها تأويل معانى القرآن تأويلا يخـــرجها عن معناها المقصـــود .

والذى يهمنا الآن فى بحثنا من هذا الموضوع هو أن النزعة الصـــوفية انتهى بها الأمر الى عدة ظواهر تتعلق بانقسام المجتمع الاسلامى والعصبيات الدائرة حول هذه الانقسامات وأبرزها :

١ ـ تكوين النزعة الصوفية اتجاها يقابل اتجاه من يسمونهم أهل الظاهر من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين ، بحيث ترى فى المجتمع الاسلامى فى اى بلد من البلدان انقساما الى اتجاهين ونزعتين ، الاتجاه الصوفى والاتجاه الظاهرى الذى يعتمد على النقد والعقل ، وتجد فى هذا الاتجاه الثانى نزعة أكثـــر وضوحا فى مقابلة الاتجاه الصوفى واشـــد مصادمه له ، وهو الاتجـــاه الذى يدعو الى التزام ما جاءت به الشريعة فى الكتاب والسنة من العقائد والعبادات من غير زيادة فيها ولا ابتداع ولا تغيير ، ولا تأويلات بعيدة سواء من جهـــة الفكر والاعتقاد أم من ناحية العمل تعبدا وسلوكا وهو الاتجاه المعـــروف بالاتجاه السلفى الذى يتمثل فى جلة الصحابة ويستمر متصلا بأمثال الامام مالك والامام أحمد وعدد كبير من أعلام القرون الأولى للهجرة ، ثم يبـــدو متمثلا فى ابن تيمية وابن قيم الجوزية .

على أن من الشطط وعدم الدقة أن نصور المجتمع الاسلامى منذ البداية حتى الآن منشطرا الى سلفيين وصوفيين . فكثير من السلفيين فكرا وعملا يملأ التصوف نفوسهم وتفيض بمعانيه حياتهم ومؤلفاتهم دون أن يخرجوا عن اطار الكتاب والسنة ، وكثير من الصوفيين (١) ملتزمون عقيـــدة وعمـــلا وعبادة وسلوكا بحدود الشريعة ومتقيدون بقيود الكتاب والسنة . ولـــكن فى كل من المجموعتين فئة شديدة الالتزام لنزعتها ، شديدة التعصب لها . والمعارضة لأصحاب النزعة المخالفة يتكون منهما الطرفان المتباعدان .

وقد تفاعلت وتداخلت الاتجاهات السابقة أعنى اتجاه المتكامين العقلى بل الفلسفى أحيانا ، والاتجاه الفقهى المذهبى التقليدى مع الاتجاهين الصوفى

---

(١) ذكر ابن تيمية وهو الامام السلفى عددا كبيرا من هؤلاء الصوفيين الملتزمين غير المنحرفين وأثنى عليهم مرارا فى كتاباته وعدد كثيرا من أسمائهم كالجنيد وعبد القادر الجيلانى وابراهيم بن أدهم ، أنظر الجزء ١٠ و ١١ من مجموع الفتادى المطبوعة بالرياض ويمكننا أن نعد من هؤلاء ابن تيمية نفسه كما يبدو من كتاباته فى هذين الجزئين وابن القيم فى كتابه مدارج السالكين .

الروحى والسلفى النقلى وتكونت من هذا التداخل الوان ونماذج مختلفة ، والغالب على الاتجاه السلفى أن يكون معارضا للغلو فى العقليات والفلسفة ، ومعارضا كذلك للتقليد المذهبى آخذا بمذهب أهل الحديث أو ترجيح الحكم الذى يشهد له الكتاب والسنة ومعارضا أخيرا للنزعة الصوفية أو على وجه الدقة للتصوف المشتمل على بدع فى العقائد وانحراف فى المفاهيم عن الأصل الاسلامى وعلى بدع فى العبادات كالاستغاثة بغير الله ، والتوسل بالقبور وقصدها بالزيارة للدعاء والعبادة وابتداع أساليب من الذكر لم يرد فى السنة مثلها .

ولهذا نجد أن الاتجاه السلفى يعارض المعتزلة أولا لمغالاتهم فى الاستناد الى العقل والاشاعرة والماتريدية ثانيا لكثرة اعتمادهم على العقل فى فهم النصوص المتعلقة بالعقيدة كما يعارض أشد المعارضة الطرق الصوفية المنتشرة فى العالم الاسلامى لاشتمالها على ما ذكرنا سابقا مما يخالف ظاهر الشريعة فى بعض معتقدات متبعيها وتصرفاتهم .

٢ ـ انقسم الاتجاه الصوفى فى العالم الاسلامى الى « طرق » متعددة بتعدد مؤسسيها وشيوخها وان اتفقت فى المبادىء والأفكار بل الأساليب نذكر منها مثلا الشاذلية المنسوبة الى أبى الحسن الشاذلى ، والقادرية المنسوبة الى الشيخ عبد القادر الجيلانى ، والرفاعية المنسوبة الى الشيخ أحمد الرفاعى ومنها النقشبندية المنسوبة الى شاه نقشبند ، أو الشيخ خالد النقشبندى وكثير من هذه الطرق القديمة تفرعت الى طرق بحسب مرشديها وشيوخها جيلا بعد جيل فنشأت طرق حديثة متأخرة الظهور ولكنها متسلسلة من احدى الطرق السابقة كالتيجانية المنسوبة الى الشيخ أحمد التيجانى ، والسنوسية المنسوبة الى السيد أحمد السنوسى .

ان بين الطرق الصوفية جميعا دون ريب لحمة نسب وصلة تفاهم وانسجام ولكن فى كل واحد منها كذلك شعورا بالانفصال عن غيرها من جهة والوحدة والاتصال بين اخوانها من جهة أخرى ، بل ان بينها شيئا من التنافس اذ تفخر كل واحدة منها بشيوخها وعلو منزلتهم فى الولاية وكثرة كراماتهم وشدة قربهم من الله ، وما لهم عنده من دالة تمكنهم من ايصال مريديهم الى مقام المعرفة وحصول الفتوح على أيديهم فى مدة قصيرة .

الخلاصة :

يمكننا بعد استعراض ما تقدم من الوقائع أن نلخص ذلك فى النتائج التالية :

اولا ـ لقد كان العنصر العقلى والعملى الفقهى والنفسى الأخلاقى أمورا مندمجة متفاعلة متعـاونة فى أصل الاســـلام نفسه وفى نفوس أتبـــاعه من الصحابة ومن بعدهم فى القرون الاولى المزدهرة للاسلام ، ثم حصل نوع من الانفصام التدريجى بينها حتى كونت اتجاهات وتيارات بدت متجاورة وانتهت فى كثير من الأحيان الى التقابل والتعارض .

ثانيا ـ لقد كان المسلمون الأولون متفقين على أسس العقيدة كلهـ : واعين لأهدافها يصدرون عن أحكام الشريعة ومبادئها المنصوصة فى القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قد يختلفون فيما قد يتفرع عن ذلك من آراء اجتهادية شائعة بينهم ، يتكون فى مجموعها الاجتهاد الفقهى الملتقى على دائرة الاسلام الواسعة وأصوله ومصادره الأصلية . ثم انتهت الآراء المختلفة فى ميدان العقيـــدة والفقـــه الى مذاهب محددة الاطار ، أضيفت اليها نزعات واتجاهات تتراوح بين الاتجـــاه السلفى والاتجـــاه الصـــوفى .

ثالثا ـ انتهى الأمر بالمجتمع الاسلامى فى العصور الأخيرة الى أن أصبح منقسما انقساما ثابتا الى مذاهب متنوعة تقيم بينهم العصـــبية حواجز فاصلة تقوى باشتداد هذه العصبيات وتضعف بضعفها ، وقـد وضـحت هذه المذاهب فى البلدان الاسلامية وتوزعت فيه ، وقد تتعدد فى البلد الواحد، ولنذكر أبرز هذه المذاهب الباقية :

فالمذهب الحنفى هو الشائع فى بلاد التركستان ـ الموجودة الآن فى اطار دولة الصين والاتحاد السوفياتى ـ وتركيا والأفغان ، ولدى أكثرية المسلمين فى الهند وباكستان وفى سكان بلاد العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، ولا سيما فى المدن ولدى قسم من سكان مصر ، ولدى السنيين فى الجنوب الغربى من ايران المشهورة بفارس . وغالب الأحناف من الأشـــاعرة او الماتريدية .

والمذهب المالكى هو المذهب الشائع بلا منازع فى الشمال الافريقى ، فى المغرب والجزائر وتونس ـ الا قليلا من الحنفية فيها بتأثير الأتراك ـ وليبيا وفى القسم الأكبر من السودان ولدى قسم كبير من سـكان مصر ، وبعض سكان الخليج العربى . وجمهور المالكية يميلون الى المذهب الأشـعرى فى العقيـــدة .

والمذهب الشافعى هو الشائع فى بلاد الأكراد الموزعين بين ايران والعراق وروسيا وتركيا وسورية ، وفى الريف الشامى عموما ـ فى سوريا ولبنـان

وفلسطين والاردن ـ ولدى قسم كبير من سكان مصر والسودان والحجاز واليمن وجنوب الجزيرة العربية والملايو واندونيسيا .

والشافعية يميلون الى مذهب الأشعرية فى العقيدة أيضا .

والمذهب الحنبلى فى العقيدة فى نجد وبوادى الجزيرة العربية ، وعليه العمل رسميا فى المملكة العربية السعودية عموما ، وكان منتشرا فى بلاد الشام فى القرون الماضية ولكنه انحسر ولم يبق الا عدد من قرى دمشق على المذهب الحنبلى ، وكانت دمشق وبعض مدن فلسطين مركزا هاما لهذه المذاهب ظهر فيها أئمة اعلام من ائمته كابن تيمية وابن القيم والمقدسيين . والحنابلة يلتزمون عقيدة السلف ويدعون غيرهم اليها .

هذا بالنسبة للمذاهب المنسوبة لأهل السنة ، وهناك مذاهب اسلامية اخرى بينها وبين مذاهب أهل السنة تقارب فى كثير من الأحكام وهى :

المذاهب الشيعية واكثرها قربا من المذاهب السنية المذهب الزيدى نسبة الى زيد بن على بن الحسين وهو منتشر فى اليمن وفقهم كفقه المذاهب الأربعة الفقهية ولا سيما الحنفى ، ومصادره الفقهية متفقة فى الجملة مع مصادر المذاهب الأربعة وهو مقترن فى ميدان العقيدة بمذهب المعتزلة .

ومنها المذهب الجعفرى نسبة للامام جعفر الصادق ومصادره الفقهية تختلف كثيرا عن مصادر المذاهب الأربعة وان كانت أحكامه الفرعية لا تختلف عنها الا فى جزئيات ، وانما الخلاف فى الامامة وهى بالنسبة للمذهب الجعفرى جزء من العقيدة وما يتبعها من موقف أهل المذهب من الصحابة ولا سيما الشيخين ويسمى أيضا بالمذهب الامامى أو الاثنى عشرى وهو مذهب ايران الشعبى والرسمى ، ومذهب قسم من سكان الباكستان والهند وأذربيجان وقسم كبير من سكان العراق وبعض سكان لبنان وبعض أطراف الجزيرة العربية .

ومذهب الاسماعيلية النزارية (وهو غير مذهب الآغا خانيين) ويشبه المذهب الجعفرى ويتفق معه فى عقيدة الامامة ويختلف معه فى الامام السابع ومن بعده ، وهو مذهب فريق من أهل الهند والباكستان ويعرف أتباعه بالبهرة وبعض سكان البلدان الافريقية الذين هم من أصل هندى .

ومن المذاهب الاسلامية الباقية المذهب الأباضى المنسوب الى عبد الله بن أباض فقيه المذهب الاول وهو احد مذاهب الخوارج الباقية ظهر منذ رفض أصحابه ـ وكانوا يحاربون فى صف الامام على ـ التحكيم ، وخرجوا عليه وبايعوا غيره .

وهذا المذهب منتشر فى عمان فى الجزيرة العربية ، وفى صحراء الجزائر وفى بعض بلدان تونس وليبيا وفى زنجبار على الساحل الافريقى .

وهناك بقايا قليلة من غلاة الشيعة ممن تفرعوا عنهم واتخذوا لأنفسهم عقيدة اخرى . واكثر هذه الفرق المتطرفة أسقطت التكاليف الشرعية من عبادات وغيرها ، واختلطت عقائدها بعقائد غريبة عن الاسلام ، فأصبحت تشعر بالبعد التام والاستقلال الكامل عن الاسلام ، رغم ما بقى لديها من بعض المظاهر الاسلامية . وهذه المذاهب المنشقة عن الاسلام والمستقلة عنه حاليا تحتاج الى ثورة جذرية من داخلها اذا اراد أصحابها العودة الى صعيد الاسلام ، واعتبارهم مسلمين كسائر اتباع المذاهب الأخرى .

ومن امثلة هؤلاء الاسماعيلية الآغا خانية الذين يعتقدون فى أئمتهم نوعا من الالوهية ويسقطون التكاليف الشرعية كالصلاة والصوم ، وفرقه معروفة فى بعض اطراف ايران يسميها أهل ايران باسم (على الله) وهم يؤلهون على ابن ابى طالب ويسقطون كذلك التكاليف الشرعية ، وكذلك الذين يعتقدون ظهور الله سبحانه فى الحاكم بأمر الله الفاطمى ، ويسقطون كذلك الشريعة كلها . ان هذه الفرق كلها لا يمكن أن تعتبر اسلامية فى نظر المسلمين على اختلاف مذاهبهم حتى يتبرءوا من تأليه اى انسان أو اعطائه صفة الألوهية، وحتى يعتقدوا بأن محمد بن عبد الله هو رسول الله وخاتم الرسل ، وأن القرآن وحى من الله نزل عليه ، وان ما تضمنه من الشرائع فى العبادات والمعاملات يجب العمل به . ان هذه الثورة الاصلاحية الجذرية يجب أن تنطلق من أبناء هذه المذاهب نفسها حتى لا تأخذ صفة النزاع والصراع بين المذاهب المختلفة ، وستكون لها نتائج فكرية وسياسية واجتماعية هامة جدا بل ستكون حدا فاصلا فى التاريخ وهى بحاجة الى جراة واخلاص .

* * *

العصبية المذهبية :

بعدما استعرضنا نشوء المذاهب والتكتلات المذهبية سواء أكانت مذهبية عقائدية فكرية ، أم كانت مذهبية فقهية ، أم كانت اتجاها سلفيا أو صوفيا — يمكننا أن نتصور الألوان المذهبية المختلفة التى تنشأ عن هذه المذهبيات والاتجاهات . وقد عرفنا كيف أن الاتجاه المذهبى أو المذهبية فى العصور الأخيرة تختلف عنها فى العصور الأولى للاسلام . فالمذهبية المتأخرة تتصف بالنظرة الجزئية وضيق الأفق خلافا للمذهبية القديمة ، وهى تتصف كذلك بالعصبية والشعور المستقل عن المذاهب المخالفة بل الشعور المعارض الذى

يبلغ أحيانا بالنسبة الى بعض المذاهب حد الشعور بالعداء للمذاهب المخالفة .

ولم تقتصر العصبية على المذاهب السنية بالنسبة الى الشيعيه ، والشيعية بالنسبة الى السنية ، وانما وجدت بين اهل المذاهب الفقهية وأهل الحديث ، ووجدت بوجه خاص وبصورة عنيفة بين السلفيين والصوفيين ، بل وجدت أحيانا بين أتباع المذاهب الفقهية السنية الأربعة ، فكانت صلاة الجماعة تتكرر اماما بعد أمام بحسب المذاهب ، ولا تزال كذلك حتى الان فى مساجد بعض البلدان الاسلامية ، بل كانت تقام الصلاة الواحدة وفى وقت واحد بعدة ائمة .

نتـــائج العصبية :

ليس بحثنا الآن فى اعطاء الحق لجانب على جانب ولمذهب على مذهب ، فذلك يحتاج الى بحث طويل وكتاب خاص ، بل اننا لا نحب ولا نرى أن نقيم من جديد هــذه المعــارك ، ولكن الذى نحب أن نشير اليه هو : ان العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين فى القرون الأخيرة فأضعفت شعورهم بوحدتهم الاسلامية اجتماعيا وسياسيا ، وأرثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الاسلام على اختلاف أنواعهم ؛ وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والاسلام . وقد كان أهمها فى هذا العصر : الاستعمار اى استيلاء غير المسلمين على بلاد الاسلام وجعلها تحت حكمهم **والالحاد والتشكيك** فى الاسلام . وقد كان ذلك مقترنا مع الاســـتعمار ومساعدا له لأن الاسلام وما فيه من مبدأ الجهاد ، وكفر من يوالى المستولين على بلاد المسلمين ، من غير المسلمين يشكل سدا منيعا فى وجه الاستعمار . وقد دخل الالحاد والشك عن طريق الأوروبيين الغربيين أولا سواء أكانوا مدنيين باسم العلمانيــة والعلم وتحتستارهما ، أم كانوا مبشرين بالمسيحية فاكتفوا بتشكيك المسلمين بدينهم مســاعدة للمستعمرين من بنى قومهم لاضعاف مقاومة المسلمين وتمزيقا لوحدة صفوفهم ، ثم استمر انتشاره واشتد عن طريق الشيوعية ومذهبها المادى ، والعدو الثالث المشترك والمسهم مع العدوين السابقين هو **اليهودية العــالمية والصهيونية** . ان ما أحدثته العصبية من جفاء وعداوة وانقسام بين المسلمين المنقسمين الى مذاهب قد شغلتهم عن هذه الأخطار الثلاثة ، وشغلت بعضهم ببعض عن صد غزوات أعدائهم الحربية والفكرية ، فكانت العصبية عونا لأعدائهم عليهم .

ان وصم المخالفين من المسلمين بالكفر والزندقة أو بالزيغ والضلال شائع ومنتشر منذ قرون لمخالفات مذهبية هي من الجزئيات ، وفي المسائل التي يحتمل فيها النص رايين وتأويلين ، أو بسبب بدعة لا يكفر صاحبها ، أو بسبب انكار بدعة او بدع هي في الحقيقة بدع التمس لها انصارها حججا من الشريعة وتعصبوا لها ووصموا منكريها بأشنع الصفات .

ان الانشغال بهذه الخلافيات بين المسلمين وبمعاداة المخالفين من أهل القبلة صرف جمهور المسلمين عن قضايا العالم الاسلامي الكبرى ، سواء منها السياسية كقضايا فلسطين وكشمير والصومال وارتيريا وتنزانيا ، او العقائدية كالغزو العقائدي والفكري .

مقترحات لحل المشكلة وعلاجها :

وحلا لهذه المشكلة التي تحول دون وحدة المسلمين واتفاقهم وتضعفهم أمام الأخطار التي تواجههم وتواجه الاسلام نفسه نقدم المقترحات التالية في ضوء ما استعرضناه من معلومات تاريخية ومن وقائع وهي مطروحة للبحث والمناقشة وقابلة للتعديل تحقيقا للهدف المقصود :

١ ـ مقترحاتنا هذه منحصرة في نطاق الفرق الاسلامية المشتركة في الايمان بالله والحياة الآخرة وفقا للرسالة التي جاء بها خاتم الانبياء والاعتقاد بأن الشريعة التي جاء بها سواء منها العبادات وغيرها واجبة التطبيق .

٢ ـ جعل الخلاف في الامامة وما يتبعها وجهة نظر في السياسة الاسلامية والتاريخ الاسلامي يترك لكل فرقة أن تعتقد في شأنها ما تعتقد ، دون أن تكون هذه العقيدة مسببة لاخراجها **من حظيرة الاسلام شريطة عدم الطعن** في الصحابة ، أو سبهم أو تكفيرهم وعدم الحكم بعصمة الامام وعدم تلقين الناشئة في كل فرقة كره الفرقة الأخرى والحقد عليها والاكتفاء بتخطئتها .

٣ ـ الالتقاء على صعيد اسلامي مشترك ، قوامه الأركان الاساسية للعقيدة الاسلامية وهي توحيد الله والايمان بالنبوة والوحي وبخاتم الرسل والأنبياء ، وبالقرآن كتابا منزلا يجب العمل به وبالحياة الآخرة والجزاء .

٤ ـ اعتبار الخلاف في فرعيات العقيدة التي سبق للمسلمين الأولين أن اختلفوا فيه خلافا غير أساسي لا يجوز أن يكون سببا للتكفير او العداء والطعن والوصم بالزيغ والضلال والاكتفاء ببيان الراى الصحيح وتخطئة الراى المخالف .

٥ ـ تصحيح العقائد المنحرفة التي ظهرت داخل المجتمع الاسلامي من المؤمنين بالله ورسوله وكتابه وشريعته ودعوتهم الى تصحيح انحرافهم المخل بالعقيدة الاسلامية كالاعتقاد بوحدة الوجود المناقضة للمفهوم الاسلامي في الايمان بالله وتوحيده وتنزيهه .

٦ ـ معالجة البدع التى لا تخل بالعقيدة علاجا حكيما لا يثير فرقة ولا يسبب عداء وذلك ببيان الحكم الشرعى فى ذلك دون جعل ذلك شاغلا عن الأمور الأساسية فى الاسلام ، وعن القضايا العامة والمشكلات الكبرى، التى تواجه الاسلام .

٧ ـ جعل الخلاف فى الجزئيات الفقهية الاجتهادية غير ذى أهمية كالخلاف فى كيفية وضع الأيدى فى الصلاة وعـــدد التراويح ورفع الايـــدى فى انتقالات الصلاة وما شابه ذلك حتى ولو كانت الحجة فى جانب احـــد هذه الآراء ولا نقصد بهذا عدم البحث وابداء ما يراه العالم الباحث الوجه الصحيح ، ولكن نقصد عدم اعتبار هذا الخلاف سببا للفـــرقة والانقسام والتنازع .

وبالجملة ترك المعارك الجانبية فى القضايا الخلافية ولو كان المخالف على خطأ اذا كانت اثارتها تسبب عداء بين المسلمين وانقساما والاكتفاء ببيان الرأى الصحيح فى نظر صاحبه ، والتركيز والتأكيد على المبـــادىء الأساسية فى الاسلام ولا سيما فى العقيدة ، وعلى قضايا المسلمين الكبيرة ومشكلاتهم الهامة ونشر التوعية الاسلامية انطلاقا من القرآن والسنة .

العصبيات الأخرى :

الى جانب العصبيات المذهبية هنالك عصبيات من نوع آخر كعصبية الانتماء الى البلد والقبيلة والقومية . وفى رأينا ان العصبية للبلد والقومية لم تكن شديدة بارزة فى العصور الأخيرة فى المجتمع الاسلامى خلافا لما يظن . ذلك ان الانتماء الى الاسلام أو الى مذهب اسلامى معين ، كان غالبا على الحواضر الاسلامية ، بل كانت هذه العصبية أضعف من العصبية الوطنية والقومية فى أوروبا حتى فى العصر الحاضر ، فكثيرا ما كان ينتقل المسلم من بلد الى بلد ومن قوم الى قوم ويحتل الموقع اللائق به بحسب علمه ومنزلته فى البلد الذى ينتقل اليه ، فقد يصبح قاضيا أو موظفا كبيرا بل قد يصبح فيها وزيرا أو أميرا أو زعيما كبيرا . ولا شك أن الفضل للاسلام فى التخفيف من هذه العصبيات التى كانت منتشرة فى العالم ، ولم تبرز العصبية الاقليمية والوطنية والقومية بين المسلمين فى داخل الشعوب الاسلامية الا بعد عصر الاستعمار ، لسببين أحدهما الأفكار الوافدة من أوروبا والتى كان من

جملتها النظريات الوطنية والقومية اذ كان التنافس بل الصراع بين الأوطان والقوميات فى أوربا على اشده . والسبب الثانى هو تقسيم الاستعمار للعالم الاسلامى ، الى أوطان مستقلة تقوم فى كل منها دولة مستقلة على انقاض تقسيمه السابق الذى انتهى اليه فى تطور تاريخه الى أقسام مختلفة . ولكن التقسيم الموروث كان تقسيما مرنا غير ثابت ، وليس له اثر كبير فى وعى الشعب ، وانما كان مظهرا لتنافس الأمراء والدويلات فحسب ، اما التقسيم الذى حدث بعد الاستعمار فقد ترسخ فى القابضين على السلطات وفى وعى الشعب نفسه ، حتى انتهى العالم الاسلامى الى هـذه النتيجة الخطيرة : وهى ان شعور المسلم بانتمائه الى قطر معين كمصر أو سورية أو العراق ، و الى قوميه معينة كالعرب او الاتراك أو الاندونيسيين ، أصبح شعورا قويا شديدا ليس بالنسبة الى الأوربيين المستعمرين فحسب بل بالنسبة الى المسلمين الآخرين المنتمين الى قطر آخر أو بلد آخر أو قومية أخرى ، بل حصل ما هو أشد من ذلك وهو اشتداد العصبيات القبلية والاقليمية فى البلد الواحد والقومية الواحدة . واصبح هـذا الشعور الاقليمى والقبلى والقومى بارزا شديدا يفوق فى كثير من الأحيان الشعور بالانتماء الى الأمة الاسلامية والمجتمع الاسلامى بل قد يقف الشعوران موقف التعارض .

واذا كان الاستعمار قد أقام أسسا فكرية لهذه العصبيات الاقليمية والوطنية والقومية مناهضة للاسلام وكيدا له ومنعا لنهوض المجتمع على اساسه فقد بقيت هذه العصبيات بالرغم من زوال الاستعمار نفسه . ولذلك فان معالجتها تكون بازالة تلك الأسس الفكرية التى أقامها الاستعمار والفكر الغربى واحلال أسس فكرية اسلامية تحل محلها فى تصور المجتمع والعلاقات الانسانية وبناء المجتمع .

ملاحظات واستدراكات

الملاحظة الأولى :

ان ظاهرة التشويه التى اصابت المجتمع الاسلامى فى عصور الانحطاط ، ابتدات من انحراف بسيط وتشوبه لا يكاد يشعر به ثم ازداد الانحراف وكثر التشويه واشتد وانتشر . ان هذا التشويه والانحراف لم يتناول مطلقا المصادر والنصوص الأصلية . فنص القرآن الكريم باجماع المسلمين لم يتغير ولم يتبدل ، وبل ان أبحاث المستشرقين انفسهم انتهت الى النتيجة نفسها . وأما نصوص الحديث النبوى فقد بلغ التحقيق العلمى فى تمحيصها

وتمييزها حدا لم يبلغه اي تحقيق علمي في اي عصر . ولذلك استطاع المسلمون بمذاهبهم المختلفة من المذاهب السنية الاربعة الى المذهب الزيدى والجعفرى الى المذهب الاباضى ، أن يستخرجوا منها شريعة مشتركة متشابهة ، ولم يحدث الخلاف الا فى مسائل محدودة جداً ، ولا يزال مجال التحقيق والبحث فى الحديث للراغب فيه مفتوحا وممكنا .

ولذلك فان من المهم جدا أن الصورة الاسلامية الصحيحة تتراءى بوضوح وتتميز دائما من الصورة المشوهة فلم يحصل فى تاريخ الاسلام تشويه ثابت او انحراف اعترف به اعترافا نهائيا . وههنا تبدو لنا حينئذ الملاحظة الهامة التالية ، وهى نتيجة لما ذكرنا من ثبات الأصول وصحة المصادر واتضاح التشويه والانحراف .

الملاحظة الثانية :

لقد وجد دائما وفى كل عصر من أعلام الاسلام وائمته من كانوا على جادة الاسلام القويمة ، لم يتأثروا بالتشويه والانحراف بل كانوا منارات لتصحيح التشويه وتقويم الاعوجاج والدعوة الى الاسلام الصحيح من مصادره لأصلية الصحيحة ووجد حتى فى القرون الأخيرة التى تلت عصور الازدهار أعلام ابدعوا فى مجالات الفكر ولتشريع الاسلامى كابن تيمية والشاطبى وابن قيم الجوزية .

الملاحظة الثالثة :

اقتصرنا فى الأبحاث السابقة على الجانب الفكرى والعقائدى من المجتمع الاسلامى المعاصر ولم نتناول دراسة التركيب الاجتماعى والوضع الاقتصادى علىما لهما من اهمية وذلك لصلتهما بالأبحاث التاريخية والاقتصادية التى تقتضى تفرغا خاصا نأمل أن يقوم به باحثون آخرون ولاعتقادنا بالأهمية العظمى للجانب الفكرى .

نتائج عصور الانحطاط

ادت ظواهر عصر الانحطاط وآفاته التى وصفناها فيما سبق باستمرار تأثيرها خلال قرون الى نتائج خطيرة وسيئة أوضحناها فى بحثنا السابق وتتلخص فى الأمور التالية :

١ ـ تأخر المجتمع الاسلامى فكريا بوجه عام ، وركود الحركة العلمية المتعلقة بالكون أو الطبيعة بوجه خاص ، فقد ضعف الابداع العلمى ثم زال واختفى ، وفقد المسلمون القدرة على التفكير الكلى الشامل

الذى يستطيع أن يستخرج من الجزئيات الكليات ومن الحوادث سننها وقوانينها العامة وشاع فيهم التفكير الذى يقتصر على النظر فى الجزئيات مبعثرة مشتتة دون القدرة على وضعها فى مواقعها من نظام عام شامل . ولم تقتصر هذه الخاصة على العلوم الكونية أو الطبيعية بل أصابت كذلك التفكير الفقهى فقد ركدت بنتيجة ذلك الحركة الفقهية ووقفت حركة الاجتهاد التى كانت فيما سبق تمكن الفقهاء من حل المشكلات الطارئة فى ضوء مقاصد الشريعة وأهدافها وكذلك الحال فى ميدان العقيدة وعلم الكلام أو علم التوحيد فقد غلب فيه أيضا الاستعراض لجزئيات العقيدة بدلا من عرض النظرات الاسلامية القرآنية الشاملة الى الانسان والكون وخالقهما التى تحيط بتلك الجزئيات وتستوعبها فى منظومات فكرية شاملة .

٢ ـ ركود الحركة الاقتصادية التى ازدهرت أثر انتشار الاسلام وفتوح البلدان وتكوين دولة عظيمة لأمة كبيرة مؤلفة من شعوب كثيرة . فقد توقفت هذه الحركة الاقتصادية فى ميادين الزراعة والصناعة عند مرحلة معينة لا تتجاوزها .

٣ ـ الضعف السياسى والعسكرى : فقد اختفت الدولة العقائدية الاسلامية ذات الأهداف الانسانية والأخلاقية ونشأت مكانها دول السلطان القاهر المتحكم المتنافسة . مع ما رافق ذلك من مظاهر بذخ السلاطين والأمراء وترفهم واستعلائهم . وان وجدت حتى فى العصور الأخيرة امثلة قليلة من الأمراء الذين كانوا نماذج مثالية رائعة فى العدل والزهد والتقشف كصلاح الدين الأيوبى وأوزنك زيب .

٤ ـ التأخر الاجتماعى ولا سيما فى جانبه المادى كشق الطرق وبناء الجسور والمستشفيات والمدارس وتأمين البريد وكفالة العاجزين وسائر الخدمات العامة ذات الصفة الاجتماعية التى كانت مرافقها كثيرة حتى العصر العباسى الأول ، والتى كان يرجى أن تنمو وتزيد وتتطور .

اما الجانب المعنوى أو الأخلاقى من الحياة الاجتماعية فكان متروكا لضمائر الناس وتقواهم وما يصيب تلك الضمائر من ضعف أو فساد ، فبينا كنت ترى أحيانا نماذج رائعة من البر والتعاون الانسانى والأمانة والنصح الخالص من اية مصلحة شخصية ترى من جهة أخرى نماذج مؤلمة من مشاهد الظلم . ظلم الحكام وذوى السلطان والمال واغتصاب الاموال

العامة وبؤس الفقراء والمظلومين مما لم يكن له ضـــابط يضبطه أو رادع اجتماعى يمنعه او يسد نقصه .

***

وقد ادت هذه النتائج السيئة الى ما هو أسوأ منها من تدهور المجتمع الاسلامى تأخرا وتشتتا وضعفا بانتقال مراكز الحضارة والقوة الى أوروبا واتصال المجتمع الأوروبى وحضارته القوية الجديدة النشيطة المختلفة فى تركيبها وأهدافها عن الحضارة الاسلامية بالمجتمع الاسلامى المتدهور اذ لم يعد ضعفه منعزلا ولكنه غدا أمام خصم يطلب النزل فلا يجد منازلا ويجد فراغا فى الحكم والفكر والاقتصاد فيقدم ليسد هـــذا الفراغ لمصلحته ومنفعته .

***

انتقال مراكز الحضارة والقوة الى اوروبا او العالم الغربى :

حين خمدت جذوة الحضارة فى العالم الاسلامى وتوقف مسيرها كانت قد انتقل قبس منها الى أوروبا عن طريق الأندلس وصقلية .

ان ما انتقل من الحضـــارة الاســلامية الى أوربا فأيقظها وأحدث عهد النهضة فيها ودفع حركتها هو على وجه التحديد :

١ ـ العلوم الرياضية التى سار المسلمون بها أشواطا وتجاوزوا فيها من سبقهم فقد اخترعوا علم الجبر واخترعواوتقدموا بعلم المثلثـــات واتسعت وتطورت سائر فروع الرياضيات .

٢ ـ العلوم الطبيعية ومنها الفيزياء كأبحاث البصريات أو الضوء التى الف فيها محمد بن الحسن بن الهيثم مؤلفات ترجمت لى اللاتينية قبل ظهور (كليلة) ونظرياته ، والكيمياء والفلك والطب والزراعة ، وكانت هذه العلوم تقدمت منذ القرن الثانى للهجرة حتى الثامن تقدما كبيرا لم تصل اليه الأمم السابقة ذات الحضارة .

٣ ـ الطريقة التجريبية فى العلوم التى عرفت عنـد المسلمين منذ القرن الثانى للهجرة على الأقل ، اذ نجد الكلام عن التجارب على المعـادن والحيونات فى كتاب الحيوان للجاحظ مما يدل على أنها كانت معروفة مشهورة فى عهده وربما قبل عهده ، ونجدها كذلك عند ابنـاء موسى بن شاكر الفلكيين الثلاثة فى عهد المأمون وعند البيرونى الذى قام لأول مرة

بتجربة دقيقة لمعرفة كثافة الأجسام ، انتهى فيها الى نتائج رياضية دقيقة ، وعند الرازى الكيمياوى وابن سينا وكثير غيرهم .

انتقلت هذه الطريقة الى أوربا وأخذها واستفاد منها فرنسيس بيكون الانكليزى ، وروجيه باكون الفرنسى ، ولم تكن الطريقة التجريبية معروفة عند اليونان لأن طريقتهم السائرة هى طريقة التأمل الفكرى . أما التجربة عندهم فكانت تحدث على سبيل المصادفة ، ولم تكن طريقة مقصودة للبحث .

٤ ـ الفلسفة اليونانية التى كان كثير من آثارها وكتبها ترجمت الى العربية فترجمت منها الى اللاتينية حين ضاعت أصولها اليونانية ، واضيف اليها نتاج المسلمين فى الفكر الفلسفى كنظريات الغزالى وابن رشد وابن سينا الفلسفية والدينية ، وكان لها أثر عميق فى الفلسفة والتفكير الدينى عند الغربيين ، وفى تطويره وتوجيهه اتجاهات جديدة لا عهد لهم بها ، ظهرت آثارها فيما بعد فى النزعات التجديدية فى النصرانية والكنيسة .

أما جانب العقيدة فى حضارة الاسلام وما يتعلق بها من مفاهيم أخلاقية ونظم اجتماعية فقد أعرضوا عنه ولم ينقلوه ويترجموه .

فكانت نتائج هذا الاتصال بين أهل أوربا والحضارة الاسلامية هى النتائج التالية :

١ ـ ظهور نهضة فكرية علمية فى مجال العلوم الطبيعية والرياضية غيرت مجرى التفكير الذى كان تقليديا راكدا قوامه الدراسات الكنسية واليونانية القديمة : وظهر نتيجة ذلك اعلام الكشف العلمى والاختراع الصناعى ، وظهرت النظريات الحديثة فى المادة والطبيعة التى كانت سببا مباشرا فى ظهور حضارة العالم الحديث .

٢ ـ ظهرت نهضة صناعية هائلة أثر الكشوف العلمية التى بنيت عليها الاختراعات الحديثة ، فمن كشف الكهرباء وقوانينها الى اختراع الآلات والمحركات وانشاء الصناعة الكبرى القائمة على الآلة المتحركة بنفسها . وقد أحدث ذلك تطورا هائلا سريعا فى العصر الحديث ومعالم الحضارة وظهر سلطان الانسان على الكون وتسخيره له ، وظهرت المواصلات السريعة للبشر وللأصوات والأشكال وسرعة حركة البشرية ماديا وفكريا ، وتكاثفت واشتدت العلاقات البشرية فى العالم .

٣ ـ اعقب هاتين النهضتين الفكرية والصناعية تطور اجتماعى هائل فى مجال الحقوق الانسانية وتحرر البشر من عبودية بعضهم لبعض لفرد او اسرة او طبقة او قوم ، وتطورت العلاقات الانسانية فى اطار الحكم وفى نطاق المال والاقتصاد تطورا كبيرا .

٤ ـ احدث اتصال العالم الأوربى المسيحى بالحضارة الاسلامية اثرا عميقا فى تفكيره الدينى الذى كان يتصف بالجمود وتشوبه كثير من الشوائب ، فظهرت فى المسيحية وجهات نظر جديدة ، و ظريات غير التى كانت مقررة وظهر النقد الدينى والدراسات المتعلقة بالعهد القديم والعهد الجديد اى كتبهم المقدسة كل ذلك بتأثير ترجمة كتب ابن رشد والغزالى بوجه خاص وغيرهما بوجه عام وكان توماس الأكوينى من أعلام النصرانية الذين تأثروا بهذه الترجمات .

٥ ـ كانت نقطة الضعف الأساسية فى هذه الحضارة الحديثة فى جانبها الخلقى والروحى فقد تردى الضمير الانسانى فى الفرد والجماعات ـ طبقات كانت ام اقواما ـ وتردت انسانية الانسان الحديث انسان الآلة ، وذلك لأسباب كثيرة أهمها الأسباب التالية :

(ا) ما آلت اليه فى أوربا النصرانية التى جاء بها المسيح عليه السلام ، فقد شوهت وشابتها شوائب كثيرة فى المعتقدات والأفكار . فقد وقفت موقف المعارض لمبادىء العقل فى تصوراتها ومعتقداتها . ووقفت كذلك موقف المعارض للفطرة الانسانية . وطبيعة الانسان فى فلسفتها القائمة على الأعراض المطلق عن ملذات الحياة الفطرية فى نزعتها فى الزهد والتقشف ، وفى تصورها للانسان واشعاره بحقارته وذلته بسبب رجس الخطيئة الأولى الموروثة فقتلت بذلك فى الانسان كل تفتح عقلى وكل محاولة لاستكشاف أسرار الكون وكل تقدم يستهدف اسعاد الانسان فى هذه الحياة الدنيا . وفى حين انها اعرضت عن الاستجابة لنداء المظلومين تحت وطأة ظلم الحكام المستبدين والأغنياء المستعبدين البطرين . عنيت كل العناية بصنع التماثيل من الحجارة والذهب والفضة ، وحشدت الفنانين والمواهب البشرية والأموال الطائلة فى جهود ضائعة وفى عبارات وثنية ابعدت الانسان عن الله وعن حل مشكلات الانسان فى هذه الحياة ، وعن السمو بقلبه وضميره نحو الله ، بل تجاوزت ذلك الى الانضمام حتى عصر الصناعة الكبرى فى تاريخ أوربا الى

صفوف الحاكمين وأصحاب الاقطاع وارباب الأموال فى خصومتهم الظالمة للرعية والفلاحين والعمال .

(ب) انحسار وتراجع ما تبقى فى المسيحية من مبادىء روحية وخلقية كانت ـ رغم كل ما حدث تغذى الضمير الانسانى وتحاول الارتفاع به امام غزو المادية الجارف سواء جاء فى صورة استعمار شعب لشعب ، أو ظلم طبقة لطبقة ، و استغراق الفرد الانسانى فى الملذات والشهوات الشخصية بلا حد ولا رادع . بل ان موقفها فى كثير من الأحيان السير وراء هذا التطور غير الأخلاقى لتسويغ خطواته بحجة الخوف من ان يفوتها الركب، وان يترك الناس الدين ـ وهم تاركوه [illegible] الغريب، انه مع انفلات ابناء هذه الحضارة الحديثة فى حيوانية بل اكثر من الحيوانية ، وفى انواع من الفسق والتحلل لم تعرف البشرية لها نظيرا فى أوحش عصورها ، أقول ان من الغريب اننا لم نسمع نداءات الكنيسة ولا صيحاتها ولا محاولاتها للتخفف من هذه اللا اخلاقية ولا استنكارها لها بل نرى سكوتا يدل على الاقرار والاعتراف بجميع مناظر العرى والتبذل .

(جـ) اعراض النهضة الأوربيـة ـ حين أخذت بذورها من الحضارة الاسلامية ـ عن أخذ فلسفة الاسلام الكونية ونظراته الى الحياة والوجود والانسان والله ، وعن أخذ فلسفته الأخلاقية المنبثقة عن هذه النظرات ، والجامعة بين فطرة الانسان الواقعية التى فطره الله عليها والمثالية الأخلاقية .

ان هذه الأسباب مضافا اليها نمو بل تضخم الجانب المادى فى الحضارة من اهتمام بالكون المادى الخارجى دون الكون النفسى الانسانى ، واهتمام بالتقدم الصناعى والآلى ، وبمرافق الحياة المادية التى تحقق رغبات الانسان المادية وملذاته . ان ذلك كله أدى الى غياب الأهداف الاخلاقية والروحية فى حياة الانسان ومسيرته الحضارية ، والى الانحطاط الأخلاقى فكرا وسلوكا . فى أكثر ما ظهر فى هذه الحضارة من أفكار وفلسفات أخلاقية ضارة هى أسوأ من المخدرات والمسكرات والسموم ، وانتن من القاذورات واكثر ضررا منها ، وما اكثر العادات التى سار عليها الناس فى هذه الحضارة والاعراف التى جروا عليها خاصتهم وعامتهم ، وهى عادات قبيحة واعراف سيئة وتصرفات لا اخلاقية شائنة .

سارت هذه النهضات والتطورات الفكرية والصناعية والاجتماعية ــ العمرانية والسياسية والاقتصادية والحقوقية ــ سيرا حثيثا متواصلا متزايد السرعة منذ القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلادى حتى القرون الحديثة مقترنة بالحركة اللااخلاقية التى وصفناها وكان من نتائجها جميعا ما نشهده فى عصرنا الحاضر .

اتصال المجتمع الاسلامى المعاصر بالمجتمع الأوروبى الغربى :

أصبح المجتمع الاسلامى ، بنتيجة تطوره الذى وصفناه سابقا وبنتيجة تشويهه المفاهيم الاسلامية وانحرافه عن الاسلام وانقسامه ، فى مركز الضعف والانخفاض وأصبح المجتمع الأوربى ، بنتيجة اقتباسه من العالم الاسلامى الحياة والحركة واسبابهما ، وبعد تطوره فى هذا الاتجاه عدة قرون ، فى مركز القوة والعلو . فكان اندفاع الغزو الحربى العسكرى والفكرى من الغرب الأوربى الى الأرض المنخفضة ، الى العالم الاسلامى المتراجع فى جميع جبهاته .

كان الاتصال بين العالمين والمجتمعين عن طريق الحرب والاستيلاء ، وعن طريق التجارة وما تجلبه من سلع وادوات ، وعن طريق الثقافة والعلم ، اما بالبعثات المرسلة من العالم الاسلامى الى اوربا . واما بما أخذ من مناهج اقتبست واتبعت ، وما ترجم من كتب الغرب الى العربية ، ولغات الشعوب الاسلامية الأخرى .

وكان الاتصال من منافذ مختلفة وفى بلدان متعددة فى الدولة العثمانية ومصر والهند والمغرب العربى ثم سائر البلدان الاسلامية .

وسنتحدث عن بعض نتائج هذا الاتصال بين العالمين او المجتمعين ومراحله المتعاقبة وما أحدثه من تأثير واسع وعميق ، وتيارات فكرية ومذاهب عقائدية بعد ان نبين هنا نتيجتين هامتين تولدتا عن الصورة المشوهة التى آل اليها الاسلام فى المجتمع الاسلامى فى عصر الانحطاط بالنسبة الى الذين اتخذوا هذه الصورة بديلا عن الاسلام ظانين انها هى الاسلام حقيقة .

النتيجة الأولى :

وهى ان الذين آمنوا بهذه الصورة المشوهة للاسلام على أنها هى الاسلام وعملوا بمقتضاها دون ان يشعروا بما حصل فيها من تشويه وانحراف ، انتهى بهم الأمر الى ان يكونوا ذلك الجيل المتخلف فى حياته الفكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية الضعيف فى هذه الجوانب كلها المنقسم على نفسه .

النتيجة الثانية :

وهى ان الذين ظنوا هذه الصورة المشوهة للاسلام اسلاما ممن تلقوا ثقافة أوربية حديثة ، نفروا من الاسلام وأعرضوا عنه حين ظنوا أن هذه الصورة المشـوهة هى التى أورثت المجتمع الاسـلامى الضعف والجمـود والتردى واقبلوا فى الوقت نفسه على مذاهب عقائدية اخرى غير الاسلام ليتخذوا منها دافعا للنهوض وأساسا له .

ان الثقافة الحديثة التى تلقوها وهى أوربية او مستقاة ومقتبسة من الثقافة الأوربيـة قدمت لهم مقاييس حضارية كانت معارضة كل المعارضة لما عليه المجتمع الاسلامى ولتلك الصـورة المنحرفة التى شوه فيها الاسـلام تشويها شديدا . وقد ظن هذا الفريق من أبناء المجتمع الاسلامى ــ وغيرهم من باب أولى ــ أن ما ورثوه عن آبائهم وما وجدوه فى المجتمع الذى نشئوا فيه من معتقـدات ومبادىء وعادات وشـعائر هى (الاسـلام) فى حين أن هذه المعتقدات والعادات والأفكار هى مزيج عجيب من مبادىء اسلامية وأخرى غير اسلامية تسربت أو تولدت فى المجتمع ، بل ان كثيرا منها معارض للاسلام أصلا كما بينا فى بحث سابق .

ان هذا التعارض بين الثقـافة الحديثة وقيمها ، وهذا الميراث المسـمى اسلاما ــ وليس هو باسلام ــ هو من اكبر الأسباب لاعراض الجيل الجديد عن الاسلام وتنكره له فى المجال الفكرى والسياسى ــ حينما وصل هذا الجيل الى الحكم ــ وفسحه المجال لنظم عقائدية أخرى متنوعة للدخول ، وانضمامه الى صفوفهـا .

ويجب أن يلاحظ هنا وفى هذه المرحلة بالضبط أن الحـركة الاسلامية التى تهدف الى الكشف عن حقيقة الاسـلام وعن الصورة المزورة المشوهة كانت فى بدايتها ، ولم تبلغ درجـة النضج التى تمكنها من ان تمد النهضـة الحديثة بدوافع وأفكار وتقيم لها منطلقات ، بل كانت وراء النهضة الحديثة المستمدة اجمالا من الحضارة الأوربية تحاول أن تصحح لها أخطاءها أو أن تقدم لها المسوغات ، وأن تسبغ عليها الصفة الشرعية الاسلامية التى لم تكن تلك الحـركة تبالى أو تهتم بها . لم تكن اذن حركة الوعى الاسلامى الجديد حركة ذاتية مستقلة تنطلق ابتداء لتحاول تغيير الأوضاع الفاسدة فتكسب بها الجولة ، ولم يكن يمنعها من ذلك الا ظروف ولادتها التاريخية المتأخرة . وقد احتاجت الى وقت طويل لتستقل وتشعر بذاتيتها المنفصلة عن الثقافة

الأوربية من جهـة ، وعن الميراث المشوه للاسلام الصحيح الأصيل من جهـة أخرى . وهذه المرحلة قد بدت الآن طلائعها .

ان خسارة المسلمين للمعركة فى هذه الحقبة الماضية من تاريخ المجتمع الاسلامى راجعة الى غياب الاسلام فى صورته الحقيقية ، والى أن اللقاء كان بين الصورة المشوهة المنحرفة المدخولة للاسلام والحضارة الأوربية الناشئة الحديثة فى أوج قوتها واندفاعها بصرف النظر عن أهدافها وأغراضها .

فى هذه المرحلة من مراحل تاريخ المجتمع الاسلامى المعاصر وجدت الفلسفات والمذاهب والعقائد التى حملها الغزو الأوربى الاستعمارى والحضارى مجالا للدخول ، ووجدت حتى من ابناء هذا المجتمع الاسلامى الفارغ الخاوى من يعينها على الدخول ، ثم من يكون جنديا يحارب فى صفوفها ووجد الخائنون فى المجال السياسى ، والمارقون فى المجال الفكرى . وكان الحاملون للصورة المشوهة المنحرفة للاسلام ودعاة الانحراف والتشويه والاستسلام والانعزال والفردية والجمود حجة لهم فى هذا المروق وسببا من أسبابه .

* * *

الاتجـاهات :

يبدو واضحا من هـذا الاستعراض أن ثمة أنواعا ثلاثة من العقليات أو الاتجاهات فى المجتمع الاسلامى المعاصر :

أولها ــ المحافظ على ما آل اليه أمر الاسلام خلال العصور من صورة امتزج فيها الأصيل بالدخيل ، والسليم بالعليل ، والخالص بالمشوب ، والمدخول المستمر فى جموده وانغلاقه ، والوارث الماضى القريب بمبادئه ومحاسنه .

وثانيها ــ المنخلع من الماضى البعيد والقريب ومن الاسلام فى صورتيه الأصلية والمشوهة ، الصحيحة والمزورة ، والمنساق مع التيارات التى غزت المجتمع الاسلامى والمتأثر بها تأثرا سطحيا أو عميقا على اختلاف هـذه التيارات وتعارضها .

وثالثها ــ الاتجاه الذى يحاول أن يزيح من جهة الاثقال التى تراكمت على الاسلام خلال قرون طويلة ، وأن يكشف عن الصورة الاصيلة للاسلام هذه القرون واساليبها المختلفة المتطورة ، وينظر الى مشكلات العصر من جهة أخرى ليحلها فى ضوء مبادىء الاسلام .

ان كل اتجـاه من هذه الاتجاهات وكل فـريق من هذه الفئات الثلاث جدير بأن يخصص له بحث خاص ابتداء من نشأته ، والعـوامل المؤثرة فى تكوينه الى مراحل تطوره المتعـاقبة فى ضـوء الاحـداث العـامة الفـكرية والاجتماعية ، الداخلية والخارجية ، ليمكن بذلك ان ينظر الى كل منها نظرة تقـويم وحـكم .

* * *

المـــراحل :

لقد مر الاتصال واللقاء والتأثير بين المجتمع الاسلامى المعاصر والمجتمع الأوربى الغـــربى بمراحل متعاقبة كان أولها مرحلة الذهـول ، والدهشة ، والاعجاب ،والشعور بالنقص ، ثم كانت مرحلة النقل والتقليد والاقتباس ، ومرحلة تتراوح بين التوفيق بين القيم الغــربية والقيم الاســلامية تارة ، والصراع بينها تارة أخرى ، ثم كانت أخيرا مرحلة الذاتية بالنسبة للاتجاه الأصيل أو الاسلامى وهذه تقابل بالنسبة للاتجـاه الآخـر مرحلة الانسلاخ النهائى من الاسلام والاندماج كليا فى أحد تيارات الفكر الغربى .

لا نريد هنا ان نفصـل القول فى بيـان مراحل هـذا التطور وعواملها وخصائها وانما أردنا من الاشارة اليه هنا بيان موقعه من اطار البحث العام عن المجتمع الاسلامى المعاصر . وسنقتصر فى بحثنا التالى على عرض موجز مكثف للتيارات الفكرية الوافدة من الغرب التى تكون العمود الفقرى للحياة الفكرية والحيـاة السياسية الحـديثة فى نطاق تطورها التاريخى مع ذكر مصادرها الأوربية والعوامل المسببة أو المساعدة لانتشارها ومع تقويمها فى ضوء القيم والمقاييس الاسلامية . وقد قصـدنا ايجاز هذا البحث قصـدا ليكون فى اطار هذا البحث الشامل عن المجتمع الاســلامى المعاصر الذى هو موضوع هذا الكتاب وتتم به اجمالا الصورة الكاملة . على أن هذا البحث يستحق التفصيل والافراد فى كتاب مستقل ، وقد أوجزنا فيه ما سبق ان فصلناه فى سلسلة من المحاضرات الجامعية منـذ سنين ونرجو أن تتـاح لنا فرصة اخراجها مفصلة فى كتاب .

التيارات الفكرية الحديثة

ان فى العالم اليوم تيارات فكرية تنشط وتتحرك وتغزو ، ترتكز عليهـــا مجتمعـات وتقوم على فلسفتهـا شعوب ، وتكون الرابطـة بين أفراد هـذه الشعوب ، وتنبثق عنها نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية وتربوية .

ولسنا نعنى الآن الأفكار الجزئية الخاصة بموضوع معين لأنها ليست الا فروعا لأصول وثمرات لشجرة ، ولكننا نقصد مجموع الأفكار التى تكون تيارا عاما ومذهبا شاملا والتى يمكن ان تسمى معتقدات أو مذاهب عقائدية وتتولد منها نظم سياسية واقتصادية واجتماعية .

يهمنا ان نعرف موقف المسلمين منها فى الواقع ، وموقفهم الواجب ؟ وكيف غزتهم والى اى حد تأثروا بها ؟ وهل تتعارض مع الاسلام ؟ واذا كانت تتعارض معه فهل هذا التعارض كلى شامل واصلى أم جزئى عارض ؟ وهل يكون الاسلام اليوم تيارا فكريا كذلك يتحرك وينشط ؟ وهل حركته هذه فى حدود البلاد الاسلامية أم فى النطاق العالمى ؟ اعتقد ان هذه الأسئلة هامة جدا . . وان الاجابة عليها تحدد موقفنا نحن المسلمين فى العالم ، موقفنا الذى نختاره لأنفسنا وعلى أساسه نرسم لحياتنا الخطط فى المجال العقائدى وفى المجال الاجتماعى والسياسى والاقتصادى وغيره .

ان هذه التيارات التى نشير اليها نشأت كلها فى الغرب ، ولا تزال مصادر انتشارها والدعوة اليها فى الغرب . ولا بد لنا لفهمها ثم فهم مدى تأثرنا بها والحكم عليها من القاء نظرة على ظروف نشأتها التاريخية الاجتماعية فى البلد الذى نشأت فيه .

نقطة البداية فى نشوء هذه المذاهب الفكرية فى أوربا والفاصلة فى تاريخها كانت فى النهضة العلمية والفكرية التى تولدت باتصال أهل أوربا بالحضارة الاسلامية عن طريق الأندلس وصقلية ، وترجمة كتب العلوم والفلسفة اليها وكانت خسارة البشرية هنا بالضبط فى أنهم اخذوا الجانب العقلى والمادى من حضارة المسلمين ولم يأخذوا الجانب العقائدى والروحى الخلقى ، وعجزت النصرانية التى كانت ديانتهم عن حمل لواء هذه النهضة العلمية بل عن محاراتها ومصاحبتها . وعجزها كان بسبب ما أصابها من تشويه ، ولان الله لم يجعلها فى الأصل دينا عاما خالدا بل قضى عليها بان تنسخ بديانة خاتمة ناسخة . فقامت النهضة الأوربية على أساس العقل وحده واهمل الجانب الروحى من الانسان وأهملت التعاليم الالهية وما تضمنته من المثل العليا العظيمة والقيم الخلقية الرفيعة ، وبقى الانسان وحده يخترع عقائد وحقائق جديدة ، ويوجد فضائل ومثلا عليا غير تلك التى انتقلت اليه من تراث النبوات وتعاليمها الالهية .

فاتخذ العقل أساسا للحكم على الحقائق كلها الحسية منها والغيبية ، وجعلت الحواس والتجربة وسيلة وطريقا للوصول الى الحقائق ، فكان

الاتجاه العقلى والمادى الطبيعى ، وكانت الفلسفات الموصوفة بالعقلانية والمادية فى آن واحد .

وادى هذا الاتجاه الفكرى الى نهضة علمية عقلية لا تصاحبها نهضة خلقية روحية ، اللهم الا بقايا باهتة ضعيفة من دين متوارث قديم ، بدلته الأيام ولعبت به الأهواء والمصالح وجعلته فى وضع غير مرغوب ولا جذاب . واعقب النهضة العلمية نهضة صناعية مهدت لها الاكتشافات العلمية ، وكان من نتائجها اتخاذ الرفاهية المادية ، واشباع الشهوات ، وتحقيق الملذات ، غاية للانسان ، وكان ذلك نتيجة للنهضة الصناعية ومنتجاتها ، ولتحرر العقل تحررا لا يضبطه ضابط ولا رادع ، ولرد الفعل تجاه النصرانية التى كانت تنفر الناس مما أحل الله لهم من الطيبات ومتع الحياة .

وهكذا اشتد الاتجاه العقلى فى نطاق عام يشمل مجال الطبيعة أو عالم الشهادة ومجال ما وراء الطبيعة أو عالم الغيب ومجال الأخلاق والقيم الخلقية ، كما اشتد من جهة أخرى الاتجاه المادى فى الحياة العملية فكانت اللذة والمنفعة غاية سعيهم فى الحياة ، وبدأ الدين بمعتقداته وقيمه الخلقية وفضائله ينحسر شيئا فشيئا ، وبدأ يخلو مكان الحياة الروحية والخلقية ، وبدأ الخلل يزداد كلما تقدم الزمن . ثم حلت رابطة جديدة تربط أفراد الشعب الواحد بعضهم ببعض وهى رابطة انتمائهم الى وطن واحد بعد ان كان الانتماء الى الملك ومملكته . وكذلك كانت فرنسا ، وهى يومئذ الدولة الأوربية الأولى من حيث القوة والازدهار ، وذلك لأنها بسبب قربها من الأندلس والحضارة الاسلامية هى التى ظهرت فيها النهضة بعد ايطاليا ، وفى فرنسا عروق قومية مختلفة الأصل من فرنك وسلتيين وغوليين وغيرهم ، والتقت فيها عقائد مختلفة من نصارى كاثوليك ، الى بروتستانت ، ومن يهود الى ملحدين ، ولهذا اتخذت الوطنية رابطة عامة تجمع الأفراد ، وهى ليست مذهبا يفرض عليها ، ولكنها اطار تتفاعل فيه عقول الأفراد المنطلقة بلا حد ولا قيد ، ومنافعهم ومصالحهم المختلفة وجميع ضروب نشاطهم . فهى تقوم فى أساسها على الفرد ، فى مجال التفكير وفى مجال العمل والسلوك فنشأ فى نطاق الوطنية المذهب العقلى فى التفكير ، والمذهب الحر الفردى فى الاقتصاد، وهو الذى أُطلق عليه فيما بعد المذهب الرأسمالى والنظام الديمقراطى القائم على الحرية السياسية الفردية المطلقة ، التى تنسقها الأحزاب السياسية والمجالس النيابية ، كما نشأت فيها الاباحية فى المجال الأخلاقى القائمة على الحرية التى لا تحدها كذلك حدود ، والعلمانية أو فصل الدين عن الدولة لأنها قامت على الفراغ الدينى وعلى اطلاق الحريات بلا حدود .

ولم يبد النقص الكبير الا بعد تجربة طويلة دامت أكثر من قرن ونصف فظهر ان الحرية فى المجال الأخلاقى انتهت الى الفوضى والتهديم والاباحية ، وانتهت الحرية المطلقة فى الاقتصاد الى ظلم الأغنياء للفقراء ، وانتهت الحرية المطلقة فى الفكر الى تهديم الحقائق الدينية الخالدة ، والى اعتبار الانسان المخلوق الذى نفخ الله فيه من روحه وكرمه حيوانا يمتاز بنوع من الذكاء ، وتجاوز العقل حدود قدرته فطغى واقام نفسه فى مقام الاله ، وتعددت الآلهة بتعدد العقول . وانتهت الحرية السياسية الى الأزمات المستمرة فى الحكم والى أزمة النظام الديمقراطى نفسه، كما انتهت كذلك من الناحية التشريعية التى اعتبر الانسان مصدرها المطلق والأعلى الى تشريعات تبيح الرذائل التى لم يبحها المتوحشون البدائيون فى ابعد العهود عن المدنية .

ان تيار المذهب العقلى المادى والقائم على المذهب الفردى والمولد للنظام الديمقراطى والراسمالى والعلمانى تكشف عن نقائص فاضحة ، وانتهى الى الصراع والاستعمار والظلم والأثرة (الانانية) والرذيلة والأباحية والقلق والضياع .

وقد كان هذا المذهب فى وجوهه الفكرية الفلسفية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية والتربوية مقدمة المذاهب الفاسدة وأولها اتصالا بالشعوب الاسلامية وتأثيرا فيها وغزوا للطبقة المثقفة ولقادة السياسة فى جميع البلاد الاسلامية ، وذلك عن طريق انتقال الثقافة الفرنسية الى الدولة العثمانية والمغرب والى مصر فى عهد محمد على ، وعن طريق الثقافة الانكليزية فى الهند ومصر والسودان . فقد غزا هذا التيار الشعوب الاسلامية التى كانت قد تردت فى دركات التخلف بسبب تشويهها للاسلام وابتعادها عن كثير من تعاليمه وعن وعى أهدافه ومقاصده فتسلل المذهب العقلى العلمانى والمادى التجريبى الى عقول الطبقة المثقفة ، وتسلل المذهب الوطنى الديمقراطى العلمانى الى الطبقة السياسية الحاكمة ، وكانت النتيجة اقصاء الاسلام وعزله عن توجيه الحياة الفكرية والثقافية ، واقصاءه كذلك عن توجيه الحياة السياسية فى مفاهيمها وقيمها وفى اتجاهاتها ومواقفها فى الأحداث الداخلية والدولية وفى تشريعاتها ونظمها . ولكن تم ذلك برفق ولطف فبقى الدين كتقاليد وعادات فى الجمهور والعامة ، وبقى رقعة فى التعليم الذى يتجه فى أعماقه لاقتلاعها ونبذها ، ومظاهر فى المجال السياسى لمجاملة الجمهور فى الحفلات والأعياد والمواسم . أقول أن ذلك تم برفق ولطف لا يشعر بخطره ولا بنتائجه ، لأن معارضة هذا التيار للدين لم تكن ظاهرة بل كانت محاولات التوفيق والتقريب تلتمس المخارج والمسوغات ، وتنشر شعارات وعبارات

تشعر بالقربى والتوافق بين هذا الاتجاه والاســلام ، فشاعت عبارات مثل قولهم (حب الوطن من الايمان) و (الدين لله والوطن للجميع) و (الاسـلام دين الحرية) واستغلت هذه الشعارات أسوأ اســتغلال لتحريف الكلم عن مواضعه ، وتغيير المفاهيم الاسلامية بطريق الازاحـة التدريجية ، لا بطريق المعارضة ، وخفى على كثير من الخاصة خطورة نتائج هذه المرحلة ، فشـارك فيها كثير من أصحاب النية الطيبة والعقيدة المؤمنه .

ان هذه المرحلة التى عدنا اليوم ندرك خطورتها ، لوضوح الرؤية بالنسبة الى الناظرين اليها عن بعد يمكنهم من رؤيتها دون التأثر بسحرها ، هى بداية حركة اقصاء الاسلام ، وهى مرحلة اختلطت فيها الأفكار الاسلامية بالأفكار غير الاسلامية ، والحركات الطيبة الصالحــة بالحركات المشبوهة المدفوعة بدوافع سيئة ، وكان لهذه المرحلة ولا شك فوائدها ومحاسنها ، كما كان لها مضارها ومفاسدها ، وكان أبطالها وروادها مزيجـا عجيبا من الصـالحين المخلصين والمفسدين المدسوسين .

٣ ـ التيـار القـومى :

تطورت الفكرة الوطنية التى ظهرت فى القرن الثامن عشر فى فرنسـا فى ثورتها المعروفة بعد فترة قصيرة فى بعض الشعوب الأوربيــة الى الفكـرة القومية فانتقلت الرابطة فى داخل بعض الشـعوب من رابطة الانتمـاء الى الأرض الجامعة او الوطن الى رابطة العرق والجنس والقوم ، فكانت ضربا من التعميق للفكرة الوطنية ، ونوعا من الصعود من الأرض الى الشـعب ، الذى انصهر عليها فى قومية واحدة . وحصـل ذلك بدافع التنافس بين الشعوب الأوربية التى استيقظت ونهضت بعد اتصالها بالحضارة الاسلامية فشعرت بذاتها ، وكان الاحتكاك بين هذه الشعوب فى مجال السلم والحرب، وفى مجال التنافس الاستعمارى فى الخارج ، سببا فى تقوية هذا الشعور ، ولا سيما الشعوب المتفوقة فعلا ببعض مواهبها .

وفى مقدمة الشعوب التى شعرت بهذا الشعور وصاغت منـه مذهبـا فلسفيا وسياسيا بل عقيدة حلت محل الدين أو كادت الشعب الالمـانى أو الجرمنى ، وظهر ذلك بوضوح فى تصرفات الشعب الالمانى فى المجال السياسى منذ عهد بسمارك حتى عهد هتلر ، وفى المجال الفكرى على لســان مفكريهم وأدبائهم ، وكان الفيلسوف الأستاذ الجامعى (فيختته) اقوى من عبر عن هذا المذهب فى القرن التاسع عشر ، وكان نداؤه للشعب الالمــانى ذا اثر عميق فى الشعب كما كانت له كذلك أصداء وآثار فى شعوب أخرى .

لقد كانت هذه الفلسفة فى أوربا فى بعض شعوبها ولا سيما الشعب الألمانى مظهرا للشعور بالتفوق ومسوغا للاستعلاء على الغير ، وبديلا عن العقيدة الدينية التى ضعفت أو فقدت على الأقل فى المجال الاجتماعى العام ، بعد أن انحسرت الى مجال المشاعر الفردية الخاصة ، وفقدت قدرتها على الدفع الحيوى وعلى الربط الاجتماعى . وهذا ما كان بالضبط بالنسبة الى النصرانية فى أوربا ، اذ عجزت عن أن تكون دافعا للنهضة الفكرية والاجتماعية ولا سيما بعد التقدم العلمى والصناعى وفقدت حتى انسجامها مع هذه النهضة .

وتتلخص النظرة الالمانية للقومية التى غدت فلسفة الأمة الألمانية كما قلنا من عهد بسمارك الى عهد هتلر ، فى اعتبار الأمة أساسا لا الفرد ، وفى تمجيد القومية وجعلها المثل الأعلى ، واتخاذها هدفا للحياة وغاية للوجود . ففى سبيلها وحدها تكون التضحية ، وفى سبيل مجدها وعظمتها واعلائها فوق كل شيء وكل موجود يكون الكفاح . فالخلود للأمة وخصائصها ، وليس الفرد الا خادما مطيعا لها وجنديا فى سبيلها ، وهى تفرض عليه خصائصها التى تتجسد فى أبطالها وزعمائها ، فلا مجال للحرية والاختيار ، فالعلم والفلسفة والأدب والفن كلها فى خدمة القومية . أما الدين ومثله وقيمه فليس الا جانبا من جوانب القومية ، هذا اذا كان متصل النسب بها غير غريب عنها منسجما مع خصائصها واتجاهاتها ، وأما اذا لم يحقق هذه الشروط فلا مكان له فيها .

هذه خلاصة عن الفكرة أو الفلسفة القومية عند الألمان ، وقد انفردوا بهذا التفكير المتطرف بسبب ظروف خاصة بهم ، منها تألب الشعوب المحيطة بهم عليهم وخاصة فرنسا ، وشعورهم بالتفوق الفكرى والصناعى على غيرهم من شعوب أوربا ، وربما كان الانكليز لا يقلون عنهم فى كبريائهم وشعورهم بالتفوق على غيرهم ، وخاصة فى عصر قوتهم ، ولكنهم لم يصوغوا هذا الشعور فى فلسفة يلقنونها أبناءهم ، بل بقى حيا فى ضمائرهم لا يعلنون عنه ، ولكنه يظهر فى تصرفاتهم .

ان هذه الفلسفة التى راجت فى المانيا فى عهد من العهود كانت فى الواقع فلسفة موقتة وعابرة أملتها ظروف خاصة ، ولذلك لم تنتشر فى أوربا نفسها انتشارا عاما ، بل لم تستطع أن تستمر فى المانيا نفسها . ذلك أن التطور الحضارى فى أوربا نفسها اتجه اتجاها معاكسا لها ، فقد اتجه نحو التقاء الشعوب على صعيد مشترك لا انعزالها فى كهف تعبد فيه نفسها ، ونحو تعاونها على أسس انسانية مشتركة ، فى مجالات الفكر والعلم والسياسة والاقتصاد وغيرها .

واذا كانت هذه الفلسفة أو العقيدة القومية كما ينظرون اليها هم انفسهم طريقا لحشد طاقات الأمة الالمانية وتعبئة قواها المادية والمعنوية ووسيلة لبث روح البذل والتضحية ، فانها كانت فى الوقت نفسه سببا لتألب الشعوب الأخرى ، واثارة حقدها ، ردا على شعور الاستعلاء والرغبة فى التفوق وبسط النفوذ والسلطان وازدراء الروابط الانسانية والقيم الخلقية ، وكانت النتيجة هزيمة سحقت الشعب الألمانى سحقا ، ودمرت كل ما بناه من انتاج ضخم وما كلفه عرقا ودما ومالا ، وابقته حتى الآن بعد مضى ربع قرن تحت وطأة الدول الأربع المحتلة المنتصرة .

تأثر الشعوب الاسلامية بالفلسفة القومية :

لا شك أن شعور الانسان بالانتماء الى قومه شعور طبيعى فطرى ، وهو فى الانسان كشعور الارتباط فى الحيوان بالقطيع من جنسه ، ولكن هذا الشعور فى الانسان يرتقى ويتهذب كلما تقدم الانسان ، فتتسع دائرته فيصبح انسانيا ويسمو هدفه ، فيصبح اخلاقيا مثاليا . وللأديان وتعاليمها الالهية أثر كبير فى ترقية هذا الشعور الذى نقل البشر من عصبيات القطيع الى الشعور الانسانى والى التعارف والتعاون ، وكان للاسلام الفضل الأكبر فى تكوين هذا الشعور وفى اقامة حضارة على أساسه يتعاون فيها البشر ، ويلتقون على مبادىء الحق والخير . وهذا هو الاتجاه السليم فى تقدم الحضارة فى مجال الحقوق الانسانية ، وفى مجال الأخلاق والقيم الخلقية التى يشترك بها البشر . بل ان هذه الخطوة فى الانتقال من مرحلة القبلية والقومية الى مرحلة الانسانية والتعاون الانسانى هى أعظم خطوة فى تاريخ البشرية والحضارة ، ولا يعدلها أى تقدم علمى أو اختراع صناعى ، بل ان كل تقدم علمى أو صناعى دونها ليس له جدوى ، بل قد يكون أداة تعين على التنازع والقتال بين الأقوام ، اذا لم ينشأ الشعور الانسانى والتعاون المتولد عنه .

موقف الاسلام :

ولا بد لى هنا قبل بيان تأثر الشعوب الاسلامية بالتيار القومى وفلسفته الأوربية من بيان موقف الاسلام فى موضوع القوميات .

ان الاسلام لا يدعو الى ازالة القوميات باعتبارها أمرا واقعيا ، بل انه يدعو الى التعاون بينها والالتفاف حول مبدأ يسمو فوقها جميعا ، ويجمع بينها ، وهذا المبدأ هو وحدة الأصل البشرى ، والمساواة بين البشر على اختلاف قومياتهم ، واشتراكهم فى الخضوع لخالق الكون والوجود ، وفى

العبودية له ، ومسئولياتهم تجاهــه ، وتحملهم أمانة الاستخلاف الالهى التى كرمت بنى آدم ، والسعى لتنفيذ التعاليم التى جاء بها الاسلام وهو آخر وحى الهى منزل ، والتى تدور لا على العصبيات الخاصة بل على الحق والعــدل والخير وسائر القيم الخلقية الرفيعة التى يتساوى البشر أمامها ويمكن أن يتعاونوا على أساسها .

وهكذا يتم التنسيق بين القوميات دون ازالتها ، فالله خلق البشر وجعلهم (شــعوبا وقبــائل) وجعل من آياته (اختلاف السنتهم) وليس اختــلاف الألسنة واللغات الا مظهرا من مظــاهر اختلاف القوميات ، ولكنهم جميعــا يشتركون فى مــدلول عام ينطبق عليهم ، عبر عنــه القرآن بلفظ (النــاس) و (الانسان) وجعل الخطاب دائرا حوله ومتوجها اليه .

وقد عبر القــرآن الكريم عن هــذه الفــكرة أجمل وأعمق تعبير فى قوله تعالى : **(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلنــاكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم)** (١) . وهذا الموقف الانسانى الكونى العام الذى يحدد موقع الانسان فى الوجود العــام فى صلته بالبشر والكون والاله الخالق لهما والذى يحدد المثل الأعلى الواجب فى سير الانســـان نحو تحقيق الهدف الانسانى فى مسيرة الحضارة يتعارض مع اتخاذ القومية غاية نهائيــة ورابطة عليا وفلسفة فى الحياة أو عقيدة .

بالاضافة الى انه لم يقل أحد من الفلاسفة والمفكرين أن القومية يمكن أن تكون مذهبا عقائديا أو عقيدة أو فلسفة ، بل ان هذا القول ينطوى على سخف وجهل . فهل للقومية على انها فلسفة أو مذهب موقف معين فى مجال الاقتصاد ومذاهبه أو السياسة ومذاهبها ، أو فى مجال الايمان بالله أو عدم الايمان به ، فمنتهى ما يمكن أن تكون القومية هو أنها عاطفة وخطة سياســية ومرحلة من مراحل التطور البشرى .

اطوار تاثر المسلمين بالفلسفة القومية والدوافع الموجهة :

ان تأثر المسلمين بالفكرة القوميــــة وبروز الشعور القومى فى حياتهم فى العصر الحديث مر بمراحل متعددة واتخذ صيغا وأشكالا مختلفة ، كان بعضها فى الحدود التى لا يتعارض فيها مع الاسلام ، وبلغ بعضها الآخر درجة المزاحمة للاســلام على انه عقيدة ويتعارض مع الاســـلام تعارضا جذريا ، وكان لكل

---

(١) الحجرات الآية : ١٣

مرحلة وصيغة اتخذها هذا الشعور أو الفكرة أسباب ودوافع طبيعية تارة ومصطنعة تارة أخرى .

١ ــ فى أواخر العهد العثمانى كان الاتصال بين الدولة العثمانية والمانيا اتصالا وثيقا فى المجال السياسى والتجارى والثقافى ، ودرس فى المانيا طلاب من الأتراك والعرب وغيرهم ، وانتقلت الثقافة الألمانية عن هذا الطريق الى المجتمع الاسلامى ، وكانت الفلسفة القومية فى المانيا ظاهرة غالبة على ثقافتهم ، فتأثر بهذه الفكرة عدد من مثقفى الاتراك ، واتجهوا نحو تكوين الحركة الطورانية ، أو حركة القومية التركية ، منسلخين بذلك عن التيار الاسلامى العام ، واخذوا ينظرون الى الشعوب المجتمعة والمتعاونة معهم فى اطار الدولة العثمانية القائمة من حيث المبدأ على الرابطة الاسلامية نظرة السيد الحاكم المستعلى ، لا نظرة الأخوة الاسلامية التى ابتعدوا عنها ، وهؤلاء هم الذين تكونت منهم حركة تركيا الفتاة والاتحاد والترقى ، وانتهى بهم الأمر الى الغاء الخلافة ، واقصاء الاسلام واللغة والحروف العربية ، ومجافاة العرب ، ومحاولة تتريك العناصر الأخرى ، وهى الحركة التى تزعمها من بعدهم مصطفى كمال وحزبه .

٢ ــ ان اتصال الشعوب التى كانت تتألف منها الدولة العثمانية بالحضارة الغربية قد أيقظ فيها وعيا ، وأشعرها بما فى الدولة من تأخر وظلم ، واقترن هذا الوعى بظهور الشعور القومى عند الأتراك والرغبة فى الاستعلاء ، فحدث بين هذه الشعوب تنافس أشعر كلا منها بذاتيته القومية وأيقظ فيه العصبية لها ، وامتزج هذا الشعور بالمطالبة برفع الظلم ، والمشاركة الشعبية فى الحكم أو المطالبة بالحكم الذاتى .

٣ ــ ان الدول الأوربية ولا سيما فرنسا وانكلترا وهما أقوى دول أوروبا يومئذ والمكونتان لامبراطورية استعمارية ينضوى تحت حكمهما شعوب اسلامية كثيرة قد وجدت فى هذا الجو بالذات مجالا لاضعاف الرابطة الاسلامية بين هذه الشعوب ، بل لتهديمها وازالتها نهائيا عن طريق اثارة العصبيات القومية واتخاذ القومية أساسا لاقامة المجتمع . فان هذا التفريق وازالة صعيد الالتقاء المشترك بين الشعوب الاسلامية من مصلحتها . وقد ثبت أن فرنسا وانكلترا دفعتا فكرة القوميات ومنها فكرة القومية العربية دفعا قويا ثم تبعتهما امريكا فى ذلك منذ أواخر العهد العثمانى ، وليرجع من يريد الأدلة المؤيدة لذلك الى كتاب جورج انطونيوس يقظة العرب ، والى كتاب تركيا الفتاة من تأليف رامزر Ramsaur

٤ ــ لقد كان للمحافل الماسونية فى فرنسا وايطاليا أثر فى تشجيع انتشار هذه الفلسفة الجديدة فى البلاد الاسلامية ، فقد فتحت أبواب محافلها فى المدن الأوربية لعقد الاجتماعات التى كان هدفهـــا تقوية الشعور القومى فى مقابل الشعور الاسلامى ، لاقامة المجتمع المقبل على أساس المبدأ القومى ، كما بين مؤلف كتاب تركيا الفتاة ، محاولا الدفاع عن الماسونية ومن وراءها فى عملها هذا وتبرئة أصحابها .

٥ ــ رأى بعض الذين لا يدينون بالاسلام من أبناء العروبة ان هذا هو الطريق المؤدى الى ازالة الوحشة والتنافر والعصبية بين أبناء العروبة على اختلاف أديانهم ، وانبرى بعضـــهم للتعبير عن هـــذه الفـــكرة فى مجال الأدب والفكر والسياسة ولقيادة هذا الاتجاه دون أن يدركوا خطأ الاستمرار فى هذا الاتجاه وخطورة نتائجه بالنسبة الى العرب ؛ وانه ينتهى الى ازالة القاعدة الخلقية الروحية التى يقوم عليها بنـــاء مجتمعهم ، دون أن تستطيع القومية باعتبارها فلسفة وعقيدة أن تمدهم ببديل عنها ، كما عجزت عن ذلك فى دول أوربا التى كانت أعمق وعيا وتفكيرا لأنها ترتد نهائيا كفلسفة الى وثنية ترجع الانسانية الى الوراء ، والى تفكير أسطورى ضيق الاطار ، ولم يدركوا ان طريق ازالة الشقاق والعصبية لا يكون بالأخذ بفلسفة خاطئـــة تبنى على حقيقة ناقصة باطلة (أقول هذا بالنسبة لمن كانت نيتهم حسنة ولكن ضلوا الطريق ، وأما الذين كان لهم من وراء ذلك مآرب أخرى وتعاون مع آخرين من غير العرب من فرنسيين وانكليز وأمريكيين من سياسيين أو مستشرقين أو منهما مجتمعين فلهم شأن آخر) .

ولقد أخذت الفكرة القومية أشكالا وصيغا مختلفة فكانت شعورا طبيعيا فى بداية الأمر لا يتجاوز شعور الانسان بانتمائه الى أسرة معينة أو قبيلة أو نسب ، وهى فى هذه الحدود أمر طبيعى لا يتعارض لا مع الشعور الانسانى ولا مع الأخلاق ولا مع العقيدة الدينية .

ثم اشتد هذا الشعور فى نطاق ظروف معينة بدأت من رد الفعل عند العرب مثلا تجاه العصبية التركية التى غذاها ملاحدة الأتراك من جماعة حركة تركيا الفتاة والاتحاد والترقى ، واســـتمرت واشتدت فى عهـــد الاستعمار الفرنسى والانكليزى فى بعض البلاد العربية ، واتخذ هذا الشعور حينئذ شكل مذهب أو خطة سياسية هدفها توحيد البلاد العربية وتحريرها ، وكانت هذه الصـــيغة فى الحقيقة تمهيـــدا لمرحلة ثالثة خطيرة وهى اتخاذ القومية عند أبناء الشعوب الاسلامية من عرب وأتراك وأكراد وغيرهم مبدأ

بل فلسفة بل عقيدة بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، واليكم بعض تعابير هذا الاتجاه :

(القومية بالنسبة الينا نحن القوميين العرب دين له جنته وناره ولكن فى هذه الدنيا (١)) .

لا ينهض العرب حتى تصبح العربية أو المبدأ العربى دينا يغارون عليه كما يغار المسلمون على القرآن الكريم والمسيحيون على انجيل المسيح الرحيم (٢)) .

وتجد مثل هذه التعابير فى كتاب (مع القومية العربية) وغيره .

وليس الدين فى نظر هذا الاتجاه الا جزءا من القومية ـ هذا اذا قيل ـ والقومية هى الفكرة الكلية الشاملة فالاسلام مثلا بالنسبة الى العرب فى هذه الفلسفة مرحلة ماضية من تاريخ الأمة العربية وهو كما يزعم بعض أصحاب هذه الفكرة تجربة عربية وهى فى نظرهم ليست الأخيرة وهو على رأى مؤلفى كتاب (مع القومية العربية) المثل الأعلى الانسانى عند العرب ولكن فى الماضى .

وهكذا فان تيار الفكرة القومية ابتدأ من حيث انتهت الفكرة الوطنية الديمقراطية ، فكانت مهمته ليس اقصاء الاسلام بل تفريغ القضية السياسية والاجتماعية بوجه عام من المحتوى الاسلامى ، واحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته ، واستبدال رابطة أخرى برابطته لعزل الشعوب الاسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائيا ، بحيث تكون صلة بعضها ببعض كصلتها بأى شعب من الشعوب الأخرى التى تدين بالوثنية أو الماركسية أو غيرها ، والتى لم تكن تربطها بها اى رابطة ، وبذلك تنسف الجسور التى تصل بين الشعوب الاسلامية ويلغى ذلك التيار الطويل ، وتمحى روابط الثقافة المشتركة ، ولغة الدين المشترك ، والقيم الخلقية المشتركة ، وتلغى بذلك تلك الأخوة الاسلامية .

لقد كان هذا التيار فى خلال هذه الحقبة التى امتدت من أواخر العهد العثمانى حتى عهدنا الحديث عاملا للتفريغ ليمهد لفكرة وفلسفة اشتد ساعدها وقوى شأنها فى العالم الغربى لتحل بمفاهيمها وأفكارها محل الاسلام الذى أقصى أولا ، ثم أخرج محتواه ومضمونه من نطاق التفكير العام والقضية الاجتماعية ، وجاء بذلك دور دول أخرى لتستفيد من هذا الظرف

---

(١) على ناصر الدين
(٢) عمر فاخورى

الجديد سواء من جهة النفوذ السياسى أو الغزو الفكرى العقائدى وهى الدول التى تدين بالماركسية .

التيار الماركسى الشيوعى

ظهر فى أوربا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تيار جديد عقائدى فكرى وسياسى اجتماعى فى آن واحد وهو تيار الفلسفة الماركسية وكان رد الفعل للرأسمالية من الوجهة الاقتصادية فى أوربا واستمرارا للتفكير العقلى المادى نفسه ، وكان ظهوره ونجاحه فى بلد أوربى متأخر ثم فى بلد آسيوى متأخر كذلك هو الصين ، وكانت القوة التى دعمته فى بداية الأمر هى الجماهير الشعبية الجاهلة غير الواعية ، وتحركه فئة قليلة من المثقفين المفكرين الذين استطاعوا أن يقلبوا حقد الطبقات المظلومة فى أوربا يومئذ وعواطف الثأر والانتقام الى فلسفة ، ويتخذوا منها عقيدة تدفعهم لقلب الأنظمة التى يشكون منها والثورة عليها . وليس من قبيل المصادفات ان يكون من مقررات اليهود السرية فى بروتوكولات حكماء صهيون فى حركتهم العالمية التى كانت تدار فى أوربا اثارة جماهير الشعوب على حكامهم وعلى خاصتهم بحجة الظلم والفساد ، وان تاريخ تلك المقررات يصادف تماما تاريخ قيام كارل ماركس اليهودى بصياغة فكرته التى تدعو جماهير العمال وجماهير الصعاليك (١) وغير المالكين الى الانقضاض على انظمة الحكم والحكام والى ثورة الدهماء (العامة) على الخاصة من مفكرين ونابغين

ان الموافقة بين التاريخين تاريخ قرار حكماء صهيون فى حكومتهم العالمية السرية ، وتاريخ قيام ماركس بدعوته ، أمر يلفت النظر ولا سيما أن نسبة اليهود فى اقامة الدولة الشيوعية الماركسية الأولى كانت كبيرة جدا وان اليهود فى أوربا هم المؤسسون قبل الشيوعية وبعدها للاحزاب الاشتراكية فيها ، وانهم فى كل بلد هم الذين رعوا ديانة ماركس وبشروا بها حتى الأغنياء الكبار منهم .

لقد اشتد هذا التيار فى أوربا قبل أن يصل الينا وأصبح يتجسد من الوجهة السياسية والبشرية فى مجموع الشعوب الأكثر فتوة والأحدث عهدا فى التحضر ، فى مقابل الدول المتحضرة التى أخذت تشيخ وتهرم رغم قوتها ، وتفشى فيها الترف والانحلال ، وقام التنافس بين هاتين المجموعتين على النفوذ وامتداد السلطان فى آفاق المعمورة ، احداهما مجموعة شعوب شرق أوربا والأخرى مجموعة شعوب غرب أوربا ، حتى امريكا التى هى فى الأصل امتداد

---

(١) البيان الشيوعى .

لها ، وقد كان لتسلل هذا التيار الى الشعوب الاسلامية وتأثره فيها أسباب نذكر اهمها :

١ ـ الفراغ الذى أحدثه التياران السابقان الديمقراطى الوطنى والقومى فى المجتمع الاسلامى لدى اكثر الشعوب الاسلامية وذلك بالعمليتين المتين وصفناهما سابقا عملية الاقصاء وعملية التفريغ . فان الاسلام وقد ابتعد أهله عن فهمه ووعى أهدافه ومقاصده بما ران عليهم من الجمود فى عصور الانحطاط وما أحدثوه من نقص وتشويه كان غائبا عن الساحة فى المجال الفكرى الثقافى والمجال السياسى . وكان الاسلام ال... ...اته الحضارية الانسانية قد انحصر فى بعض الشعائر والمناسك وفى بعض العادات والتقاليد الدخيلة احيانا وفى جزئيات صغيرة متفرقة ، وأصبح اصحابه جماعات متعددة تتفرق مذاهب وطرقا بالرغم من محاولات الاحياء التى كانت تهدف الى بعث الاسلام فى العقول والنفوس والمجتمع ، وليس السبب لنقص أو عجز الاسلام نفسه ولكن تلك التيارات الوافدة كانت كاللص الأسرع من صاحب الدار لاحتلالها والأكثر استعدادا واستباقا للوصول الى الهدف .

٢ ـ امر آخر له كذلك أثره وهو مهارة الشيوعية العالمية ودولها فى استغلال نفو... ال... ...ب الاسلامية من دول الغرب المستعمرة ومذاهبها الفكرية ور... محاربة هذه الدول التى هى نفسها عدوة الشعوب الاسلامية ... ...لات استعمارها فتقدمت فى صورة الصديق المعين وقدمت مذاهبها بديلا عن تلك المذاهب التى نفر الناس من اصحابها وسرت عدوى النفور الى الأفكار والمذاهب المتصلة بها .

ان هذا الجو النفسى كان فى غاية الأهمية بالنسبة للدول الشيوعية التى ابتدات تنافس تلك الدول فى بسط النفوذ ومد السلطان ولكن بأسماء اخرى وبأساليب جديدة . ولا شك ان جدة هذه الفلسفة وانتصار اصحاب هذا المذهب فى الميدان العسكرى والسياسى منذ الحرب العالمية الثانية وحماسة أصحابه له لما لهم فيه كذلك من المنافع والمصالح والمكاسب كل ذلك كان ذا تأثير قوى وكان مدده المادى فى المال والرجال والدول قويا كذلك .

٣ ـ أما استغلال بعض النقائص والمفاسد والمظالم فى المجتمعات الاسلامية والتى يوجد امثالها فى كل بلد وفى كل عصر بل ربما أكثر منها فقد حصل ولكنه فى رأينا لم يكن فى المقام الأول ، ومع ذلك فقد كان من جملة ما تذرعت به الفلسفة الشيوعية الماركسية لنشرها فى طبقات الجمهور والمثقفين .

٤ ـ أضف الى ذلك كله مهارة الدعاية ووسائلها المدروسة المخطط لها ، والتى استطاعت أحيانا أن تخفى كثيرا من الحقائق والوقائع وان تنشر كثيرا من المغالطات .

تأثير التيار الماركسى الشيوعى وخطورة نتائجة :

١ ـ أهم نتائج سريان هذا التيار واهدافه فك ارتباط الشعوب الاسلامية بعضها ببعض بل الأقطار العربية نفسها ، وكذلك فك ارتباطها بالاسلام باعتباره الرابطة والعقيدة الجامعة والثقافة المشتركة ، وربط كل منها على انفراد بمجموعة الشعوب الشيوعية الماركسية ، وذلك عن طريق ربطها بالتيار الماركسى العالمى والعقيدة الشيوعية وبذلك تنتقل الشعوب الاسلامية من التبعية للغرب ثقافة وسياسة الى التبعية للعالم الشيوعى بدلا من ان تلتقى نفسها على صعيد الثقافة والعقيدة الاسلامية التقاء متحررا من كل تبعية ، وتتعاون فى هذا الاطار على تكوين حضارة تحتفظ فيها بذاتها وتقدم للانسانية حضارة جديدة ، تحفظ للانسان كرامته ، وتكفل له سعادته مع رقيه المادى .

٢ ـ ومن نتائج انتشار هذا أيضا تحويل معاركنا الاسلامية العامة بل الخاصة بكل شعب من الشعوب الاسلامية الى معارك مع الدول الراسمالية فقط ، خدمة لنفوذ الدول الشيوعية ، وتصوير معركتنا فى فلسطين هذه الصورة الضيقة الموجهة ، وذلك تمهيدا لحل قضية فلسطين على أساس فك ارتباط اسرائيل بالدول الغربية والوصل بين الجماهير اليهودية الاشتراكية والجماهير العربية الشيوعية الماركسية .

٣ ـ ومن نتائجه محاربة الاسلام باعتباره دينا وأخلاقا واحلال الفلسفة المادية الماركسية فى محله ويكون ذلك عادة على مراحل يبدأ أولها من منطلقين احداهما اصلاح الظلم الاجتماعى فى طريق النظام الماركسى الاشتراكى والثانى محاربة الاستعمار والتوسع الاستعمارى المسمى فى اللغات الأجنبية بالامبريالية ويسكت فى هذه المرحلة عن الدين فى المجتمعات التى تتمسك به بل يقال أحيانا أنه لا تعارض بين المذهبين ويروج لمثل هذا التوفيق فى هذه المرحلة مع الكلام عن استغلال الدين واضراره ليتم الانتقال الى محاربة الدين جذريا فى أصوله الاعتقادية أيا كان ذلك الدين .

وتعتبر الدولة الشيوعية من واجبها محاربة الدين ومنع انتشاره عن طريق التعليم ووسائل الاعلام والدعاية للدين جريمة يعاقب عليها فى حين أن حرية الالحاد والدعاية اللادينية مضمونة بنص الدستور ، ويغطى هذا بالسماح باقامة الشعائر الدينية وباستغلال بعض المظاهر الدينية للدعاية فى الأوساط التى لا يزال للدين فيها تأثير .

ليس المجال هنا للكلام عن صحة نظرة الاسلام الى الوجود والكون وقوتها أمام الفلسفة المادية المتهافتة أمام النقد وليس كذلك هنا مجال الكلام عن معالجة الاسلام للظلم الاجتماعى وللمشكلة الاقتصادية وطريقته فى بناء نظام يجمع بين العدالة وحسن التوزيع والضمان الاجتماعى للفرد من جهة ومراعاة اختلاف المواهب والطاقات وفسح المجال أمامها للعمل والانتاج من غير ظلم للآخرين وليس هنا كذلك مجال الكلام عن طريق اقامة حضارة اسلامية من جديد لتكون رائدة لحضارات العصر وعن طريق جمع الشعوب الاسلامية على صعيد الاسلام الفكرى والاقتصادى والسياسى فى ظروف العصر الحاضر فكل هذه الموضوعات تحتاج أيضا الى تفصيل وبيان .

خلاصة وعلاج :

يتبين لنا مما سبق أن تيارات عالمية ثلاثة غزت العالم الاسلامى منذ نحو من قرنين غزوا مستمرا ابتداء من التيار الديمقراطى الوطنى عن طريق فرنسا وانكلترا ثم لحقت بهما وخلفتهما أمريكا الى التيار القومى عن طريق المانيا وثقافتها ثم التيار الماركسى الشيوعى عن طريق روسيا فاجتمعت علينا كذلك دول العالم الحديث الكبرى كلها للاحاطة وفك روابطنا وافناء كياننا وهدم عقيدتنا وأحب هنا أن استدرك فأقول :

١ — ليس الهدف مما أقول أنه لا محل عندنا لحب الوطن وحرية الانسان التى هى عنصر من عناصر المذهب الأول وليس مغزى ما أقول كذلك أننا لا نعترف بوجود الشعوب وقومياتها وبالدفاع عن كيانها وحقوقها ولا يفهم كذلك من نقد الماركسية الاعراض عن حل مشكلة الظلم السياسى أو الاقتصادى أو السكوت عنهما فان الاسلام الذى ندين به لا يقبل منا مثل هذا السكوت ولكن كما قلت آنفا ليس هذا الموضوع موضع الكلام عن طريقتنا الاسلامية فى حل هذه المشكلة .

ولكن القضية الأساسية هى أن معالجة كل قضية من القضايا الجانبية أو الجزئية تكون فى اطار مذهب شامل نأخذ به فيضع كل قيمه فى مكانها من فلسفته ونظامه ، ويحل كل مشكلة على طراقته

الخاصة وهذا المذهب هو الاسلام والاسلام كيانه المستقل الخاص به ، وليس عن طريق مذهب آخر من هذه المذاهب المستوردة الباطلة .

٢ ــ الأمر الثانى الذى احب أن الفت النظر اليه هو أن موقفنا العقائدى من هذه المذاهب لا يعنى عداءنا حتما للدول التى تدين بها ، فالعلاقة السياسية والاقتصادية مع هذه الدول تخضع لاعتبارات أخرى من جهة المسالمة أو المحاربة ومن جهة التعامل والتجارة .

الأخطار المحدقة بالشعوب الاسلامية :

ونستطيع أن نقول بعد هذا الاستعراض أن الغزو العقائدى للعالم الاسلامى من قبل العالم الغربى مستمر وأن تحرر بعض البلاد الاسلامية من الاستعمار الظاهرى أو الخارجى لا يعنى أبدا توقف هذا الغزو .

ان جهود هذه الدول جميعا جهود مركزة مستمرة تنشر ثقافتها ومذاهبها عن طريق المعاهد والجامعات أو المدارس والمؤسسات منذ انشاء الكلية الانجيلية التى سميت فيما بعد بالجامعة الافريقية ومدارس اللايك أو العلمانية الفرنسية فى تركيا ومصر وسوريا ، وامثالها فى الهند وايران واندونسيا وغيرها ، وعن طريق البعثات الثقافية المنتشرة فى أمريكا وانكلترا وروسيا وغيرها وعن طريق امدادنا بالبرامج والمناهج والكتب والمجلات التى تصدرها دور النشر فى جميع العالم لامداد هذه التيارات والمذاهب وعن طريق الملحقين الثقافيين والمراكز الثقافية بأنواعها ، ثم عن طريق أبناء المسلمين جيلا بعد جيل الذين رضعوا البان هذه الثقافات بمذاهبها وتياراتها ، وعن طريق جميع وسائل الاعلام والدعاية والصحف والمجلات .

ان الخطر محدق بالمسلمين من كل صوب لتحطيم اسلامهم ، وقد تسرب الى كل بلد وتسلل الى كل بيت هذا عدا الخطر الأخلاقى والخطر السياسى وما يتبعهما فماذا صنع المسلمون لصد هذا الخطر ، وماذا هم فاعلون .

وألخص وسائل معالجة هذا الغزو الفكرى والعقائدى بايجاز فى الأمور التالية :

١ ــ صياغة العقائد والمبادىء الاسلامية صياغة قوية مركزة مستمدة من الكتاب والسنة تتناسب فى طريقتها واسلوبها مع البيئة الفكرية المعاصرة دون اى تغيير فى المحتوى والمضمون لتقف هذه الصياغة أمام المذاهب العقائدية الحديثة وعدم الاكتفاء مطلقا بكتب الفت لغير هذا العصر .

٢ ـ ابراز الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والتربوية التى تنبثق من العقيدة الاسلامية المصوغة الصياغة القوية الواضحة التى وصفناها بحيث تتميز معالم الاسلام فى هذه المجالات لتنهار امامها الأنظمة الأخرى المتولدة من تلك المذاهب العقائدية .

٣ ـ عدم اثارة معارك جانبية وجزئية بين المسلمين المثقفين على أصول الاسلام وعقائده والعناية بالكليات من العقائد والأنظمة اكثر من الجزئيات .

٤ ـ التخطيط لنشر الاسلام كمذهب عقائدى متميز تتفرع عنه انظمته الاجتماعية والخلقية فى جميع مواد التعليم وخاصة فى العلوم النظرية كالفلسفة والاجتماع والتربية وعلم النفس والحقوق والأدب فى جميع مستويات التعليم وتأسيس مراكز بحوث خاصة للتخطيط والصياغة وامداد المدارس والمعاهد والجامعات .

٥ ـ اتخاذ جميع وسائل الاعلام المعروفة وسيلة لتنفيذ هذا التخطيط والتبشير به والدعوة اليه واعتبار وزارات ودوائر الاعلام مراكز عقائدية اساسية لا يدخل فيها الا كل من تحقق فيه الايمان الكامل العميق بالمبدأ الاسلامى والوعى العميق والثقافة المناسبة لذلك .

٦ ـ التنسيق بين خطط وزارات التربية والجامعات ووزارات الاعلام تحقيقا للأهداف السابقة .

اعتقد أن القارىء يستطيع بعد استعراضنا لمراحل تطور المجتمع الاسلامى من مرحلة الازدهار الى مرحلة الركود والانحطاط الى مرحلة الاستعمار والغزو المادى غير الأخلاقى واللاانسانى ، يستطيع بعد أن رسمنا له فى هذا الاطار الشامل حركة تاريخه وتاريخ الانسانية معه أن يرى بوضوح ويميز الصحيح من الزائف ويتحرر من كثير من الاطارات الضيقة المحيطة به ليشق طريقه من جديد سائرا نحو اقامة بناء انسانى جديد يجمع بين مكاسب الانسان فى معرفة آفاق الكون التى عرفه الله اياها والمثالية التى دعاه الى تلبية ندائها وتلك هى حركة الاسلام التى يمكن أن تنطلق من جديد فى ظروف مواتية جدا بالرغم من مظاهرها المعاكسة لتكون رائدة الانسانية الى حضارة جديدة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

القسم الثالث
حركات البعث الاسلامى

كتب هذا القسم الاستاذ مصطفى كامل

ردود الفعل :

لقد كان لحالة الانحطاط التى وصل اليها العالم الاسلامى وما أعقبه من غزو فكرى وثقافى ردود فعل متباينة ظهرت فى مجرى الحياة الفكرية والثقافية فى البلاد الاسلامية .. وكان هذا أمرا طبيعيا يحدث دائما حين تواجه حضارة آفلة حضارة أخرى أحدث منها وأقوى ، بصرف النظر عن طبيعة هذه الحضارات ونوعيتها ..

ولقد تمثلت ردود الفعل فى البلاد الاسلامية فى مواجهة الغزو الأوروبى فى تيارات ثلاثة رئيسية :

أولا : التيار الذى يدعو الى اعتناق الفلسفة التى قام عليها الغرب ، والأخذ الكامل بمناهج حياتها فى كل مجالات الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وفى سياسة التعليم والثقافة والفن والتقاليد والعادات .. وهو التيار الذى يطلق عليه « التغريب » اى أخذ الحياة الأوروبية الغربية بحلوها ومرها وخيرها وشرها ، وأن نيمم وجهنا نحو أوروبا وليس نحو الشرق الذى أصبح عنوان التخلف والجمود والانحطاط .

ولقد تمثل هذا التيار فى النخبة الحاكمة والسياسيين والمفكرين والأدباء واهل الفن ، يتبعهم فريق كبير من المثقفين الذين تلقوا علومهم فى أوروبا أو على النسق الأوروبى .. وهؤلاء لا يلتفتون ناحية الاسلام ، ويعتبرون أن التدين مسألة شخصية بين الانسان وربه ، لا يتدخل أحد فيها ، وليس لها دخل فى شئون الحياة العامة .. ولا شك أن هؤلاء كانوا يتحكمون فى توجيه الحياة ، ويمسكون بمصائر الأمة ، ويفسرونها على ذلك ، بما فى أيديهم من السلطان المستند الى قوى الدول المستعمرة ، التى تحميهم وتسهل لهم الطريق الى جر الأمة كلها فى هذا التيار المدمر ..

ثانيا : التيار الذى انعزل عن الحياة الحديثة متقوقعا على نفسه ، يدعو الى التمسك بالاسلام ولكن فى صورة غير صافية اثرت عليها آفات التقليد والجمود والانحراف عن المفهوم الاسلامى الأصيل ..

هؤلاء لم يقدموا الاسلام الى الناس بصورته الوضيئة كما أنزله رب هذا الدين ، وانما قدموه مسخا مشوها من التزمت والجهل بأمور الحياة ، والوقوف أمام تيار التقدم والتحضر موقف الرفض ، بل والاستنكار

الشديد ، واعتبار الأخذ بأساليب الحياة الحديثة ودراسة العلوم الطبيعية والإستفادة من انجازات العلم مخالفا للاسلام ومبادئه ..

وكان نتيجة لذلك أن انعزلوا بعيدا عن التأثير فى مجرى الحياة المتدفقة بالحيوية والحركة ، وانفضت الجماهير تدريجيا بعيدا عن هذا التيار .. بل انقرض فى معظم البلاد الاسلامية هذا الصنف من الناس وتحولوا عنه أما الى التيار الميمم شطر الغرب ولا يلتفت نحو الاسلام .. واما الى التيار الثالث ..

ثالثا : وهو التيار الذى يعتبر رد فعل صحيح وسليم لهذا الغزو الفكرى وهو التيار الذى تمثل فى حركات البعث الاسلامى الجديد .. الذى دعا الناس الى الرجوع الى أصول الاسلام النقية والى التلقى من كتاب الله الكريم والسنة النبوية المطهرة والى أخذ المفهوم الاسلامى للحياة من هذين المصدرين ..

وقد قامت حركات البعث بتصور الاسلام بشكله الحقيقى وروحه الصحيح وعلى أنه الدين الذى اختاره الله للبشر والذى يوجه الانسان الى عمارة الأرض والعمل للآخرة .. والذى يدعو الانسان الى اعتبار كل نشاط انسانى هو عبادة الله ما دام متوجها به الى الله وملتزما فيه بشرع الله .. والذى يحضه على العلم والتعليم والسياحة فى الأرض والأخذ بالحكمة حيث وجدها ، وأن هذا الدين أمد الانسان بكل ما يصلح حياته فى كل جوانبها وأن الله شرع له قانونه السياسى والاقتصادى والاجتماعى .. على أساس من التصور الصحيح لخالق السموات والأرض ومالك الكون كله وخالق الانسان والذى من حقه وحده أن يكون صاحب السلطان والدينونة والقوامة فى حياة الناس بلا شريك .

هذه هى ردود الفعل التى حدثت فى العالم الاسلامى ..

ولقد تعرضنا لشرح التيار الأول أثناء الحديث عن الغزو الفكرى وعرضنا خطط هذا الغزو والأساليب التى استخدمها ، كما تعرضنا لنماذج الذين استجابوا لهذا الغزو وتعلقوا به وقاموا بالدعوة الى التغريب والأخذ الكامل بأساليب الحياة الأوروبية ..

والآن سوف نتعرض للحديث عن حركات البعث الاسلامى الحديثة والمعاصرة فى ضوء ما درسناه من أسباب القوة وأساليب الانحطاط فى حياة الأمة المسلمة .. وما تعرضت له أخيرا من الانقضاض عليها من اعدائها .. وقيام هذه الحركات الاسلامية لبعث الأمة الى القمة من جديد .

حركات البعث الاسلامى

اجتاحت العالم الاسلامى - كما رأينا - موجة عاتية من التخلف والجمود والتقليد تحت سلطان الخلافة العثمانية وانتهت الحياة الاسلامية الى قوالب جامدة ميتة فى كافة مجالات الحياة .. سواء فى مجال العقيدة والتصورات .. او فى مجال السلوك والشعائر .. أو فى تطبيق الشرائع والأحكام .. ورأينا كيف غلبت الصوفية وصبغت احوال الناس بالسلبية والتواكل .. وكيف ماتت نزعة الاجتهاد والبحث وحلت محلها الرغبة فى التقليد وعدم الجرأة على الابتكار .. وأدى هذا الى تخلف شامل فى النواحى العقلية والعلمية وما يتبعه من الاضمحلال فى الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. واصبحت الخلافة العثمانية كالرجل المريض الذى يلفظ انفاسه الأخيرة ..

فى هذه الظروف كانت أوروبا قد سار تشوطا غير قليل فى نهضتها الحديثة وأدركت أن دولة الاسلام لن تحتمل الا ضربة واحدة لكى تتحطم ، وان على اوروبا أن تبدأ بهذه الضربة فى اول فرصة سانحة ..

وهكذا تجمعت كل العوامل .. العوامل الداخلية التى تنخر فى عظام أمة المسلمين .. والعوامل الخارجية التى تتربص بهذه الأمة لكى توجه اليها ضربتها الأخيرة ..

ونحن نعرف بقية القصة وكيف نجحت أوروبا بعد قليل فى القضاء على هذه الخلافة واقتسام تركة الرجل المريض ، ووقع العالم الاسلامى بين مخالب أوروبا ، لتكمل بمخططاتها افساد العالم الاسلامى ، واخراجه من النور الى الظلمات .

ولكن الله الذى رعى هذه الأمة واخرجها من الظلمات الى النور وهيأها لكى تكون خير امة أخرجت للناس .. شاء لها ان تصحو من رقادها وأن تقوم فيها حركات للبعث الاسلامى تحاول أن تعيد الى المسلمين والى البشرية كلها ما أضاعته قرون الغفلة والضياع والانحراف ، وتنير لهم الطريق من جديد ليروا الحق كما جاء من عند ربهم الجليل ، ولكى يقوموا مرة أخرى لاقراره فى الأرض . ولا شك أن حركات البعث الاسلامى التى نبتت من قلب العالم الاسلامى ما هى الا محاولات جادة لايقاظ الأمة من غفلتها ، واستئناف الحياة مرة أخرى على أساس منهج الله .. ومن ثم كان لا بد أن تتوافر فيها شروط أساسية لكى تقوم بهذه المهمة الضخمة .. هذه الشروط نوجزها فيما يلى :

أولا ــ لا بد أن يتوافر لهذه الحركات الادراك الشامل لهــذا الدين . ادراك العقيدة .. وادراك المنهج الذى تتحقق به هــذه العقيدة .. ذلك لأنه بغير ادراك واع لطبيعة هذا الدين وتصوراته وعقيدته ومنهجه .. لا يمكن أن تستقر حقيقة هذا الدين فى الأرض ولا فى قلوب الناس .. ومن باب أولى أن تقوم عليها حركة بعث تعيد للاسلام سلطانه وهيمنته .

ثانيا ــ لا بد من الالتزام الكامل بمقتضيات هذا الدين عقيدة ومنهجا .. وصحيح أن بين المحاولة والنجاح فيها جهد قد يطــول .. ولكن لا بد من استمرار المحاولة والارتفاع الى آفاق هذا الدين والتغلب على كل نداءات الضعف الانسانى وذلك لكى يتسنى لهذه الحركات أن تقيم بسلوكها القويم وتطبيقها الصحيح لهذا الدين الشهادة له والحجة على البشرية ..

ثالثا ــ لا بد من ادراك واقع البشرية الآن .. وخاصة واقع المجتمعات الاسلامية ومدى بعدها وانسلاخها من قيمة الاسلام وجريها وراء اغــواء الجاهلية وتضليلها .. ذلك لأنه بدون أن يتحدد واقع هــذه المجتمعات ومكانها من الاسلام لا يمكن تحديد طريقة دعوتها الى الله . ونقطة البداية معها والأسلوب الذى يتناسب مع واقعها ..

رابعا ــ لا بد من التعرف على الجاهلية من حولنا ودراســة عقائد هذه الجاهلية ومناهجها وأساليب حياتها .. كما ينبغى التعــرف على الوسائل التى تكيد بها الجاهلية للاسلام وأهله ومتابعة مخططاتها فى كافة المجالات .

خامسا ــ لا بد من اتخاذ الوسائل المكافئة لأساليب الجاهلية فى حرب الاسلام والمسلمين استجابة لنــداء الله عز وجل اذ يقول « **وأعــدوا لهم ما استطعتم من قوة** » (١) .

هذه هى الشروط التى ينبغى أن تتوافر فى حركات البعث الاســلامى فى كل وقت تدعو الحاجة الى قيام مثل هذه الحركات .

واذا توافرت هذه الشروط فان الأمل يكون كبيرا فى أن تنجح هــذه الحركات بمشيئة الله ــ فى الوصول الى اعادة سلطان الاسلام مرة أخرى .. والى عودة هذه الجماهير الشاردة الى حظيرة الألوهية من جديد ..

والله عز وجل يقول : « **وعد الله الذين آمنوا منــكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم .. وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنــا .. يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** » (٢) ..

---

(١) سورة الانفال الآية ٦٠

(٢) سورة النور الآية ٥٥

وسوف ندرس بايجاز بعض حركات البعث الاسلامى التى كان لها دور فى دعوة الناس الى الاسلام عقيدة وشريعة ، والجهاد فى سبيل نشر هـذه الدعـوة .

اولا ـ حركة محمد بن عبد الوهاب
١١١٦ ـ ١٢٠٦ هـ

أسس هذه الحركة الامام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى.. الذى ولد فى العونية من أعمال نجد ثم رحل الى الحجاز فمكث فى المدينـة حيث تلقى فيها العلم على بعض علمائهـا .. ثم عاد الى نجد الى بلدة حريملاء حيث كان أبوه الشيخ عبد الوهاب يعمل قاضيا .. ومن هناك بدأ دعوته ..

ولقد كان واقع المجتمع الاسلامى حين قامت هذه الدعوة فى أواخـر القرن الثانى عشر الهجرى الموافق الثامن عشر الميلادى على حافة الانهيـار يكابد انحطاطا فى كل المجالات الفكرية والعقيدية كما يموج بالفوضى والضياع والظلم والاضطهاد فى مجال السياسة والاجتماع ..

فلقد انحرف النـاس عن مفهوم الاسـلام سواء فى تصورهم لحقيقـة الألوهية وخصائصها وصفاتها أو فى مظاهر حياتهم السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، ففى مجال العقيدة نشأ الشرك وغلب على تصورات الناس واصبحت عبادة الأضرحة والقباب والتوسل بالمشايخ والصالحين أحيـاء وأمواتا جزءا من جوهر الدين لا يتم الايمان الا به .. وانتشرت البـدع والعادات والتقاليد والطقوس التى حرمها الاسلام .. وغلبت الطـرق الصوفية حتى غدت هى المرجع فى أمور الدين ..

أما من الناحية السياسية فلقد كانت قبضة الخليفة العثمانى على أجزاء الخلافة قبضة واهية ، واصـبح ولاة الولايات الاسلامية هم الحـكام الحقيقيون ، لا يخضعون الا خضوعا شكليا للخلافة ، حرصا على شرعيـة وجودهم .. ولقد كانت الجزيرة العربية أكثر الولايات العثمانية تفلتا من قبضة الخليفة ، وتعددت فيها الامارات وعادت الروح القبلية أشد ما تكون الى الحياة فى الجزيرة العربية .. أما من الناحية الاجتماعية فلقد خضعت للعرف والتقاليد أكثر من خضوعها لأحكام الله وشرعه .. وكانت كلمـة المشايخ هى الكلمـة المسموعة .. هذا فضـلا عن روح الجمـود والتقليـد والتخلف الذى كان يسود العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ..

فى هذه الآونة نشأ ابن عبد الوهاب وادرك أن الأمة فى حاجة الى من يجدد لها أمر دينها ويعيدها مرة اخرى الى حظيرة الاسلام .

وتحددت اهداف دعوة ابن عبد الوهاب فى امرين :

الأول : ازالة كل ما علق بالتوحيد من شرك ، **وذلك بالعودة الى مفهوم** الاسلام الأصيل وجوهره النقى المستمد من كتاب الله وسنة رسوله .

ثانيا : العمل على اقامة الامامة الراشدة التى تقوم على أمور المسلمين بالحق ..

أما الهدف الأول .. فلقد سلك اليه الامام محمد بن عبد الوهاب سبيل الدعوة الى الله من خلال البيان بالتعليم والتلقين فى أثناء تنقلاته الكثيرة فى أنحاء الجزيرة ، ومن خلال كتابة الرسائل ردا على الأسئلة التى كانت ترد اليه من أطراف الجزيرة . ولقد عمل على تربية أتباعه على أساس تعاليم الاسلام وتوجيهاته . ولقد ركز الامام على بيان حقيقة التوحيد وتعريف الناس بربهم الحق ، وما ينبغى له من التنزيه والاجلال ، وبيان حقوق الله على العباد ، وأن الله هو الحقيق وحده بالعبادة دون شريك ، وأن يعبد بما شرع وأن له الخلق والأمر .. وهاجم ابن عبد الوهاب الصوفية فى عنف ظاهر وما نجم عنها من العقائد المنحرفة ، كالجبرية والاتحاد والحلول ، كما أعلن أن التوسل والشفاعة لا تكون بغير الله تعالى ، كما أنكر اثارة قضايا الذات والصفات والجبر والاختيار .

وركز محمد بن عبد الوهاب على فتح باب الاجتهاد .. والرجوع فى كل أمور المجتمع الاسلامى الى مصادره الأصلية وهى القرآن والسنة والاجماع، وعلى عدم التقيد بمذهب معين أو امام معين ..

وبالنسبة الى الهدف الثانى فقد دعا المسلمين الى حمل لواء الدعوة الاسلامية ، واقامة حركة ايجابية تعيد للامامة المسلمة فعاليتها ، وتسليم القيادة الى من يقوم بها على وجهها الصحيح .. كما نعى على المسلمين تواكلهم وسلبيتهم واعلن أن كل مسلم مسئول أمام الله عن اقامة هذه الامامة الصالحة ، ونصر عقيدة التوحيد ، وازالة كل صور الشرك والجاهلية من حياة المسلمين ..

وكان يستنصر بالأمراء والحكام لكى يحملوا معه لواء الدعوة الى التوحيد الخالص .. وكانت نقطة التحول الرئيسية فى حياة الدعوة **تحولها الى حركة جهادية** حين استجاب الأمير محمد بن سعود أمير الدرعية .. وانطلقت

الدعوة الى التوحيد تحت توجيه الامام وتعضيد الأمير .. ولقد قامت فى ظل هذه الدعوة دولة سيطرت على شرق الجزيرة العربية وعلى غربها بما فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة .. وبدات أصداء الدعوة تصل الى جنبات العالم الاسلامى .

ولكن الأمر لم يكن سهلا .. فقد واجهت الحركة اعداء أقوياء وعلى راسهم أوروبا الصليبية ، كما انزعج الباب العالى فى الآستانة من هذه القوة الفتيه .. أما أوروبا فلقد كانت لها أطماع فى أجزاء من الخلافة وخاصة سواحل الخليج العربى بل لها أطماع فى زوال الخلافة ذاتها واستئصالها من الوجود .. ولهذا انزعجت من الحركة السلفية ومحاولتها الجادة فى ايقاظ المسلمين واعادة مجد الاسلام الذى عملت أوروبا طويلا على اخماد صوبه .. لهذا سارعت الى تحريض الباب العالى على وأد هذه الحركة فى مهدها .. ولم يكن الخليفة العثمانى فى حاجة الى تحريض بعد أن هدرت هذه الحركة الجديدة سلطانه على المسلمين واستولت على المدينتين المقدستين اللتين تبرران وجوده كحام للحرمين الشريفين .. كما أن الدعوة الجديدة تحمل طابع التحدى للخلافة ، بل هى تحض المسلمين على البحث عن امامة أصلح من هذه الامامة الراكدة ..

ونحن نعلم بقية القصة وكيف أن الخليفة أمر واليه على مصر باخماد هذه الحركة ونجح محمد على فى ذلك بعد عدة حملات .. وانتهت الدولة التى أسسها محمد بن سعود ومعها قوة الحركة الوهابية السياسية حين بعث أمير الدرعية الى الاستانة ليقتل هناك ..

ولكن ما لبثت هذه الحركة ان استعادت قوتها على يد أحد أبناء سعود وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود مكونا مرة أخرى دولة تقوم على الدعوة السلفية الخالصة بعد كفاح مرير وكان ذلك عام سنة ١٩٠٢ م ـ سنة ١٣٢٠ هـ .

تقويم هذه الحركة :

لا شك أن حركة محمد بن عبد الوهاب تعتبر الحركة الرائدة فى عصرنا الحديث نحو تجديد الدعوة الى الاسلام .. وأن كل حركات البعث الاسلامى التى تلتها ما هى الا صدى لهذه الحركة وامتداد طبيعى لها ..

كما اننا نستطيع أن نقول ان مضمونها الفكرى كان أكثر امتدادا وعمقا من امتدادها السياسى .. ولقد نجحت هذه الحركة ولا شك فى استئصال كثير من صور الشرك فى الجزيرة العربية وما حولها .. كما أنها أزالت مظاهر الشرك عن عقيدة التوحيد ، وطهرت مفهوم الاسلام مما علق به من شوائب

.. ولقد اتاح لها الامتداد السياسى قوة فى التأثير وسرعة فى الانتشار فى داخل الجزيرة وخارجها .. وان كان هذا الامتداد السياسى .. قد أثار اعداءها الى سرعة اخمادها قبل أن تسيطر على العالم الاسلامى .

ولكن لم يمنع ذلك امتدادها الفكرى الذى أمد جميع الحركات الاسلامية بمدد لا ينفد .

الحركة السنوسية

اسس هذه الحركة الامام محمد على السنوسى وهو جزائرى الأصل من قبيلة مستغانم بمقاطعة وهران ، التى شهدت مولده فى ديسمبر سنة ١٧٨٧ م وقد رحل فى سبيل تلقى العلم الى المغرب والتحق بجامعة القرويين ، وفى طريقه الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج زار برقة وطرابلس وبنى غازى ومصر .. ثم رحل الى مكة ومكث فيها فترة التقى فيها بعلمائها .. ولا شك انه تأثر بالدعوة الوهابية وفتحت أمامه آفاقا من العلم والمعرفة ، ودفعته الى التفكير فى العمل الاسلامى .. ثم رحل الى اليمن ..

فى أثناء هذه الرحلة الطويلة التى قام بها وكان ذلك بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م استطاع الامام السنوسى أن يلم بأحوال العالم الاسلامى وأن يتصل بأصحاب الرأى فيه ، وأن يرسم خطته لارجاع المسلمين الى الطريق الذى فقدوه ..

رجع السنوسى الى بلاده وقد قامت حركة عبد القادر الجزائرى ضد الاحتلال الفرنسى ، تلك الحركة التى لم تدم طويلا ، وانتهت بتطويق فرنسا لها . واحباطها ، وامتد النفوذ الفرنسى الى معظم المغرب ، وبات العالم الاسلامى يحس احساسا عميقا بأن أوروبا تحكم الخطة للانقضاض على الاسلام فى جميع مواقعه ، وأن الخلافة نفسها فى طريقها الى الزوال ..

كانت هذه الظروف هى التى أهابت بالامام السنوسى أن ينشىء حركته التى كان ميدانها الأول الصحراء الكبرى ..

مبادىء الدعوة : ككل حركة بعث اسلامية كان هدف الحركة السنوسية هو انقاذ المسلمين من كل ما ران عليهم من الانحلال الفكرى والثقافى والاجتماعى والسياسى وما ادى اليه من التخلف والضعف والهوان .. فكانت مبادىء دعوته هى مطالبة الناس بالعودة الى صفاء العقيدة ونداوة الايمان والتمسك بروح الاسلام الحقيقية التى هى اخلاص العبودية لله بافراده وحده بسلطان الألوهية ..

واعتمدت خطته على أمرين :

الأول ـ التربية الطويلة لأتباعه على أســــاس الاسلام ، وكان مفهــوم التربية عند السنوسى مفهوما شاملا متكاملا وهى تكوين الفرد المسلم تكوينا يجعله صالحا لأداء الدور القيادى للبشرية .. ومن اجل هذا اهتم بتربيــة الروح والنفس والعقل كما اهتم بالتدريب البدنى والتأهيل للقتال فى سبيل الله .. واختار السنوسى أسلوب الزوايا كركيزة لبناء الانســـان المسلم ، فكانت الزوايا مدارس لتحفيظ القرآن ، ومراكز للاصـــلاح الاجتماعى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومعاهد علمية ثقافية ، ودورا للقضـاء والفتوى ، وميادين للتدريب على الرماية والفروســـية ، ومزاولة مختلف المهن وفلاحة الأرض وزراعتها .. ومن ثم كان يتخرج من هذه الزوايا كل عام دعاة يجوبون العالم الاسلامى للدعوة الى الله .

ثانيا ـ مجاهدة الكفار الذين اعتدوا على أرض المسلمين ، وذلك بعـد ان يكون قد اعد المجاهدين الذين يجاهدون فى سبيل الله عن ايمان ومعـرفة وممارسة للاسلام والتخلق بأخلاقه ..

أثر الدعوة : كانت خطة السنوسى خطة ناجحة حقق بهـا الانتشــار لدعوته ، وامتدت الزوايا الى كل مكان .. الى السودان ، وتشاد ، وبرقة ، وسيوه ، وطرابلس ، ووصلت الى الصومال شرقا ، والسنغال غربا ، والى الحجاز أيضا ..

وكانت واحة جغبوب فى الصحراء الليبية مدرسة لتخريج الدعاة الذين ينطلقون من حافة الصحراء الى البلاد الوثنية وكان من أثر ذلك أن دخلت قبائل وثنية كثيرة فى الاسلام وأسست ممالك اسلامية مثل ســلطنة رابح واحمد وساموري .. ثم ان المجاهدين السنوسيين اشتركوا فى مجـاهدة المستعمرين تحقيقا للهدف الثانى من الحركة السنوسية ، ثم أخيرا وصلت الحركة الى السلطة فى ليبيا وتولى أبناء السنوسى الحكم فى أرض ليبيا ..

تقويم الدعوة :

لا شــك أن حركة الســـنوسى كانت حركة بعث جديد توافرت فيهـا الشروط اللازمة لقيام حركة بعث .. فقد كان الامام السنوسى يدرك الاسلام ادراكا واعيــا على انه منهج حيــاة كامل للبشرية لا تفلت ناحية من نواحى النشاط الانسانى من سلطانه وهيمنته .. كما كان على وعى كبير بأحـوال الأمم حوله وبطبيعة العــداوات التى تحيط به .. كمـا كان يعلم أن المنهج القويم لأى حركة بعث هو فى تأسـيس الأفراد على الاســلام ، وتخليصهم

من كل شوائب الشرك ورواسب الجاهلية ، فى الخلق والتقاليد ، وأن يربط بينهم وبين الله برباط وثيق ، ثم ينطلق بهم الى الجهاد بهـــذه الروح التى ارتضت الاسلام دينا ومنهجا .

ثم انه نجح فى الدعوة وادخل قبائل شتى فى دين الله فى أفريقيا عن طريق النماذج الصالحة التى جابت هذه البلاد ، ثم كانت مساهمة الحركة فى كل حركات الجهاد فى المغرب ، واخيرا كون دولة فى ليبيا على أساس هذه المبادىء الواضحة . .

ولقد استفاد السنوسى أيضا من حركة عبد القادر الجزائرى . . فتجنب سرعة الصدام بالمستعمرين قبل أن يربى الجنود تربية اسلامية ، كما استفاد من حركة محمد بن عبـد الوهاب فى أنه لم يصطدم بقـدر الامكان بالخـلافة العثمانية ، حتى يعمل فى هدوء ، ودون الدخول فى معـــارك مبكرة حتى تتم اليقظة الشاملة التى كان يرجوها فى العالم الاسلامى كله أو فى معظمه . .

ولئن كانت حركة السنوسى لم تحقق أيضا اهدافها البعيدة وذلك على الأغلب بسبب أن خلفاء السنوسى لم يسيروا على منهجه بمجرد الوصول الى السلطة . . كما أن طبيعة العداوات الصليبية التى أحاطت بالعالم الاسلامى . وهو فى أشـــد أوقاته ضعفا لم تعط للحركة فرصة للامتـــداد المرجو . . ولكن يبقى أن السنوسية كحركة تجديد قد أثرت كثيرا فى حياة المسلمين . ثم انها كحركة جهادية عرقلت المستعمر الأوروبى كثيرا ، ويكفى شـــهادة المؤرخ الفرنسى دوفرير حيث يقول :

« ان السنوسية هى المســئولة عن جميع أعمال المقاومة التى قامت ضد فرنسا فى الجزائر واليد المدبرة لجميع نكبات فرنســـا فى الشمال الأفريقى والسنغال » كما يقول « ان الحقيقة التى يجب الا نغفل عنهـــا أن الطريقـــة السنوسية هى أخطر أعداء نفوذنا وانها العقبة الكؤود فى سبيل توسعنا السياسى والاقتصادى داخل أفريقيا » . .

الحركة المهدية

أسس هذه الحركة الامام محمد أحمد عبد الله الملقب بالمهـــدى . ولد فى سنة ١٨٤٣ م وتعلم القراءة والكتـــابة وحفظ القرآن . . ورحل الى الخرطوم حيث حضر دروسا فى الفقه والتفسير وعلوم التصوف ثم انقطع فى جزيرة أبا فى النيل الأبيض حيث عكف على العبادة والتدريس . . ثم ذهب الى كردفان

وبدأ يدعو الى الله حيث آزرته قبيلة البقارة ولقب عام ١٨٨١ بالمهدى وعرف اتباعه بالدراويش .

ظروف قيام الدعوة : قامت دعوة المهدى امتدادا لدعوة التوحيد فى الجزيرة العربية ولنفس الأسباب وكانت السودان تابعة لمصر فى عهد أسرة محمد على وعايشت الفترة التى وصل فيها المسلمون الى تلك الحالة من الاضمحلال فى كل شىء .. وكانت الأحوال فى مصر بالذات وهى أقرب بلد اسلامى الى السودان تدعو الى الرثاء والتفكير فلقد أصبحت منذ عصر اسماعيل ترسف تحت أثقال التدخل الأوروبى فى كافة شئونها كما أن الخلافة العثمانية كانت تعانى آلام الاحتضار ، وبات المسلمون يعانون من الضعف والهوان والتمزق فضلا عن الانحراف فى شئون حياتهم عن المصدر الحقيقى لعزتهم ، وتلقى السودان أصداء هذه الأوضاع ، وعانى منها كما عانت بقية البلدان ، ومن ثم قامت حركة المهدى تطالب بالعودة الى الاسلام والتخلص من كل النفوذ الأجنبى ، والبحث عن الوجود الاسلامى على أسس من المنهج الربانى القويم .

مبادىء الدعوة :

ولقد دعا الامام المهدى الى الرجوع الى الكتاب والسنة ونبذ آراء الرجال ، وحاول التوفيق بين المذاهب الفقهية ، وعدم التفرق بسببها ، ودعا الى الجهاد واعداد القوة لاعلاء كلمة الله وتنفيذ شرع الله ..

أثر الدعوة :

نجح المهدى فى اقامة حركة جهادية تقوم على أسس الاسلام ، وجمع السودانيين على مفهوم الاسلام الصحيح ، وربا هم على أخلاقيات هذا الدين . ولقد جاهد الاستعمار الانجليزى جهادا مريرا ، وانتصر فى كل المعارك التى دخلها ، وهزم قادة الانجليز الكبار رغم قلة العدد والعدة ، ولكن بفضل التربية الايمانية والتوكل على الله .. واستطاع أن يسيطر على السودان ويكون دولة عاصمتها الخرطوم .. واقام فى هذه الدولة شرع الله ، ونشر العدل واقام الحدود ، ووجه الحياة الاجتماعية الوجهة الاسلامية .. ومما يذكر له انه جمع أموال الأغنياء واعاد توزيعها مرة أخرى ، وذلك فى أسلوب ممتاز من أساليب التربية ، حيث تم هذا بين أتباعه عن طريق الاقتناع والطواعية وليس عن طريق السلطة ..

ولقد كان ساعده الأيمن في هذا الجهاد هو « عبد الله التعايشى » الذى جاهد معه وحمل الأمانة من بعده .. ولكن الانجليز لم يتركوا دولة الدراويش بعد وفاة المهدى وحاربتهم حربا عنيفة وتمكنت الجيوش الانجليزية والمصرية بقيادة كتشنر من الدخول الى السودان على أشلاء عبد الله التعايشى ومن معه .. ونبشوا قبر الامام وبعثروا هيكله وبعثوا بجمجمته الى المتحف البريطانى انتقاما لمقتل غردون على يديه .

تقويم الحركة :

دعت هذه الحركة الى الرجوع الى الاسلام والاستمداد من مصادره النقية وهى الكتاب والسنة . وطرح كل الخلافات والآراء التى سببت فرقة المسلمين ، وضعفهم ، والأخذ بمنهج الله فى الحياة على أساس ان الاسلام يدعو الى تعمير هذه الأرض كما يدعو الى العمل للآخرة .. وان الاسلام هو الصبغة الربانية للحياة البشرية الذى يهيمن على كل ناحية من نواحى الحياة ، ويستجيب لكل حاجات الانسان ومطالبه فى حدود التوازن والسمو من خلال عبادة الله وحده بلا شريك ..

كما ان المنهج الذى سار عليه السنوسى وهو الدعوة الى الله ، وتربية الاتباع تربية ايمانية ، ثم الانطلاق الى الجهاد فى سبيل الله ، لتوحيد المسلمين تحت قيادة اسلامية راشدة ..

غير أن هذه الحركة كغيرها من الحركات لم يكتب لها الوصول الى اهدافها النهائية وذلك بسبب عوائق ذاتية وعوائق خارجية .. أما العوائق الذاتية فهى انها أسرعت الى الصدام فى بيئتها المحلية بالقوى المعادية لها . دون أن تحاول أولا أن توسع مساحة المعركة ، ودون أن تقوم بحركة ايقاظ شاملة فى العالم الاسلامى كله . يضمن لها رصيدا من التأييد ويجمع لها عناصر القوة ، وكان فى استطاعة العالم الاسلامى اذا توحد أن يقف فى وجه هؤلاء الأعداء ويتغلب عليهم كما حدث دائما .. وكان هذا يتوقف على دعامتين ..

الأولى : وهى التربية الطويلة العملية على مفهوم الاسلام الصحيح الذى غاب عن وعى المسلمين .. وكان هذا بالطبع يحتاج جهدا وزمنا ..

الثانية : وهى الاستعداد المادى والتخطيط الدقيق بما يتناسب مع اشكال الصراع الجديدة ووسائلها .. وذلك بالأخذ بأسباب العلم الحديث

واعداد العدة بما يكافىء أساليب الصراع التى جدت فى هذه الفترة من الزمان .. الا أنه يجب الالتفات بشدة الى أن هذه الحركات الثلاث الكبرى كانت تبغى الخلافة الراشدة ولم تكن تنظر الى الخلافة التركية نظرة الكراهية العنصرية ، ولا على اساس انها نوع من الاستعمار ، ولكن كان الهدف هو اصلاح هذا الحكم أو استبداله لمصلحة الاسلام والمسلمين ، بصرف النظر عن الجنسية أو العنصرية ، أو بمعنى ادق أن هذه الحركات لم تدع الى القومية والى العنصرية، ولكن الى الاسلام بمفهومه الكامل كدعوة عالمية .. ولم تكن تكره الأتراك بقدر ما كانت تكره اخطاءهم التى تسببت فى انحطاط المسلمين .

الحركات الاسلامية المعاصرة

بعد الحرب العالمية الأولى .. وبعد أن سقطت الخلافة العثمانية واغتالت أوروبا العالم الاسلامى .. وفقد المسلمون كل شىء حين فقدوا الخلافة وباتوا بلا امام يحكمهم بكلمة الله .. ولم يعد يجمعهم سلطان واحد ولا ولاء واحد .. واطلت النعرات القومية بقرنها وارتفعت الرايات الجاهليـة من فرعونية الى فينيقية الى آشورية الى عربية ، حدث كل هذا حين سقطت راية الخـلافة العثمانية التى حمت الاسلام والمسلمين قرابة خمسة قرون ، بل هددت أوروبا فى عقر دارها وعاشت صاحبة الكلمة الأولى فى العــالم المتحضر قرابة ثلاثة قرون .. وصدق الرسول الكريم صلوات الله وسـلامه عليه حين اخبر بأنه « **ينقض الاسلام عروة عروة اولها الحكم وآخرها الصلاة** » .. ولقد كان .. فبعد أن انفكت عروة الحكم توالت عرى الاسلام واحدة تلو الأخرى فى الضياع والانفـلات .

ولكن صدى حركات البعث الأولى .. الوهابية والسنوسية والمهدية كان ما زال يرن فى آذان المسلمين وقلوبهم .. ومن ثم قامت حركات للبعث جديدة تجاوب الصدى وتدعو الى الله ولكنها فى هذه المرة تعمل فى ظروف أشد قسوة .. تعمل وقد زال سلطان المسلمين عن الأرض وضاعت الخلافة التى كانت مع كل اخطائها تتمثل فيها وحدة المسلمين وتتجلى فيها كلمة الله .

وسوف نوجز الحديث عن أكبر حركتين فى تاريخنا المعاصر .. احداهما فى العالم العربى وهى جماعة الاخوان المسلمين .. والاخرى فى الهند والباكستان وهى الجماعة الاسلامية .. ونمر على باقى الحركات الأخرى فى ايجاز أيضـا .

الاخوان المسلمون

أسس هذه الحركة الجديدة الامام حسن البنا سنة ١٩٢٨ م الموافق ١٣٤٧ هـ ولقد ولد فى قرية المحمودية فى عام ١٩٠٦ م وكان أبوه الشيخ عبد الرحمن البناء عالما من علماء المسلمين ومحققا من محققى الحديث .. ولقد نشأ الامام حسن البناء نشأة دينية خالصة .. وعاصر احداث امته ورأى من أحوالهـا خاصة واحوال المسلمين ما أثار غيرته الاسلامية .. ثم عاصر سقوط الخلافة وأثرت فى نفسه هذه المصيبة الكبرى وآل على نفسه أن يعمل من أجل عودة الاسلام مرة أخرى ليحكم ويهيمن ولتكون كلمة الله هى العليا ..

وهكذا كون جماعته سنة ١٩٢٨ واطلق عليها الأخوان المسلمون .

مبادىء الدعوة : يعبر شعار الجماعة عن اهدافها ومبادئهـا فهـذا الشعار :

يعلن أن الله غايتنا والرسول زعيمنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت فى سبيل الله اسمى امانينا ومن ثم فان الاسلام الذى تقوم عليه الجماعة هو الا حكم الا لله وان عبادة الله هى غاية الوجود الانسانى وإن الرسول صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين وان القرآن هو الدستور الذى يحكم حياة المسلمين ولا يشاركه مصدر آخر وأن الجهاد هو السبيل الى اقرار سلطان الله فى الأرض وان الموت والشهادة هى أسمى ما يطمح اليه المسلم الصادق ..

وكانت خطة حسن البنا للوصول الى بناء المجتمع المسلم تتلخص فى اربعة مراحل هى :

١ ــ بناء الفرد المسلم . ٢ ــ بناء الأسرة المسلمة

٣ ــ بناء الأمة المسلمة . ٤ ــ بناء الحكومة المسلمة .

فالاخوان يعتقدون أنه لا يمكن أن تتحقق اليقظة الاسلامية الا أن تسبقها يقظة تتناول الأفراد والاسرة والجماعات وانه اذا صلحت الاسرة فقد صلحت الأمة .. وان غاية ما يسعى اليه الاخوان هو اقامة الحكومة الاسلامية التى تطبق نظام الاسلام فى الحكم تطبيقا صحيحا كاملا شاملا وتحميه من القوى المعادية .

أثر الدعوة : لا شك أن حركة الاخوان من أكبر حركات البعث الاسلامى المعاصر .. وانهـا اثرت تأثيرا كبيرا فى المجتمعات الاسلاميـة .. وعن طريق

فروعها الكثيرة فى مصر والبلاد العربية والاسلامية استطاعت أن تحدث يقظة اسلامية على اسس واضحة .

تقويم الحركة :

دعوة الاخوان دعوة سلفية تاثرت تاثيرا بالغـــا بالحركات التى سبقتها وخاصة الوهابية .

ولقد قامت فى ظروف اتاحت لها الكثير من النجاح .. حيث كان الناس متلهفين على عودة الخلافة التى فقدوها فراوا فى جماعة الاخوان املا يحقق لهم هذا الرجاء ولقد خذ منهج الحركة بأساليب الحياة المعاصرة فى الدعوة ، مما أتاح لها فرصة الوصول الى طبقات الأمة الاسلامية عن طريق الرسائل والخطب والمقالات والصحافة ومن خلال النشاط الاجتماعى من فتح مدارس ومستشفيات ومظاهر حركة الجوالة الاستعراضات العسكرية ، كل هذا أتاح للدعوة انتشارا سريعا ..

ثم كان لدخول الجماعة المضمار السياسى ثم دخولها المضمار العسكرى فى حرب فلسطين وتحرير القنال لاجلاء الانجليز أثر كبير فى ظهور الجماعة وانتشار مبادئها والتفاف الناس حولها واعتبارها قوة هائلة ذات طابع اسلامى اصيل .. مما أزعج أعداء الدعوة الاسلامية من مستعمرين وعملاء وادى الى دخول الجماعة فى سلسلة من المحن والمتاعب منذ عام ١٩٤٢ الى سنة ١٩٦٥ .

وما زال الوقت مبكرا لوضع تقويم نهائى لهذه الحركة الكبيرة التى ادت الى الاسلام خدمات جليلة وقادت الجهاد فى سبيل تحكيم الاسلام فترة من أحلك الفترات فى تاريخ المسلمين ، وايقظت الشعور بالحاجة الى هذا الدين الحنيف الذى يحقق مصالح الناس ويلبى حاجاتهم ، ويرد لهم عزهم المسلوب ومجدهم الضائع .

الجماعة الاسلامية فى باكستان

أسس هذه الجماعة العالم المسلم المجاهد ابو الأعلى المودودى فى سنة ١٩٤١ ميلادية بعد أن بدأ يدعو الى الفكرة الاسلامية فى مطلع شبابه والى تجميع المسلمين الهنود فى دولة خاصة بهم تقوم على الاسلام بعد أن عانى المسلمون من حياتهم مع الهنود الوثنيين .. وظل يدعو الى هذه الفكرة منذ عام ١٩٣٣ وآزره الشاعر الباكستانى المسلم محمد اقبال .. حتى تأسست الجماعة واختير المودودى أميرا لها . وفى عام ١٩٤٧ انقسمت الهند الى قطرين

الهند والباكستان وانقسمت الجماعة الاسلامية تبعا لهذا الى قسمين .. قسم فى دلهى فى الهند .. وقسم فى باكستان مركزه لاهور بامارة المودودى .

مبادىء الجماعة : تتلخص مبادىء الجماعة فى هذه الفترة من بيانهم العام وهى :

« الدعوة الى اهل الأرض جميعا ان يحدثوا انقلابا عاما فى احوال الحكم الحاضر الذى استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فسادا وان ينتزعوا الامامة الفكرية والعلمية من ايديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا .. وان السبب الحقيقى الوحيد فى نظر الجماعة لكل ما فى الأرض اليوم من القلق والاضطراب والفساد والدمار هو انحراف اهلها عن طاعة ربهم وغفلتهم عن مسئوليتهم فى الآخرة واعراضهم عن اتباع هدى الأنبياء وطريقتهم المثلى ..

وخطتهم الى هذا الهدف هى :

١ ـ تطهير الأفكار وبيان الطريق المستقيم الى تطبيق الاسلام .

٢ ـ استخلاص الأفراد الصالحين وتربيتهم تربية اسلامية .

٣ ـ السعى فى الاصلاح الاجتماعى ويشمل كل طبقات المجتمع .

٤ ـ اصلاح الحكم والادارة .

ولا يتأتى هذا الا باقامة نظام اسلامى سليم ونشر الوعى السياسى الصحيح فى الرأى العام وتسليم مقاليد الحكم والسلطة الى رجال صالحين يحكمون على أسس الاسلام وهدى الكتاب والسنة .

اثر الحركة :

لقد اثرت الجماعة الاسلامية كثيرا فى اتجاهات باكستان الحديثة وارغمت الحكومات المتتالية على الاقرار بمبادىء الاسلام واعلان الحكم به وان كان ذلك قد عرض الجماعة لحملة من الاضطهادات ودخل أميرها المودودى السجن سنة ١٩٤٨ ثم جاءت بعد ذلك حكومات عسكرية أبطلت كل هذه الاجراءات الاسلامية وانتكست باكستان الى حكم علمانى وفى سنة ١٩٥٦ ألغى الدستور واعلنت الأحكام العرفية وحلت الأحزاب بما فيها الجماعة الاسلامية ودخل اعضاؤها السجون .

تقويم الجماعة :

هى من اكبر الحركات الاسلامية المعاصرة قامت على الادارك السليم لعقيدة التوحيد وعلى المطالبة الملحة للعودة الى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله والرجوع الى صفاء الدين بعيدا عن الشوائب .. ولقد اثرت فى نشر الوعى الاسلامى فى شبه الجزيرة الهندية ثم انتشر الى بقية اجزاء العالم الاسلامى .. واصبحت كتابات المودودى مصدرا ثريا من مصادر المعرفة بالاسلام .. وما زالت هى الصوت المسموع للاسلام فى جنوب شرقى آسيا .. وهى تعمل على ترابط الحركات الاسلامية كلها وتعاونها لتوحيد العمل الاسلامى والدعوة الى الله فى انحاء العالم اجمع .. وتشترك فى اكثر المؤتمرات التى تعقد فى كل مكان من اجل الاسلام .. ولقد ترك الاستاذ المودودى الامارة بسبب مرضه وتولاها بعده طفيل محمد ..

ولأنها جماعة معاصرة فما زال التقويم النهائى متروكا للمستقبل .

جمعية النور فى تركيا

وهى جماعة تكونت فى اعقاب الحرب العالمية الأولى بزعامة الشيخ سعيد النورسى وهى صيحة عالية للاسلام فى تركيا وان كان يغلب عليها الجانب الصوفى والتأثر بالطريقة النقشبندية مع ادراك واع للاسلام وللجو المحيط به ولقد عانت جماعة النورسى من اضطهاد الكماليين ولكنها ظلت على أى حال الصوت العالى الذى يذكر بالاسلام فى وسط محاولات الكمالية العنيفة لعلمنة تركيا بعيدا عن الاسلام ..

ولقد مات الشيخ سعيد النورسى وما زال اتباعه يحملون الراية ، ولقد حدثت اتجاهات متعددة فى الجماعة وتعاون بعضهم مع حزب العدالة التركى الذى كان يراسه عدنان رئيس وزراء تركيا الأسبق الذى قتل بسبب ارجاعه بعض مظاهر الاسلام كتعريب الآذان ولكن هذا الحزب ليس حزبا اسلاميا على كل حال .. ولهذا قد يكون اثر الجماعة الآن فى تركيا ليس بالأثر القوى وان كانت هناك بذور حركات اكثر وعيا وانضج فكرا قد يكون لها فى المستقبل شأن كبير ..

* * *

هذه هى الحركات المعاصرة البارزة .. وان كان قد ظهر فى بلاد الاسلام حركات بعث أخرى أقل شأنا واثرا .. مثل حركة دار الاسلام فى اندونيسيا التى قاومت كثيرا وما زالت .. ولكنها ضربت بشدة من النظام الاندونيسى واتخذت أخيرا شكل الحزب الثقافى وليس الجهادى واشتركت فى الحياة السياسية ..

كذلك قامت هناك حركة اسلامية فى غينيا واجهت متاعب كثيرة فى عهد أحمد سيكتورى وأعدم أحد عشر عالما من علمائها فى الستينات . .

كما ظهرت جماعات اسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية بين الجماعات السود .. وبعضها منحرف انحرافا واضحا عن الاسلام .. ولكن هناك البعض الذى يقوم على أسس اسلامية سليمة غير أن السلطات الأمريكية تحيطها بالصمت والتجاهل وتحاول التخلص منها فى هدوء .. هذا عدا المراكز الاسلامية المتعددة فى بلدان العالم المختلفة وخاصة فى أوروبا الغربية وهؤلاء لهم نشاط كبير على مستوى طيب نرجو لهم المزيد من التوفيق ..

وهكذا نخلص الى أن العالم الاسلامى قد أيقظته صيحات البعث المتعددة التى بدأت بصيحة ابن عبد الوهاب من قلب الجزيرة العربية وتجاوبت اصداؤها فى أرجاء العالم الاسلامى ونشأت حركات بعث ما زالت تقوم بواجبها الذى كلفها الله به .. والأمل كبير فى أن تثمر هذه الصيحات اليقظة الشاملة التى تؤدى الى توحيد العالم الاسلامى ورجوعه الى الاسلام واقامة سلطان الله فى الأرض وهيمنة دينه .. ولعله .. مما يعين على هذا الأمر ان حضارة الرجل الأبيض فى طريقها الى الزوال بعد أن فقدت مبررات وجودها وبعد أن أفلست فى عالم القيم والأخلاق مما يدعو الى البحث عن مخلص ينقذ البشرية من الدمار ويضمن لها استمرار الحياة فى توازن وتناسب ويعطى الانسانية الحل الصحيح لايجاد حضارة الانسان التى تحافظ دائما على انسانية الانسان ..

ولن تجد البشرية ذلك الا فى المنهج الذى صنعه لها خالقها الجليل الرحيم والذى جاء به الاسلام ..

وصدق الله اذ يقول : « **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم (١)** » ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الاسراء الآية : ٩ .

فهـــرس

مطابع جامعة الملك عبدالعزيز